

محمد فرید ابو حدید



البوعاء، المرمی



دارالمعارف بمصر

الوعاء المرمى

محمد فرید ابو حدید

الوعاء المرمری

قصة جهاد بطل وأمه — من
حياة سيف بن ذي يزن بطل اليمن



مطبعة المطبع والنشر
دار المعارف بمصر

**** معرفتي ****
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أكتب هذه القصة تذكراً لقطعة عزيزة من حياتي ، وأهديها إلى
هزة الشباب الكبرى في عام ١٩١٩
كانت ليلة من ليالى فبراير سنة ١٩١٩ قبل أن تنفجر الثورة الكبرى
التي كانت كامنة في النفوس تنتظر الشرارة التي تشعل لهيبها . وكان
القمر التام يغمر المنزه المنعزل الذي جلسنا فيه في حدائق القبة ، وكانت
إذ ذاك في عالمها الشعري الوديع قبل أن ينزل بها العمران إلى زحمة الحياة
العابسة . وهبت النسمات الدفيئة علينا في ظلال الأشجار المبعثرة في
المنزه تبشرنا بقرب مقدم ليالى الربيع وكان الناس يجلسون حولنا
أزواجاً أزواجاً يتلفتون في حذر من العيون الفاحصة وهم يتناجون في
همسات خافتة تحت أنوار مصابيح تنهامس كذلك بأشعتها الضئيلة .
كان ذلك قبل أن يطلع على فتيان مصر وفتياتها برق المدينة الحديثة
وقبل أن تزول عنهم الغلالة الرقيقة التي كانوا يسترون بها إذا أرادوا أن
يختلسوا ساعة لقاء .

ومرت بنا الساعات سريعة ونحن في حديثنا لا نلتفت إلى شيء مما حولنا . وكان صوتنا يعلو أحياناً في حماسنا فنتلفت خشية أن نعكر الصفاء على الأزواج القريبة من مجلسنا ، فما لهؤلاء السعداء الذين كانوا يتبادلون أمانى الحياة المزدهرة ويتعاطون خفقات القلوب الحاملة التي هزها الربيع المقبل — ما لهؤلاء وما نحن فيه من أحاديث ملتهبة حائقة تنبعث من الثوزة الثائرة في أعماق قلوبنا . كنا جمعاً من الشبان لا يعدو أكبرنا سن الخامسة والعشرين ولكننا كنا قد قفزنا عبر الشباب فلم نكد نلم بشيء من عبثاته السعيدة . ولم ندرك عند ذلك مبلغ إسرافنا في ساعاته وما أسرع طيرانها ! كنا لا نحسن من شبابنا إلا تلك الدفعات العنيفة التي لا تحمل شيئاً من روائح الشباب العطرة . وكانت الحرب العالمية الأولى قد هدأت في ميادينها فجأة كما تهدأ العاصفة العاتية فجأة ، ولكن الحطام الذي تخلف عنها كان ما يزال ماثلاً في كل الأركان يثير رعبها ومخاوفها وقلقها ، كأنها ما تزال تتوثب لغضبة أخرى . فلم يكن في نفوسنا شيء غير سؤال واحد نرذده في أحاديثنا : « ماذا يكون من أمرنا في مصر بعد أن هدأت العاصفة ؟ » كنا لا ندري ما يكون حالنا غداً وهذه الركाम المخيفة تغطي وجه الأرض من حطام الحرب . أقدم انتهت الحرب الكبرى التي ثارت من أجل الحرية كما قيل كي نصبح نحن فنجد أنه قد حيل بيننا وبين الحرية التي ما زلنا ننشدها ؟ كانت الأحداث والأحوال كلها تتم عن نية مستورة في شد القيود والأغلال في أيدينا وأعناقنا . فهل كانت الحياة تستحق أن نحياها إذا

كان المقدور لنا أن نصبح للأجنبي عبيداً ؟ وبدت لنا الحياة المقبلة طويلة هزيلة شاحبة شوهاء ، حتى إن الموت نفسه كان في أعيننا أهون من تأملها . وكان ولسن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن شروطه الأربعة عشر . فتنفسنا ارتياحاً وحسبناه نبياً ، وحسبنا أن تلك الشروط تصبح الأساس المتين لعالم جديد نستطيع أن نحيا فيه مع أمانينا . وكنا نحفظ ألفاظها حرفاً حرفاً ونردد عباراتها بقلوب واجفة مترددة بين الأمل والخوف . وسألنا أنفسنا مرة بعد مرة : أحقاً يقوم عالم جديد على مثل هذه المعاني العليا ؟ كان كل حرف منها يفتح أمامنا باباً من الأمل كأنه قد أنزل على الرئيس وحياً من السماء يقصدنا . ولكن الواقع الذي شهدناه بعد ذلك ولحنا اتجاهه كان في كل يوم يكذب آمالنا ويزيد مخاوفنا وضوحاً . فما السبيل إلى الخلاص من المخاطر البشعة التي تهدد حياتنا ونحن من أمة تحس وجودها ؟ كنا نحس وجودنا في الحاضر كما نحس وجودنا القديم . ولكننا كنا لا نرى المخاوف تزداد في كل يوم إلا تجسماً .

فتساءلنا : ماذا نستطيع أن نصنع إذا أردنا الجهاد وهذه الحيوش المنتصرة تملأ رحاب القاهرة والإسكندرية وسائر العواصم ، تباهى بقوتها وترهى بنصرها . كانت تروح وتغدو في كل مكان بسلاحها الضخم وكتائبها الكثيفة تعلن للملأ أنها هناك . فماذا نلتقي منها إذا اصطدمنا يوماً بها ؟ أهو الموت ؟ إذن فلتكن هبة هوجاء لا نبالي فيها ما يكون إذ لم يبق أمامنا إلا الاختيار بين العبودية وبين الموت . وتأملنا ذلك

الاصطدام الرهيب الذى كان لابد لنا منه ، وثبت فى روعنا أن الموت قد أصبح أمنية نحلم بها ونتطلع إليها ونبتسم إذا بلغناها . وهل أحب من الموت إذا كانت الحياة لا تدخر لنا إلا أن نعيش فيها عبيداً نطعم ونكسى ونكد تحت أقدام سادتنا ؟ إذن فهو الحق وهو الغضب وهو الثورة التى لا تفكر فى عاقبة ، وإن بطن الأرض خير من ظهرها إذا كان ظل الجرية لا يرف عليها .

هذا ما كان يضطرب فى نفوسنا وهذا ما جعلنا فى سن الخامسة والعشرين نقفز عبر الشباب ولا نتنسم شيئاً من أنسامه .

وكانت ليلة الربيع الأول الساجرة وشعاع القمر الذى ينمذ من خلال الغصون الممتدة فى أرجاء المتزه والسكون الشامل ومنظر الأزواج السعيدة المتهامة ، كان كل ذلك يزيد نفوسنا ثورة وعنفاً فهل كانت الحياة الدليلة التى نستقبلها جديرة بأن تبسم لها الطبيعة مثل هذه الابتسامة أو تخفق فيها القلوب مثل هذه الحفقات العاطفة ؟ بل هى حياة لا يليق بها إلا أن تتجهم لها السماء وتمطر الأرض حمماً وأن تتحجر لها القلوب فلا تمتلئ إلا بالحقد والبغض والقسوة . وتنبهنا بعد حين إلى ما حولنا يدفعنا شئ يشبه الغيرة أن نرى السعداء على خطوات منا لا يبالون شيئاً مما يضطرم فى قلوبنا . ولكننا لم نجد حولنا إلا مقاعد خالية وقد أطفأ الجدم أكثر المصابيح التى تتدلى من الأغصان ، وجاء صاحب المتزه يحوم حولنا كأنه يذكرنا بأن هذه الجلسة قد امتدت بنا إلى أكثر من حقها . وكان وجهه ينم عن شعور غامض

ولكنه واضح ناطق ، شعور الذى يرى صقراً يحوم فوق سرب من الحمام الوديع .

ونظر بعضنا إلى بعض فى صمت ، ثم هم واحد منا قائماً فقمنا وراءه على تفاهم صامت ، ونحن نحس شيئاً من الحمية . إن المجلس لم يمتد بنا حتى نبلغ ما نشاء من أحاديثنا ولم يبلغ بعد ما يشئ غليل صدورنا . وسرنا فى الطريق الساكنة المتعرجة التى كانت عند ذلك تصل بين منزله الحدائق وبين العمران فى « غمرة » . ومضينا فى حديثنا ونحن نسير على مهل فى ظلال أشجار اللبخ ، وأغصانها تتعانق من جانبي الطريق فوقنا كأنها نفق يحترق الفضاء المضى .

وبلغنا ميدان الحسينية قبل منتصف الليل ، وكان النسيم ما يزال يهب وديعاً والنذر الباهر يتوسط السماء الصافية والأنوار الساطعة تنبعث من الحوانيت والمنتديات الشعبية التى تحف بالميدان . ولاحت لنا حلقة حافلة فى منتدى كان قائماً عند مدخل الطريق الضيق المؤدى إلى المدينة . وكان فى وسط الحلقة شاعر ينشد على ربابته ويقص على الجمع الحاشع قصته . وكان فى رنين إنشاده من بعيد ما يوأم نبضات قلوبنا المضطربة . فقال واحد منا : « ما ترون فى مشاركة هؤلاء ؟ » فما هو إلا أن قال ذلك حتى اتجهنا إلى المنتدى فى موافقة صامته .

وكان الشاعر شيخاً لا أذكر أن عيني وقعت على مثل صورته . كان أشبه بنحبال أو بصورة فى إحدى اللوحات الفنية التى يخلد بها مبدعوها . كان نحيفاً معروق الوجه له لحية خفيفة وخطها الشيب ،

ولكن عينيه كانتا تبصان بنور لامع يخالطه سيال وديع يشعر
 بشجن دفين . وكان يلبس عمامة بيضاء ذات عذبة تضطرب على كتفه
 إذا تحمس في إنشاده . ومضى في إنشاده بصوت متهرج ثم نبراته عن
 حركة نفسه وحرارة وجدانه . وكانت ربابته تصاحب إنشاده بلحن
 عميق يملأ جو المنتدى بأصدائه وهو يعلو حيناً وينخفض حيناً ويرق في
 مواضع ويعنف في أخرى مسرعاً أو مبطئاً مبهجاً أو حزيناً والجمع
 من حوله ينصت في لهفة . كان ينشد كأنه يحدث نفسه بحلم يراه خلال
 سنة من النوم ، أو يناجي أطيافاً تظهر له من عالم مستور يهتف له
 بأسرار الإنسانية التي ما زالت منذ القدم تملأ قلوب البشر أملاً وتجعل
 لحياتهم مقصداً . ولحمت عليه عند أول مقدمنا شيئاً من التردد يكاد يكون
 ضيقاً وكراهة . فمن هؤلاء الأغراب الذين يأتون إلى مجلسه في مثل تلك
 الساعة من الليلة يقتحمون الجمع الخاشع الذي حوله في شيء من الزهو
 كأنهم يتنازلون بالذهاب إلى هناك للاستماع إليه ؟ وهل تقع قصته
 في نفوسهم موقعها في نفوس الجمع الساذج الذي اعتاد الاستماع إليه ؟
 أجمعوا للمتعة أم جاءوا للسخرية ؟ ولكن الجمع تحرك في دهشة وفسح لنا
 مجالسه عندما رأنا نقبل عليه . ولاحت على الوجوه بسمات عاطفة كأنها
 اغتبطت أن ترانا نقبل على المتعة التي تتمتع بها . كانت تلك الوجوه
 تشعرنا نحن كذلك بشيء جديد يشبه أن يكون وحياً . أليس هؤلاء
 قومنا الذين نستند إليهم إذا عصفت العاصفة يوماً ؟ فتبسمنا في بساطة
 وجهنا بالتحية، وكان الرد عالياً بنبرات مؤنسة . أليس هؤلاء هم إخواننا

الذين يطلع عليهم الغد كما يطلع علينا ؟ أهى العبودية معاً أم هى الحرية معاً ؟ ولم يخل قلبى من الألم عندما نظرت إلى وجوههم الباسمة . ألسنا مقصرين نحن الذين يدعون أنفسهم بالمتقنين فى أن نتقرب إلى هؤلاء وأن نتعرف إلى هؤلاء ؟ كانوا ينظرون إلينا نظرة المضيف إلى الضيف ، لأننا لم نكن منهم وإن أدخل مقدمنا الأانس إلى قلوبهم . ولعل ذهابنا إلى متداهم قد زاد فيهم الرضى عن أنفسهم وعن المتعة التى يختصون بها وحدهم . فنحن « الأفندية » نذهب للجلوس بين الجمع الحاشد الذى يزحم الطريق ونسعى لمشاركهم فى شرب القهوة والحشاف وتدخين النارجيل المكررة .

وبعد أن هدأت حركة اللقاء الأولى مضى الشاعر فى إنشاده مرة أخرى وقد لانت نظرتة وذهب أكثر تردده وإن كان بين حين وحين يرفع بصره إلينا فى نظرة سريعة ليلمح ما كان يبدو على وجوهنا من الرضى أو السخرية .

منذ تلك الليلة صرنا من قصاص ذلك المتدى البلدى ، نذهب إليه معاً إذا اجتمعنا ، أو وحداناً إذا لم ندبر اجتماعاً ، حتى أصبح لنا بعد قليل ملتقى مختاراً . ولم نلبث أن صرنا أصدقاء الجميع وعرفنا الأفراد شخصاً شخصاً . وعرفنا من هناك بأسمائنا وكانوا يحتفظون لنا بمجالسنا ، فإن غبنا ليلة أو ليالى أو تأخر حضورنا سألونا أين كنا . وكان لهذه الصداقة الحديدية أثرها العظيم عندما شبت الثورة الكبرى فى مارس من ذلك العام . كنا نجتمع هناك كل ليلة فى المتدى ندبر مع أصحابنا

خطط الجهاد في سبيل الحرية . وكان لهذه الصداقة أثرها في تهذئة الحواطر عندما كادت الفتنة تقع بين أهل الحى وبين التزلاء من طوائف اليهود والأرمن . ألا ما أجلها من ذكرى ! إن هذا الشعب جدير بأن يكون أكرم مما هو وأقوى مما هو وأسعد مما هو .

وهذه القصة التى أكتبها اليوم بعد مضى أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الأيام البعيدة ما هى سوى تحية أؤديها لذكرى اللحظات المجيدة التى كنا نجاهد فيها بأنفسنا ونسخو فيها بأرواحنا لا نسأل أحداً عليها أجراً ولا شكراً ، وهى بعد ذلك تحية لهؤلاء الأصدقاء الذين كنا نجلس إليهم فى ليالى النشوة الثائرة ثم فرقت الأيام بيننا . ثم هى تحية للشاعر الذى ما زالت صورته ماثلة فى الذكرى وإن كان اليوم يثوى فى مضجعه الأبدى ، لا يذكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع من ضمير الغيب . وهذه القصة هى بعض الأصدقاء الباقية فى القلب من تلك الأناشيد البارعة التى كانت القلوب تتجاوب لها ، عندما كانت تضطرب وتأمل وتخلص وتصادق فى غير تحفظ ، عندما كان الأفق البعيد يبدو جميلاً صريحاً تفيض عليه أنوار ساحرة ، عندما كانت الأيدي تسخو بقليلها والقلب يوجد بكثيره ، عندما كانت الصور والمعانى أثنى وأكثر قوة من الحقائق والمادة .

وبدأ الشاعر ليلة من الليالى ينشد قصة سيف بن ذي يزن عندما طلبنا ذلك إليه ، لنملأ نفوسنا بصورة من ذكرى المجاهد العربى القديم .

فأودع الشيخ النحيل إنشاده كل حرارة قلبه المشتعل وكان يترجم في أنغامه وألفاظه ما في قلوبنا من نبضات حية . كان يعرض الصور علينا ويسوق الحوادث في بيانه كأنها قطع من الحياة التي تضطرب فينا . وكان يتحدث على ألسنة الأشخاص كأنها نفوس جاءت معنا لتشاركنا . وكان يلقي علينا أسجاعه في أمواج من النغم تتلاحق وتتداخل مطربة مشجية ، فيها تقاذف الحياة بالأحياء وفيها طعوم الآلام المرة والآمال العذبة ، وفيها نشوة الحب وجراح المعارك . وقال في أول إنشاده :

« هل الحياة إلا صور متجددة تتجسد في جيل بعد جيل في شخوص شتى وإن كانت حقيقتها واحدة ؟ »

وكان في إنشاده يشخص ببصره فوق رؤوس الجمع كأنه لا يرى أمامه شيئاً سوى الصور التي يراها وحده سابحة في عالم غير منظور . وكنا نستمتع إليه في صمت ونكاد نعلق أنفاسنا في صدورنا . ولو استطعت أن أعيد كلماته ولفقاته وأن أثبت قصته كما قالها حرفاً وحرفاً وإشارة وإشارة لما استطعت أن أبين أصداء إيقاعه ولا حركات الأفتدة التي كانت تصغى إليه . وأنى للألفاظ أن تحمل فوق طاقتها أو أن تبعث من المشاعر ما لا تستطيعه بطبيعتها ؟ وهل الألفاظ سوى أداة صنعتها الإنسانية من مادتها وأبدعتها من فطرتها ؟ ما كان لألفاظنا المحدودة أن تسمو إلى غير أفقها ولا أن تصور ما يدق عن بيانها . ليست هذه الألفاظ سوى أستار نسجها الإنسان بيديه لكي يسدلها على مكنون ضميره لترمز إلى ما وراءها إذا عجز اللسان عن الإفضاء بمعناه ، وما كان لها أن تصور رؤى

شاعر يسبح وحده في عالمه إلا كما تدل الرموز الغامضة على الأقداس الخفية . فحسبي إذن أن أردد هنا ما وعته ذاكرتي من تلك الأناشيد التي كانت دماؤنا تتدفق مع أصدائها ، وأن أقنع بما يتهاى لي من لفظي وبياني مع الاعتراف بالقصور ، وشتان بين الصادح والحاكي وبين الأصيل والدخيل .

وكان أول نشيده يشبه أن يكون اعتذاراً وإن كان ينحني في ثناياه أقوى معاني الاعتداد بكبرياء نفس طليقة . قال :

« أيها السادة الكرام إليكم قصة صاغها الزمان من أحداثه وأنشدتها الليالي في نغمها الصامت . قد طالما صاحب الزمان الأحياء كما يصاحبنا اليوم ، وطالما عابث الناس كما يعابثنا في الإصباح والأماسى .

وهو يدور بالبشر في حركته الأبدية لا يفرق بين قديم وحديث ، ولا يميز بين قوم وقوم . له حكمته الصارمة لا يحابي ولا يعادي فيها ، ولا يعرف الأشخاص ولا الأمم ولا العقائد ولا ألوان الشعب . وهو لا يعبا بما كانت الحياة تكسوه به البشر من مظاهر تعارف الناس عليها فيما بينهم ، من ملوك وسوقة وعظماء وصغار وعلية أو سفلة ، بل يناديهم جميعاً بأسمائهم مجردة ويعرفهم بحقائقهم مكشوفة . يصف الجميع بأوصافهم الصادقة ولكنه لا يتهم ولا يمدح . هو هادئ هدوء الأبدية عادل عدل الأزلية صارم نافذ ولكنه لا يعرف رحمة ولا قسوة . وهو يضم الذين عاشرهم بالأمس إلى أولئك الذين مضى بهم من قرون . يودعهم جميعاً في رحبة واحدة لأنهم أخذوا فرصتهم في الحياة ومضوا عنها ولا سبيل لأحد منهم

إلى معاودة الكرة فيما كان .

هو يعاشر هذه البشرية ويشهد حركتها ويعرف دخائلها وكوامن أسرارها ، ويرى كل جيل وهو يستقبل الحياة ، ثم يراه وهو يودعها ، ولا يقل أن يستعيد المنظر مرة بعد أخرى . كل فرد يستقبل حياته جديدة ويحس حرارتها ويذوق منها سعادتها أو شقاوتها . يحمله الشباب حيناً في فلكه المذهب وينساق به حيناً مع تياره الدافق ، ويحسب أنه يجرب ما لم يجرب أحد من قبله ، ويدرك ما لم يدركه أحد غيره . يذوق الحب فيحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب ، وأن الأودية الغامضة ذات الألوان الزرقاء الرفيقة لم تكشف أستارها لأحد قبل أن تنكشف تحت عينيه المسحورتين . وهو يقارف حالات الحياة من سلام واضطراب وسعد وشقاء وخوف وأمن فيظن أنه أول من ذاق حلو الحياة ومرها . ولكن الزمان يرمقه باسمًا وينادي بصوت خفي قائلاً : هكذا كانوا دائماً .

وما نحن أيها السادة في حياتنا سوى بعض مشاهد هذا الزمان القديم الحديد ، نحس ما أحس من كانوا قبلنا ، ونجرب على الأرض في مغامرتنا مثل ما جربوا . فلسنا سوى قصص معادة فيما نشهد من مباحج الحياة أو مآسيها . فإذا سمعتم أيها السادة قصتي فطربتم أو جزعتم ، ووثبت هممكم أو خشعت ، فإنما هي هزات قلوب بشرية ترى صورتها في مرآة . فاستمعوا أيها السادة إلى أنشودتي فهي قصة كل منكم ، لأنها لحظة من المغامرة الإنسانية الكبرى . مغامرتها القديمة الحديدية في

حياتها على الأرض منذ خلق الله الإنسان . والبشر يتلاقون ويتفرقون ، وقد ينقطع ما بينهم أبد الدهر فلا يذكر أحدهم الآخر إلا أن تسنح ذكرى عابرة عقيم في لحظة من اللحظات ، ثم تمضي كما يومض البرق ويخلف وراءه الظلام ، وقد تتعقد الأمور وتتلاقى خطوط مير البشر فتصبح للناس قصص يتناقلها بعضهم من بعض ويستوحون منها الحكمة . وهذه القصص التي تخلفها الأجيال وراءها هي أثمن ما فيها - لأنها تراث الإنسانية الأكبر ، فيها صور خالدة من حالات النفس التي أبدع الله نشأتها . وهذه الصور قد تختلف في ملامحها وفي ألوانها ، وقد تتعدد بيئاتها ، وتتباين أزيائها وطرائق تفكيرها ، قد تكون في الجبل . أو السهل وفي الغابة أو الصحراء أو في المدينة المزدهمة ، وقد تتجلى في معابد الأوثان أو مساجد الوحدةانية ، ولكنها في جوهرها واحدة خالدة .

استمعوا أيها السادة إلى قصتي وإلى أنغام ربابتي ، لا بل إنني وأنا أنشد لكم أستمتع إليها معكم . ولقد سرت في أنحاء المدينة كل حياتي وعرفت أركانها وغشيت نواديها وسمعت منشديها فأنا أعلم أين تقع قصتي وأيان يبلغ إنشادي . أعرف أن الآخرين قد يكونون أعلى صوتاً وقد تكون حلقاتهم أكثر من حلقتي عدداً ، ولكني لست أبالي ما يقولون عن أنفسهم ولا ما يقول الناس عنهم . فإني أعرف أنهم مجربون عن عالمي الذي أستمد منه صوري وأستوحيه ألحاني . ولست أكذبكم في قولي . إنني أكثركم طرباً وأشدكم نشوة في هذه الساعات التي أنشد لكم فيها .

ففيها أحس وجودي وأتمتع بحريتي وأبلغ حقيقة إنسانيتي . وكلما أخذتني
النشوة وجدت أنني أسمو إلى آفاق عليا يحيط بي فيها السلام وترف من
حول السعادة . وعند ذلك يتضاءل في قلبي كل ما يحسبه الناس في الحياة
عظما ، ويضعف عندي كل ما كنت أظنه قويا من إغرائها ومن
فتنها ، فلا المجد يستهويني ولا الغنى يغريني ولا شيء من مادة الأرض
يثقل وجودي . فأنا هناك في عالم ليس فيه إلا صور شفافة تسبح سبح
الأرواح في دعة واطمئنان ورضى وسعادة ، وقد تجردت من أستارها
وجهرت بحقيقتها . فأنا أعرفها وهي تعرفني وآنس إليها وتأنس إلى ، لا تخفى
عني خافية من ضمائرها ولا أسر عنها سرا من ضميري . نتعبد جميعاً في
محرابنا العلوي بعيدين عن الغرور والرياء . فما دمت هناك مع تلك
الأرواح أجدني سامياً فوق صغائر الأمانى وتوافه الشجون التي تلعب
بالباب البشر وتسخر من عقولهم ، كما يسخر السراب من عقل السارب
الظمان إذ يهيم على وجهه في الصحراء .

هنالك أستطيع أن ألمح معنى الجمال الصادق والحب الصافي
وأن أدخلو إلى الحقيقة خاشعاً عابداً مخلصاً ، لا ترهبنى عنها خشية
ولا تطمعنى عنها مثوبة ، لأنها هي الأفق الأجدر بأن يكون غاية
الغايات قد أجد الجمال في الزهرة الضئيلة بين رمال الصحراء كما
أجده في الوادي البانع ذى الطيور الساجعة المتواثبة على الأغصان .
وقد أجده في الراعية الفقيرة في أسماها البالية كما أجده في العذراء الطاهرة
التي تمد يدها إلى جريح تواسيه . وإذا كانت جنة عدن هي جزاء

الصالحين على ما قدموا من الصالحات ، فإن أعلى طبقاتها تنتظر الذين كانوا يقدمون الحسنة ولا يطمعون في الثواب ، فالحسنة في ذاتها جمال وفي جمالها وحده جزاؤها . الحب جميل والرحمة جميلة والإيثار والصدق والجلود كلها جميلة ، تذوق النفوس الصادقة جمالها وتتملى بلذتها ولا تبتغي من ورائها ثواباً .

هناك أيها السادة في هذا العالم المستور أجدر جزائي وثوابي . لا أبالي شيئاً مما يتطاحن عليه الأدعياء من الناس . فأنا حرسعيد ما دمت أنشد وأستمع إلى نغم ربابتي ، فإذا أمسكت صحوت من أحلامي ، وهربت مني صوري وعدت إلى عالم الأحياء أعيش منهم قريباً وإن كنت بينهم غريباً . سأنشد لكم وأنشد ليلة بعد ليلة ولكم أن ترضوا إذا أرضاكم ما يصدر عني ، ولكم أن تنكروا كما شتم إن بدا لكم من ذلك مالا يروقكم . لكم أن تصفقوا استحساناً أو تظهروا استهجانكم بغير مداراة ، فهذا حق لكم . أما أنا فما أقصد إلا أن أظهر ما عندي مما يهتر له فؤادي وما أودعته ثمرة حياتي وأسلت فيه عصارة روحي . فإذا وقع عندكم موقعه عندي زادت بذلك سعادتي ، وإلا فلست أسألكم شيئاً إلا أن تشعروا في قلوبكم الرحمة . فالرحمة أعظم ما يعطى إنسان وأثمن ما ينال إنسان » .

قال الراوى :

أطلت خيلاء من نافذة مخدعها فى أول الصباح ، وكانت الشمس ترسل أشعتها تتدسسن بها بين جذوع الأشجار وخلال أوراق الغصن وعلى رؤوس الربى الخضر المحيطة بقصر غمدان . وكانت رؤوس جبلى نغم وعيبان ما تزال مستترة وراء غلالة رقيقة من الضباب ، ترمق الشمس من وراء نقابها الشفاف كأنها حسناء منعمة تطل من ثنابا أستار قصرها الشامخ لتجتلى طلعة ملك فى موكبها . وكان فى الجو عطر لطيف لا تشبهه عطور الزهر يسرى فى الكون خفيًا لا يدركه الحس ولكنه يملأ النفس بهجة ويشيع فيها شجواً هادئاً .

وكانت الآفاق تبدو فى النور الخافت وسنى ساكنة . وإن كانت تنبض بمثل نبضات الأمواج الهادئة فى البحيرة الصافية ، وتتردد منها أغنية صامته لا تقع فى الأسماع ولكنها تبلغ أبعد أغوار القلب . أو هكذا أحست خيلاء وهى تفتح نافذتها المرمرية فى مخدعها وتطل على مروج صنعاء الفسيحة الباسمة . وأخذت تملأ صدرها من النسيم الفاتر الذى يحمل رسالة الخريف الوديع من البساتين المزدهرة الممتدة حول القصر . أهو الخريف ؟ أهو الخريف الذى تذبل فيه أوراق الأشجار وتصففر

وترف متساقطة مع هبات الهواء ؟ أم هو الربيع قد عاد أدراجه متردداً
متشبهاً بحقل صناء اليناع لا يريد أن يتخلى عن بساتينه ومروجه ؟ وأجالت
خيلاء بصرها في المنظر الممتد تحت عينيها ، وكانت الأحاديث الصامته
تردد في سرها مناسبة في رفق كما ينساب ماء الجدول الصافي في ظلال
الحماثل . ورأت هنالك تلك الشجرة الضخمة التي تبسط أغصانها على
ممشى البستان ، وذلك الطريق المتلوي الذي يخرج من بين الشجيرات
كأنه يتفلى منها مداعباً . ما كان أبهج الألوان في ذلك الصباح كأنها
هي باقية على ما كانت عليه في أصائل الربيع عند ما كانت الأزهار
تتفتح ضاحكة متبرجة لا تدارى مرحها ولا تتواضع في المباهاة بحسبها .
وهنالك الركن الظليل الذي تعرش فوقه أعواد الياسمين وتلك الربوة التي
تتسلق عليها الأعواد المدادة وتلف خيوطها الدقيقة على ما يعترض سبيلها
من فروع النبات حتى تتوكل إلى القمة وتدلى بعناقيد زهرها الأحمر
كالعروس إذا جلست ليلة الزفاف . لقد مضى حين طويل منذ تلك
الأماسى السعيدة التي كانت خيلاء تمرح فيها هناك مع سيف . ولقد
شهدت هذه الأركان الظليلة كل مشاهد السعادة التي مرت بها في حياتها .
هناك كانت تلعب مع سيف في أيام الصبا وهما يسابقان ظلّهما ويتفننان
في صياغة العقود من الأزهار ، ويتسلقان الربوة ليطلعا من فوقها على
أعشاش العصافير في أعالي الشجر ، ويرقبا يوماً بعد يوم هل خرجت
أفراخها من بيضها وهل كسى الزغب أجسادها الحمراء المرتعشة ، وهل
استطاعت أن تمز أجنحتها وتطير جافلة وراء أبويها إلى أعالي الغصون ،

ثم تقف هناك تنظر إليهما وهي لاهثة كأنها تعابثهما . وسألت خيلاء نفسها أما زال سيف في صنعاء ولم تره منذ أسبوع ؟ أليكون في غمدان وهي تترقب كل يوم أن تلمحه في بعض ممشى البستان أو في جانب من البهو فلا يلوح لها ولا يسعى إلى لقائها ؟ لشد ما تغير سيف في تلك الأسابيع الأخيرة . كانت كلما رآته توقعت أن يقبل عليها باسمًا في خجل يعتذر إليها من انقطاعه عنها ويحدثها عما عاقه عن لقائها من صيد أو نزهة ، ولكنه كان ينظر إليها مضطرباً ثم يستأذن فيمضي سريعاً كأنه يهرب من لقائها . أهو سيف الذي نشأ معها وأنس إليها وكان لا يستطيع أن يذوق طعاماً ولا أن يطيب له سمر إلا معها ؟ أهو سيف الذي جعلها ترى في الربيع ما لم تره عين وتسمع من أناشيد الحياة ما لم تسمعه أذن ؟ أهو سيف ؟

أكان يحبي فيها تلك السعادة لكي يذيقها من بعد مرارة الوحشة وقلق الخوف والشك ؟ وما الذي اعتراه فجعله يغيب عن القصر أياماً قد تمتد إلى أسابيع ، فإذا ما عاد من غيبته الطويلة لم يسرع إلى تلك المسارح التي كانا يمرحان فيها معاً ولم يسع إليها معتذراً يداري ذنبه في ابتساماته الوديمة ؟ وما ذلك الذي يتزوى به في مخدعه فلا يكاد يبرحه ، حتى إذا لقيها عفواً في ساعة لم يزد على تحية قصيرة يعقبها صمت ، ثم يمضي عنها كأنه يجمجم في نفسه حديثاً خفياً ؟ كانت خيلاء إذا رآته وتلاقت نظراتهما بعثت إليه في نظراتها عتاباً لا يخفى عليه . كانت نظراتها تكاد تصبح به حائقة ومع ذلك فقد كان يغضي مسرعاً ثم يغلق نفسه

دونها . وسألت نفسها أياكون في موكب اليوم ؟ أياذهب إلى الكنيسة في موكب أبيه الملك أم يتخلف عنه كما تخلف عنه من قبل مراراً ؟ وذكرت يوم ذهبت في أول موكب إلى الكنيسة العظمى يوم افتتاحها الملك أبرهة مع رسول قيصر : كان يوماً لا تنساه كأنه علم في حياتها .

وكان سيف في ذلك اليوم يركب مهره الأبيض الذي أهدها إليه أبوه ، ويسير وراء هودجها فتراه كلما نظرت من ثانيا الستور الحريرية وهو ينظر إليها باسم . ثم جلس في الكنيسة إلى جنبها وكان يرتل معها بألفاظ رومية ، وكلما أخطأ في لفظ وقف حتى يتبع صوتها ، وكاد يضحكها إذ كان يبدل كلمات الترتيل بأخرى من عنده عربية لا تتسق مع الصلاة . أياذهب سيف في موكب اليوم ؟

وارتدت خيلاء من النافذة وعلى قلبها سحابة ، فذهبت إلى ركن مخدعها نحو تمثال فضى بارع الصنعة ليسوع الطفل في مهده ، وأمه العذراء إلى جنبه تمد كفيها نحوه في عطف وترنو إليه في حنان وخشوع . وكان ذلك التمثال هدية أهدها إليها الملك الطيب أبرهة إظهاراً لإعجابه بتقواها وحماسها لديانة المسيح . وكانت العذراء حاميتها تلجأ إليها في سعادتها كما تلجأ إليها في قلقها واضطرابها ، وكان المسيح سيدها وملاذها تنجيه إليه ليزيد قلبها حباً وسلاماً ، ونظرت إلى الصورة بقلب متلهف وهي تكاد تسمع منها أصدااء المحبة والرحمة التي كانت تنبعث من الأم الطاهرة البتول إذ تناغى وليدها .

وجشت خيلاء في صمت وضمت كفيها وأمالت رأسها تصلى وقلبها يسبح

شجياً يمتزج فيه القلق والأمل . وكانت صلاتها الصامته حارة تتجه فيها إلى منبع الحب الفياض ليزيد قلبها حباً . وأحست بعد قليل أن السلام يغمرها فقامت كأنها ألقت عن صدرها ما فيه من هم وملأته أملاً . وذهبت خفيفة إلى خزانة الملابس لتختار الثوب الذى تلبسه لموكب اليوم . فسوف تذهب مرة أخرى إلى الكنيسة العظمى التى جعلها أبرهة آية من آيات الإبداع ليظهر فيها ديانة المسيح على الوثنية البلهاء . وحانت منها نظرة إلى المرأة المعلقة على جدار المحدع ، فتعلقت بالصورة التى بدت لعينها ، ولمست بأطراف بنانها جانب شعرها الأسود الغزير ، وتبسمت عند ما تذكرت سؤال سيف لها عن ذلك الحال الأسود الذى يتوسط خدها . أحقاً سميت خيلاء من أجل تلك النقطة السوداء التى كان سيف يحدثها عنها كلما لقيها ؟ كان يقول لها إن ذلك الحال الأسود بقبة من جلدها القديم أيام كانت من قوم أبرهة . وكانت هى تفاخره بأنها عربية مثل الملكة ربحانة . وصرفت بصرها عن المرأة فى شئ من التردد وقد أحست بما يشبه الحجل من شعور الغرور الذى خامرها .

واختارت ثوباً حريراً أبيض تزينه خيوط من الذهب والفضة وقطع من الجواهر المؤتلفة فى مواضع أزواره . وكان الثوب من صنع القسطنطينية العظمى وهو من هدايا قيصر إلى صديقة أبرهة اعترافاً بفضله فى خدمة المسيح . ولطالما حدثها سيف عن أمنيته فى زيارة عاصمة قيصر ، تلك العاصمة الكبرى التى تبعث مثل هذا الثوب الرائع ، وما يكون أروعها من رحلة لو تحققت ، فذهبت مع سيف يريان معاً من عجائب الأرض

مالا يخطر على قلبها . وحملت الثوب إلى النافذة فرفعته بين يديها ليستقبل من ورائها نور الصباح متلاًئلاً ، ولكن الشمس لم تشرق بعد . ألا ما أبطأ الشمس في طلوعها من وراء الأفق ! ألا يكون سيف قد خرج إلى البستان ليملاً صدره من نسيم هذا الصباح ؟ وعادت تسأل نفسها : أينذهب اليوم إلى الكنيسة ويجلس بجانبها ؟ وعادت إليها صورته يوم ذهباً إلى هناك معاً وجلس إلى جانبها وكانت أصوات الترتيل ترن بين الجدران جليلة عميقة كأنها تسبيح الملائكة . أيجلس إلى يسارها كما جلس من قبل ويهمس في أذنها همسات خافتة في أثناء الصلاة ؟ كان يحدثها مرحاً عما سمع عن القسطنطينية وعن قصر خليفة المسيح فيها ، وكان متدفق الهمسات ظريف الفكاهة حتى إنه لم يصمت في أثناء الصلاة ، كان الكهنة يرتلون صلوات لا يفهم منها حرفاً والناس من ورائهم ينشدون جماعة . وكانت هي تحفظ ذلك الترتيل كما تحفظ أغنية عذبة . وهمس سيف عندما تعثر في ترتيله الرومي قائلاً ألا يفهم الله الصلاة إلا بالرومية ؟ عفا الله عنه فإنها سوف توصيه إذا رآته ألا يعود إلى مثلها . ولكن أيجزر موكب اليوم ؟ أم يتسلل من مخدعه كما تسلل في أيام أخرى فيغيب أياماً يقضيها حيث لا تدرى ؟

وأتمت زينتها في احتفال وعناية وتلك الأحاديث تتردد في ضميرها ، ثم عادت إلى النافذة تقلب بصرها في الأفق ، وكانت الشمس قد زحفت بطيئة في طرف القبة اللازوردية . وأخذت تمسح بأشعتها على خصل الأغصان الحضر ، ودبت الحركة في جوانب القصر فاترة كأنها تتمطى في أول يقظتها .

ولكن الموكب لن يبدأ حتى يستقبل الملك وفود القبائل والمدائن الذين أتوا إليه من أودية اليمن البعيدة ليؤدوا له تحيتهم قبل أن يخرج من صنعاء إلى الحرب التي عقد النية عليها . سيذهب أبرهة كما قال إلى مكة بعد يوم واحد وسيهدم كعبتها حتى يزيل من الأرض رجس الوثنية ، ويجعل العرب جميعاً يحجون إلى كنيسته البديعة . وودت لو كان أبرهة عربياً كان رجلاً طيب القلب لا يدع فرصة إلا انتهزها ليبدى لها جانباً من رحمته . ولو كان عربياً لما أحست شيئاً يشوب إعجابها به ورضاءها عنه . فما تلك الكعبة التي لا تزيد على ركام من الحجارة تحيط بها تماثيل شوهاء لآلهة زائفة ؟ أين تلك الكعبة من القليس التي بناها أمهر صناع القسطنطينية ومهندسوها لكي يمجّد فيها اسم المسيح ؟ ولكن متى يبدأ الموكب والشمس ما تزال تدب بطيئة في السماء .

ونزلت إلى البستان لتجول فيه جولة حتى تحين ساعة الموكب . وتمنت لو لقيها سيف هناك . كانت خطاها مترددة كأنها كانت تخشى أن يراها أحد في مثل هذه الساعة من الصباح خارجة من مخدعها ، فيفطن إلى أنها ذاهبة إلى هناك باحثة عن سيف . وذهبت إلى المجلس الساكن تحت ظلال أشجار الجوز ، وكانت المقاعد المرمرية تبارى أشعة الشمس الوردية التي كانت تطل بين الأغصان والحدود هناك كانت آخر مرة لقيها سيف وحدثها . وعاد صدى صوته إلى سمعها وهو يصف لها مهره الأبيض الذي أهدها إليه أبوه ، وكيف كان يسبق الوحش

فى غير مشقة . ألم يكن عجباً أن يكون سيف من ولد أبرهة ؟ كان يشبه
 ريحانة الملكة العربية فى نظرة عينيه وفى دقة حاجبيه وفى صورة شفثيه .
 كانت تتأمل هاتين الشفتين المملوءتين بالحياة كأنهما هما اللتان تتحدثان .
 وكان فى صوته غنة تشبه . . . ماذا تشبه ؟ ولم تجد كذلك وصفاً
 يصدق على نبرات صوته عند ما كان يتحدث إليها . ولكنه كان على
 كل حال لا يحمل شيئاً من شبه أبرهة . فأين هو وأين مسروق أخوه
 الذى ولدته ريحانة ؟ كأن الملكة الحسنة أودعت فى ولدها الأول كل
 حياتها وكل فنون طبيعتها الصافية . كان مسروق يشبه أباه فى لونه
 وفى قصر قامته ، وهو مستدير الملامح والأعضاء له نظرة تشبه نظرة
 البقرة . فأين هو من سيف الذى يطلع مثل غصن السرو فى دقة عوده
 وطول قامته ؟ وأين هو من سماحة وجهه ومن نظرتة التى تذكرها بلمعة
 النجم فى الليلة الصافية ؟ وأما بكسوم بن أبرهة الأكبر فما أشبهه بأبيه فى
 وجهه وهامته ، وإن كان فى ضخامة قامته يتطوح كالنخلة الباسقة .
 وكان شعاع عينيه العابستين أشبه بلمعان السيف الصقيل ، فهما بريق
 يبعث البرد إلى فقرات الظهر . وأما صوته فكان مثل رنين النحاس جافاً
 كأنه كتلة من مادة . لا شك أن أمه الحبشية كانت تستطيع أن تروض
 الفهود التى تحوم فى الغابات فى طلب فريستها . ثم بسباسة ابنة أبرهة .
 أتكون ابنة ريحانة حقاً ؟ كانت لا تحمل منها شيئاً إلا أن يكون شعرها
 الطويل الفاحم . ووقع فى نفس خيلاء ما يشبه أن يكون غيره . وتنفس
 نفساً عميقاً فيه شئ من الحسرة ، وخطر لها عند ذلك سؤال كان يخطر

لها بين حين وحين فيضيق به صدرها ويشرد منها النوم حتى تقوم إلى جانب تمثال العذراء . فتجتو عنده تصلى وتدعو حتى تنقشع عنها وساوسها . من هي ؟ وما علاقتها بكل هؤلاء الذين تعيش بينهم في غمدان ؟ بل ماذا أتى بها إلى ذلك القصر وهي لا تعرف صلتها بأحد ممن فيه ؟ وماذا عسى تقول بسباسة عنها إذا خلت إلى نفسها ؟ أما تقول في سرها « من هذه الفتاة العربية التي تعيش معنا ؟ »

وماذا تقول ريحانة الوديعة عنها فيما بينها وبين ضميرها ؟ بل ماذا يقول سيف عنها ؟ وأرادت أن تصرف عن ذهنها ذلك السؤال الذي أوشك أن يملأ قلبها قلقاً ويفسد عليها بهجة منظر الصباح . وكبحت نفسها في شيء من العنف كأنها تؤنبها على الاسترسال مع هذا الوسواس الذي يخطر لها آنأ بعد آخر . فما الذي يعنيه من كل تلك الأسئلة وهي ترى مكانها في غمدان عزيزاً كريماً ؟ لقد نشأت فيه منذ طفولتها لا تعرف شيئاً عن هذه الصلة ولا تسأل عن شيء . بل إنها كانت تعرف دائماً أن هذا القصر هو موطنها الذي لم تعرف غيره . لم يسألها أحد ممن فيه عن نفسها ولم تسأل هي أحداً عن شيء من نفسها . لم تعرف شيئاً سوى أنها عربية مثل ريحانة . فهكذا قالت الملكة النبيلة وهي تفخر بعروبيتها . وماذا ينفعها أن تعرف أمراً لا يزيد لها شيئاً ولا ينقصها . ماذا يجديها لو عرفت اسماً قيل لها إنه اسم أبيها واسماً آخر قيل لها إنه اسم أمها ؟ بل ماذا يجديها لو عرفت كل نسبها وأنها تتصل بملوك حمير القدامى ؟ بل مالها تذهب إلى كل هذا وقد تكون معرفة ذلك النسب باعثة لها على البؤس والشعور

بالمذلة ؟ ماذا يكون لو عرفت أن أباهما كان أحد المساكين من الأعراب
العراة الذين يظهرون لها في طريق المواكب أحياناً ؟ بل ماذا لو عرفت أنها
لم تكن سوى طفلة بائسة وجدوها ذات يوم ملقاة عند باب القصر
فتحركات شفقة الملكة عليها فضمتها إلى جناحها ؟ وكانت في أثناء سبوحها
في الخيال تنظر إلى الأغصان تتأملها كيف تتداخل وكيف تتعانق وتتأمل
أشكال أوراقها وصور ثمارها . كان بعضها منسرحاً ليناً غضاً وبعضها
معقداً جافاً ، وبعضها يمتد بظله الوارف وبعضها يسمو بجذعه الفارع .
حتى الأشجار لا يشبه بعضها بعضاً وحتى الغصون لا تتساوى في هيئتها ،
وإن كانت فروع شجرة واحدة . فهل تزيد الشجرة أو تنقص شيئاً إذا
هى لم تعرف من غرسها ؟ أين كانت ثمرتها الأولى التى خلقت بذرتها ؟
ألم يكن لها أصل ونسب كسائر الخلق ؟ لاشك أنها انحدرت من بذرة
شجرة أو من فرع غصن كما انحدرت بسباسة وكما انحدرت ريحانة
نفسها . فلماذا تفسد الصباح بالإسترسال فى هذا الوسواس العقيم الذى
لا يستطيع أن يعقب شيئاً سوى الاضطراب ؟ ولعل لها شخص يقبل من
بعيد يلوح شبهه خفياً من خلال جذوع الشجر ، فانتفضت وصرفت
وجهها عنه حتى لا يحسب أنها كانت تترقب حضوره . إنه هو ! ومرت
لحظات طويلة ثم اقترب الشخص حتى ظهر لها من خلال جذوع
الشجر ، ولكنه لم يكن سوى أحد خدام البستان يكر إلى عمله ليجمع
ما تساقط من الأوراق الصفراء فى ساعات الليل ويقطع الأعواد الجافة
الناشزة من الفروع المتدلّية . وسبحت فى حديث مع نفسها مرة أخرى :

« إنه عربى من هؤلاء التعساء الذين يعملون فى قصر غمدان منذ الصباح الباكر إلى المساء فى جمع الأقدار أو مسح الأوضار وخدمة الدواب ، فإذا ما فرطوا فى شىء أو استراحوا لحظة أهوى الحراس الأحباش على ظهورهم بالسياط . وإذا كانت سياط الأحباش تلهب ظهورهم بين حين وآخر ، فإن هناك سياطاً أخرى تلهب أرواحهم فى كل لحظة لا تدع لهم سلاماً فى ليل ولا نهار ولا تعفيهم من العذاب حتى فى خلواتهم - سياط الجوع والخوف . هى سياط لا تراها بأعيننا ولكن الأشقياء يحسونها إحساساً أقوى من الرؤية وأشد من اللمس ، ويتضاعف عليهم العذاب أن يحسوا به فى أنفسهم ويروه فيمن يحبون ، إذ ينظرون إلى أبنائهم وبناتهم وهم أطفال أو صبية يتضورون من الجوع ويسIRON عراة وينامون على صفعات حائقة يوقعونها هم أنفسهم عندما تضيق صدورهم من اليأس » .

وانتفضت خيلاء تريد أن تبعد عن ذهنها تلك الأفكار المزعجة ، وقلبت بصرها لعلها تقع على سيف ، كأنها تلمس النجاة . إنها عند ما تحدثه تحس أن الحياة أقل تعاسة ، وأن الأمل أقرب مما يخيل إليها فى وحدتها . ولكن السؤال عاد إليها فى لحظة وعنت « من كان أبى ؟ ومن كانت أمى ؟ أم ولدت هكذا بغير أبوين كما تنبت حشائش البر ؟ »

وتذكرت يوم كان سيف معها تحت هذه الشجرة نفسها فرأى أحد الحراس الأحباش يلهب بسوطه ذى الأطراف الرصاصية ظهر رجل مثل هذا المسكين الذى كان يترنح بين الأشجار ليلتقط الأوراق الداوية ، وأسرع سيف إلى الحبشى فترع منه السوط وأهوى به عليه .

ولم يكن عجباً أن يغضب سيف لمثل هذه القسوة ، ولكن غضبته
ملأت قلبها إعجاباً وشكراً وحباً أيضاً إن كان هناك ما يمكن أن
يزيد قلبها حباً له . ماذا يكون لو كانت هي ابنة لأحد هؤلاء الأشقياء ؟
أ تكون هكذا ذليلة هزيلة كالكلاب الضالة ؟

أهما الجوع والخوف اللذان يولدان الذل في نفوسهم ؟ أم هي نفوسهم
الذليلة التي تجعلهم يسقطون في مهاوى الجوع والخوف ؟ أما يستطيعون
أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم إذا ألهبت ظهورهم الشياطين ؟ أيخشون الموت ؟
وأى موت أشد مما هم فيه من البلاء ؟

ورفعت يدها إلى عينيها عند ما أحست عليها غشاوة من الدمع ،
فمسحتها وقامت تسير في ظل المشى لعل الحركة تذهب عنها هذه
الهواجس المفزعة .

ولما اقتربت من العربي النحيل مدت إليه يدها بقطعة من الذهب ،
وعجبت عند ما فرغ كأنه يهرب منها . فدعته في رفق حتى أنس وعاد
إليها متردداً وأخذ الدينار ينظر إليه نظرة غريبة ، ثم أسرع عنها بغير أن
ينطق بحرف . يالمسكين ! إنه يشبه كلباً طالما تعود أن يضرب بالعصا
فلا يأمن اليد التي تمتد إليه بقطعة من الطعام .

وسارت بين أحواض الزهر البانعة وفي نفسها شيء من التوزع
وكان الندى ما يزال ينخصل الأوراق ويزيد ألوان الزهر نضرة وبهاء ،
ولكن أسمال العربي البائس كانت ترف دونها ، « إنها إهانة للإنسانية
أن تهب الطبيعة هذه المباهج إلى جنب المقاذر التي يهوى الإنسان إليها ! »

هكذا كانت خيلاء تحدث نفسها في حلق ، وكانت السحب البيضاء تتسابق في السماء مقبلة من الجنوب ، وترددت أصوات الطير وهي تتواثب وتتداعى فوق الغصون ، واستمرت خيلاء في تفكيرها « هذه الطيور لا تعرف سادة وليس فيها أغنياء وفقراء ، وقد تتطاحن فيما بينها وقد يقتل الصقر عصفوراً ولكنها لا تتخذ عبيداً » . وعادت إلى القصر مسرعة إلى مخدعها وقلبها يخفق خوف أن تقع عليها عين أحد ، أو أن يراها سيف عائدة من البستان في تلك الساعة . فيعرف أنها كانت هناك تنتظره ؟ وكان شعورها بالحيرة يزداد مع كل خطوة حتى إذا ما صارت وحدها استندت بذراعها على جانب النافذة وتقاطرت دموعها . وكانت الشمس قد علت في السماء وأخذت الحركة تدب في فناء القصر ولكنها لم تلمح صورة سيف هناك .

٢

قال الراوى :

قضى سيف ليلته ساهداً وهو مستلق على أريكته في المخدع والنوم لا يواتيه مع أفكاره المضطربة التي كان يسبح فيها . كان يحس كأن عقله رحي تدور فارغة يعلو ضجيجها ويأخذ منها الدوار حتى يكاد

يذهل ، ومع ذلك كان ينتبه أحياناً فيسأل نفسه فيم يفكر فلا يجد في فكره شيئاً . ولم تكن تلك الليلة أول عهده بتلك الرحي الفارغة ، فقد كان منذ شهور يتحدث إلى نفسه مثل تلك الأحاديث الغامضة الجوفاء لا تفارقه ضجتها إذا سار وإذا جلس وإذا أكل وإذا خرج إلى نزهة . كان لا يعبأ بشيء مما يرى ولا بشيء مما يسمع ، كأن العالم كله قد انطوى في داخله في تلافيف ضبابية . ولكنه إذا وجد نفسه في صحبة إنسان هربت تلك الأحاديث فلم تنطلق من لسانه ، لأنها لم تكن أحاديث ناطقة مؤنسة بل هي أقرب إلى أخيلة متصادمة تشبه الرياح في زوبعة . حتى خيلاء حتى خيلاء كان لا يجد معها حديثاً إذا لقيها ، حتى إذا ما خلا إلى نفسه بعد ذلك تدفقت أقواله إلى خيالها . وهمّ مراراً أن يشكو ما به إلى أمه ريحانة ، ولكنه لا يجرؤ على ذلك لأن تلك الأحاديث كانت في تلافيفها الغامضة تتصل بها . وماذا يقول لها ؟ أيسألها عن خواطره المبهمة الشهواء التي تكاد تهملها ؟ أم يسألها عن معنى تلك الأحلام التي كانت تعناده بين ليلة وأخرى وهي تكشف عن ضعفه أو سنخفه ؟ وهمّ مراراً كذلك أن يشكو إلى صديقه الشيخ الطيب أبي عاصم ولكنه لم يجرؤ . فما كان أحراه إذا سمع شكواه أن يظن به الحبل أو يحسب به مساً من الجن . ومع ذلك فإنه صار لا يكاد يرى ذلك الشيخ بعد أن كانت دروسه أشهى ساعات حياته يقضيها في صحبة خيلاء فيستمعان إلى ما عنده من علم وحكمة ويهيان معاً في عالمهما . فمنذ اعتراه ذلك التغير الذبي طراً عليه منذ أشهر انقطع عن ساعات الدرس لكي يشقى وحده مع هواجسه .

ومع ذلك فقد غادر أبو عاصم القصر كله وذهب إلى داره البعيدة في
 حقل صنعاء، وصار لا يلم بالقصر إلا في فترات متباعدة . وبدأت له الحياة
 خالية موحشة كأنها لعنة منبوذ خلى الناس جميعاً بينه وبين نفسه . حتى
 هؤلاء الرفاق الذين كان يخرج معهم إلى الصيد أو النزهة في الأودية
 البانعة ، ضاق صدره بهم وبأحاديثهم وكبرياتهم . كانوا من أبناء القواد
 الأحباش ولا يترددون أن يتحدثوا تحت سمعه في سخريه عن سادة اليمن من
 القدامى كأنهم لا يعباؤون بأن أمه عربية - ربحانة ابنة ذى جدن .
 وكانت كبرياتهم تبعث الحنق إلى صدره كلما أهانوا العرب المساكين
 الذين يجاهدون في الحقول أو في مراعى السفوح المعشبة . فكان يباعدهم
 ويتملص من صحبتهم بمعاذير مختلفة ويؤثر تلك العزلة التي يصاحب
 فيها وساوسه . وأراد مراراً أن يجادل نفسه ليحملها على أن تنظر كما ينظر
 هؤلاء الرفاق وتلهو كما يلهون وتعبث كما يعبثون ، ولكنه كان لا يلبث
 أن يمتليء منهم حنقاً ، بل كان أحياناً يثور بهم ويعنف عليهم . كان
 دائماً يحس أنه موزع غير متماسك ، كأنه خلق من طينتين لا يدرى
 أينبغى له أن يكون حبشياً مثل أبيه أبرهة أم عربياً مثل أمه ربحانة .
 ولكنه كان لا يغضب لشيء حبشى ، ولو كان له الاختيار لما اختار
 سوى جده ذى جدن .

وتنبه إلى نفسه بين خواطره تلك وكان الليل قد مضى نصفه والقمر
 يغمر الفضاء ويطل شعاعه من نافذته المرمية . فقام ينظر إلى البستان
 وكان الفضاء الساكن لا يشوبه حديث حائق . والقمر يسبح في السماء

وأحواض الزهر تحلم في أشعته . وتثاءب سيف وأحس في جفونه ثقلاً ولكنه استمر في أحاديثه الصامته . وخيل إليه أن ينزل إلى البستان وفي نفسه أمل غامض أن يرى هناك أحداً يذهب عنه الوحشة . أو لعله يرى خيلاء في ظل إحدى الحمائل وحدها ، فيذهب إليها معتذراً عن طول احتباسه عنها ، ويقول لها بعض ما يقول في خلوته لها . وتمنى لو تجرأ يوماً أن يفضي إليها بما في سره فهي بغير شك أخرى أن تستجيب له ولا تظن به السخف أو الحبل .

وتثاءب مرة أخرى وكانت جفونه تفيض نعاساً ، فذهب إلى فراشه وأغمض عينيه . وكان نومه ثقيلاً مضطرباً يهب منه مستيقظاً بين حين وحين فيجد رأسه غائماً وصدره منقبضاً ويحاول أن يجمع الصور التي أزعجت نومه فلا يجد إلا أثراً غامضاً لا معالم فيه ، كأنه كان يبحث عن شيء ينفلت منه فلا يدركه أو يسعى نحو غاية فلا تلبث أن تختفي عنه ، ويسأل نفسه عنها فلا يعرف ماذا كان ينبغي .

وهب آخر الأمر من فراشه على أثر صيحة في أعقاب منظر لم يستطع النوم بعده، وإن كان منظرًا مألوفًا عاوده مرة بعد مرة، وكان النوم في كل مرة يشرد عنه فيعصيه من بعد ولا يعود إليه . رأى كأنه عاد طفلاً في سن الخامسة يلعب في بستان القصر مع رفاق صغار ، وكان المنظر واضحاً بكل دقائقه حتى لقد تذكر فيه أشياء لا تسترعى نظره وهو كبير . كانت هناك شجرة ضخمة من شجر الجوز فيها فجوة تتسع لطفل أن يختبئ فيها، فكان هو ورفاقه يتخذونها مخبأً في لعبهم ليفاجئ بعضهم

بعضاً إذا مر قريباً، وكان هناك بيت مظلم في آخر البستان له نوافذ قريبة من الأرض تعرضها قضبان من الحديد . فكانوا يتسلقون قضبانها لكي يطلوا منها إلى الظلام الذي وراءها ، ثم يقفزون سراعاً ويصرخون ضاحكين ، وكانت هنا دقائق أخرى كثيرة غابت عن ذاكرته فأعادها إليه الحلم واضحة المعالم كأنه يراها في ساعته . وكانت خيلاء إحدى رفاقه تجرى وراءه حيناً ويجرى وراءها حيناً آخر فإذا أدركها أو أدركته ضجت منهما ضحكة عالية . وهكذا مضى الحلم :

كان أخوه الأصغر مسروق يتبعهما مترجراً في جريه كما يحاول طفل في الثالثة أن يلحق بإخوته . وكانت معهم خادم سوداء تضاحكهم بأفانين من ألعابها ، فتارة تقلد لهم أصوات الدواجن فتصيح كالديكة أو تقاقي كالديجاجة أو تعوي كالكلب وتموء كالحمر ، وتارة تقلد أصوات السباع فتصيح مثل الذئب أو ابن آوى أو تزار كالأسد وهم يتضاحكون في زياط أو يماسكون في رعب ثم ينفجرون في ضحكة واحدة ويصفقون مرحين . فإذا ما أرادوا تقليد صيحاتها اختار كل منهم ما يحلو له فكانت خيلاء تقلد الحمامة أو الحمامة وسيف يزار كالأسد أو يعوي كالذئب ويحاول أن يخيف رفاقه كما تخيفهم الجارية . فإذا ما شاركهم الخادم في الصياح والضحك ورأتهم بلغوا الغاية من ألعابهم اختارت من فنونها صنفاً آخر تطرفهم بجذته ليعود نشاطهم كما كان . فكانت تقلب لهم جفونها وتغير صوتها كأنها تحوات إلى جنية . فيهرعون هاربين منها وهي تعدو في أثرهم صائحة « إمسك » وهم يحاولون الانفلات منها . وكان سيف

الطفل يحس قدميه ثقيلتين عند ذلك ويخيل إليه أن الجارية قد انقلبت حقاً إلى جنية تريد أن تجره إلى بطن الأرض معها . ثم تعدل الجارية إلى حيلة أخرى فتكشر عن أنيابها قائلة إنها قد انقلبت ساحرة غولة تأكل الأطفال ، وتحملق بعينها الحمراءوين وتقول في صوت مخيف « همهم » ، فيصرخون ويبكون حتى تعيد جفניה ثم تضحك مقهقهة فيضحكون وراءها من بين دموعهم . وتأخذ الجارية تعدو بهم وتمسك بيد سيف في أثناء ذلك وتندفع بسرعة وهو لا يستطيع أن يجاريها فيتعثر ويده معلقة بيدها ، وجثرته على الأرض حتى خدشت ركبتيه ثم وقفت ضاحكة . وكاد يبكي ولكنه تمالك على مضض ولم يبك وقال في نفسه : « ألسن رجلاً ؟ » وذهب إلى أخيه مسروق فأخذ يده وجري به كما جرت به الجارية حتى تعثر مسروق ووقع وخدشت ركبتيه وصاح يبكي . فجاءت الجارية تصرخ وجعلت تمسح الرمال عن ركبة الطفل الدامية وهي تصيح بسيف مؤنبة . ثم تبدل المنظر فجأة كما يحدث في الأحلام فإذا هو في براح من أرض خالية كالصحراء وإذا شبح ضخيم يهجم عليه عابساً فيقف في مكانه مسمراً لا يستطيع حراكاً . وأحس رجله ثقيلتين في الرمال وجعلت عيناه تطوفان في خوف ، ثم أخذ الشبح الأسود بكتفيه وهزهما هزاً عنيفاً . وقال في نفسه : « لن أبكي فأني رجل » ، وأخذ الشبح يبرطم بالفاظ سريعة حانقة بلسان غير مبين . ثم رأى نفسه مرفوعاً في الهواء ينظر في عينين واسعتين عابستين لهما جفنان ثقلان متورمان . وبدا الوجه مثل الفحمة وفي جانبيه عينان كالجمرتين .

وسمع صوتاً أجش يصيح به : « من أنت ؟ وابن من أنت ؟ أتضرب ابن أبرهة أيها العربي ؟ » وأراد سيف الطفل أن يقول : « لم أضربه » ولكن لسانه احتبس وقال في نفسه : « أأستأنا ابن أبرهة ؟ من أبى إذن ؟ » وتحول المنظر فجأة مرة أخرى فإذا هو في البراح وحده وقلبه يخفق رعباً ولكنه لم يبك وقال في نفسه : « أأست رجلاً ؟ » ونظر حوله يبحث عن رفاقه وعن الجارية فرآهم من بعيد يخفون عن عينيه وراء شيء أسود مظلم . فصرخ ينادى ويبكى ولم يستطع أن يمسك نفسه مع أنه كان يقول في سره : « كيف أبكى وأنا رجل ؟ » ولم يسمع جواباً لصراخه وخيل إليه أن الشبح الأسود يطل له من بعيد يسد الأفق وكأنه يتربص به ليمسك به مرة أخرى . وحاول أن يجرى إلى الجانب الآخر هرباً منه ولكن رجله لم تسعفه كأنهما مسمرتان في الرمال . وأحس وقع أقدام ثقيلة تتبعه فدق قلبه دقاً عنيفاً وصرخ في زعر فهب من نومه يلهث والعرق يقطر من جسمه .

كان حلماً فظيماً ولكنه لم يكن جديداً . كان ذلك الحلم يعاوده بين حين وآخر في أعقاب لياليه المسهدة . وقضى ساعة يحاول أن يهدئ نفسه بالسخرية والتماس العلل لاضطرابه . فلعل الطعام هو الذى ثقل على قلبه ، أو لعلها الوسواس التى شغل بها ذهنه هى التى خلقت له تلك المناظر المزعجة ، أو لعله عارض من برد أو تعب أو هى زيارة روح خبيثة ألت به فى سبوحها بالليل . وانطلقت أفكاره هائجة فذهبت بهم فى البعيد والقريب فى سرعة مجهدة حتى ضاق بحجرته ولم يجد بداً من

أن يخرج إلى الفضاء لعله يجد في الحركة وانطلاق الجو ما يذهب الضيق الذي اعتراه . وخرج يتسلل من الحجرة إلى الممر الذي وراءها ثم إلى البهو وكانت الشموع ما تزال ترقص فيه عند حوافي حواملها .

ومر بحجرة أمه الملكة ريحانة . إنها بغير شك ما تزال في سريرها لا تدري شيئاً عن ضيقه ولا عن وساوسه . ولو علمت بأنه يتسلل من حجرته لقامت إليه ملهوفة وأخذته بين ذراعيها . هكذا قال في نفسه وهو يسير على أطراف أصابعه عند بابها . لماذا تتلهف عليه هذه الأم هكذا كما لا تتلهف على أحد من إخوته ؟ كان أحياناً يكاد ينفر من رحمها التي تخيل إليه أنها تحسبه ما زال طفلاً . ومع هذا فما أشد ما يحسه من الحب نحوها ! هي عنده تعدل الحياة أو تكاد تعدلها . ولكن خيلاء هناك كذلك في حجرتها المقابلة لحجرة الملكة ريحانة . وهي بلا شك راقدة في فراشها ولعلها تحلم أحلاماً أخرى . إنه لم يرها منذ أيام طويلة وقد كان يود لو رآها . أما يفتح بابها فجأة فتطل منه هامسة له : « إلى أين يا سيف ؟ » هكذا همست له مرة وهو يخرج في الصباح الباكر منذ أسبوع فذهب إليها وأخذ يدها الممدودة ووقف صامتاً . وحاول أن يتكلم فلم يجد إلا أن قال لها : « عمت صباحاً يا خيلاء . لم تبكرين هكذا ؟ » وكانت نظرتها عجيبة عند ما قال لها : « سأنزل إلى البستان فيني أحس صداعاً » ثم سارعها مسرعاً . فماذا يقول لها لو رآها تطل في تلك الساعة من باب مخدعها ؟ أيقول لها : « سأنزل إلى البستان فيني أحس ضيقاً ؟ » ومضى يسير على أطراف أصابعه وكان البهو صامتاً ساكناً فيه رهبة . كم

شهد هذا القصر من قصص عجيبة، ولا عجب أن تلم به بعض الأرواح الحبيثة . وكم حدثه عنه الشيخ أبو عاصم في أثناء الدرس الذي كان يلقيه إليه مع خيلاء . كان يحدثهما عن الملوك الذين أقاموا في غمدان وعن الأحداث التي اضطربت بها هذه الأبهاء الفسيحة ، وهكذا كان الناس أبداً لا يعرفون سلاماً ؟ كانوا دائماً يتنازعون ويتصارعون ، كأن الحياة لا تحتل الرضى أبداً ، أما كانوا يعرفون حباً ؟ وأحس حيرة شديدة عندما تمثلت له صورة أمه وصورة خيلاء جنباً إلى جنب . أيهما كان أقرب إلى قلبه ؟ كان في هذه الأيام الأخيرة يحس شيئاً يشبه الرغبة في الهرب من أمه ، أيترب منها وهو يحبها ذلك الحب العميق ؟ ولكنها هي كذلك كانت مع شدة لطفها عليه يعترها شيء يشبه الاضطراب ، وتطرق مرتبكة كأنها تود لو هربت منه ، كانت عيناها دائماً تبعثان فيه الطمأنينة وكان كلما ذهب إليها بحث عنهما يلتمس منهما نظرة ، ولكنها كانت تدبر عنه عينيها . فإذا ملأه الشعور بالحيبة استأذن منصرفاً فكأنها كانت تتراح لذلك وتقوم إليه لتضمه إلى صدرها في شفقة ثم تدعه يذهب بغير أن تتلاقى عيناها . أليست القلوب تتحدث كما قال أبو عاصم يوماً في درسه ؟ لا شك في أنها تتحدث فإنه يسمع أمه تتحدث صامتة ؛ كما أنه كان بغير شك يسمع خيلاء تتحدث صامتة .

وبلغ سيف في سيره جناح أبيه وهجم عليه شعور عجيب يشبه الحسرة أو الندم أو هو شيء آخر أقرب إلى اتهام النفس . أكان يحب ذلك الأب ؟ وإلا فما ذلك الحاجز الذي كان يجده قائماً بينهما ؟ لا يذكر

يوماً أنه اندفع إلى ذراعيه كما كان يفعل أخوه مسروق وأخته بسباسة ،
وكان يقول لنفسه وهو طفل : « كيف أندفع بين ذراعيه كأني طفل ؟ »
وكان يسخر في سره منهما عندما كانا يتنافسان على حضن أبيه ويتنازعان
قبلته ويسأل نفسه أهو طفل مثلهما ؟

كان دائماً يذهب إليه متردداً يمسك نفسه كأن شيئاً خفياً يقف دونه .
وأحس سيف هواء صباح الحريف يملأ صدره عندما خرج إلى البستان ،
وكان القمر ما يزال يغمر الفضاء بضوئه الحائل . كان منذ ساعة قصيرة
يرى نفسه في الحلم طفلاً في هذا البستان والجارية السمراء تجره من ذراعه ،
ثم هاتان العينان ، كانتا تظهران له من وراء الضوء الخافت كأنهما قطعتان
من الجمر . واعتراه خجل من أن ما زال يتذكر هذه المخاوف الصغيرة
كأنها حقائق . وبلغ مربوط الخيل ورأى مهره الأبيض يرهف أذنيه لمقدمه .
أهى حاسة أخرى غير حواس البشر يستطيع المهر أن يدرك بها قدوم
صاحبه قبل أن يراه ؟ كان الفرس يتنفس في هزة كأنه طفل يتهاتف
نحو ظئره ويهز رأسه في فرحة ظاهرة . وخرج به سيف من باب البستان
الخلفي الذي يفضي إلى خارج المدينة ، وكان الليل ما يزال ساكناً لا تقطعه
إلا تحية حارس الباب إذ قال له : « لم يطلع الفجر بعد يا سيدى » .
وكان شيخاً عربياً عرفه سيف في القصر منذ كان طفلاً ، وكان يؤثر أن
يخرج من عنده كلما أراد الخروج . وقد طالما رآه الشيخ يذهب مبكراً
إلى الصيد ولكن صوته في تلك المرة كان لا يخلو من دهشة . وأضاف
ضاحكاً : « لم تتحرك الطيور بعد » ؛ فقال سيف وقد داخله شيء من

الارتياح: « وماذا يزعجها قبل الصباح يا أبا بردة ؟ » وكان ذلك هو الاسم الذى اعتاد سيف أن يناديه به منذ صباه ، لأنه كان يضع على كتفيه بردة من وبر الإبل لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً ولا فى صيف أو شتاء . وهز الرجل رأسه فى عطف وهو ينظر فى أثره ويغلق الباب خلفه . وسار المهر خفيفاً نشيطاً فوجد سيف فى حركته بعض الأنس ، وكان النسيم يرف من قبل الشمال فيمسح على وجهه رقيقاً . تذكر يوم أهدى أبوه هذا المهر إليه وكان ذلك عندما أتم بناء الكنيسة وذهب فى موكبه ليصلى بها أول صلاة مع رسول قيصر . وتذكر فى تلك اللحظة أمراً غاب عنه فى مضطرب أفكاره . فإن أبرهة سيخرج فى ذلك اليوم فى موكبه إلى الكنيسة العظمى ليؤدى بها الصلاة قبل خروجه إلى حرب قريش . وقد كان سيف يود لو ذهب معه إلى تلك الحرب ، بل لقد طلب ذلك إليه كما ينبغى لشاب فارس مثله يريد أن يجول جولة فى ميدان القتال كما يجول الرجال . ولكن أبرهة تبسم له قائلاً: « لن ترضى أمك ياسيف » ، وكانت نظرتة غريبة وابتسامته جوفاء . فلم أجابه بأن أمه هى التى لا ترضى ؟ أكان يسخر منه ؟ وهل كان يقول ذلك لمسروق لو سأله الخروج معه ؟ وعجب سيف من نفسه كيف لم يذكر ذلك الموكب إلا فى تلك اللحظة بعد أن بعد عن القصر وانفرد فى الليلة المقمرة . حقاً إن القلوب لا تتحدث فحسب بل تسيطر . لم يكن فى قرارة نفسه راضياً عن الخروج فى الموكب مع أبيه وكان يتمنى لو وجد سبباً يمنعه منه ، ولكن لم يخطر بباله أن يخرج عامداً من القصر لكى يمتنع عن الذهاب

مع أبيه قصداً . أ يكون قلبه قد أنساه الموكب وجعله يخرج من القصر قبل الصباح كأنها خطة مدبرة؟ واتجه المهر في الطريق الذهاب نحو وادي زهر ، فقد كان سيف كلما ركبه يذهب به إلى هناك . وقال سيف وهو يمسح عرف الفرس : « إنك خير من كثير من البشر » . كان يعرفه كما يعرف الصديق صديقه ، فهو يأنف أن يأكل في مذوده إذا لم يكن نظيفاً ويأبى أن يشرب الماء إذا لم يكن صافياً ولا يرتاح في مربوطه إذا لم يتعهد سائسه بالخدمة . وهو لا يحتاج إلى مهماز ولا تلويح بسوط ، وينفر ثائراً إذا أساء أحد إليه . لم يكن ليرضى أن يعامله أحد كما يعامل خدم القصر من العرب الذين كانوا يضربون بالسياط ويوجه إليهم أقذع السباب ، ولا يرضى أن يعيش كما يعيش هؤلاء المساكين الذين يضربون خيامهم في شعاب الجبال يقنعون بأتفه الطعام وأرذل الملابس . ومر في طريقه بخيمة رثة في ظل صخرة ، وكان الفجر ينبثق من أفق الشرق كأن الكون يفتح عينيه من سنة نوم . وإلى ناحية من الخيمة رأى أشباحاً سوداء مقبلة فتأملها حين اقترب منها فإذا هي امرأة عجفاء تحمل حزمة من الحطب ومن ورائها أربعة أطفال لا يزيد أكرهم على سن العاشرة . يحمل كل منهم حزمة ولا يكاد صغارهم يستقلون بحملهم . هؤلاء كذلك يخرجون في الصباح الباكر كأن الأحلام المفزعة تزعجهم من مراقدهم . وكانوا جميعاً في أسمال بالية لا تغطي من أجسامهم النحيلة إلا قطعاً . ووقف الأطفال يتطلعون إليه في فضول بوجوههم السمراء التي يعلوها الصدا . ولكن المرأة لم تلتفت إليه وصاحت بهم في حنق ، فأسرعوا وراءها

وهم يتلفتون إليه من وراء . ومدت المرأة يدها إلى كبرى الصبية عندما أدركتها فخبطتها في عنف وصاحت بها تنطق بألفاظ لم يفهم سيف منها سوى أنها حانقة ، وصاحت الصبية تبكي . هؤلاء كذلك قد خرجوا قبل أن يتحرك الطير . ولكنهم لا يغنون ولا يمرحون . كان سيف يرى في كل مكان أمثال هذه المرأة وأطفالها ولم يسمع منهم جميعاً سوى الحق ، ولم يشهد سوى العرى والعنف . وعادت إليه ذكرى يوم خرج إلى التزهة مع بعض أصحابه من أبناء القواد الأحباش وأعيان صنعاء وكانوا يحملون طعاماً خفيفاً فنزلوا في شعب أشجر معشب . يستألمون عند الظهيرة ، وكان على مقربة منهم نجع فيه خيام رثة مثل خيمة تلك المرأة ، وجاء إليهم سرب من أطفال يشبهون أطفالها في عظامهم الناتئة وثيابهم المحرقة التي لا لون لها إلا أن يكون التراب لوناً . ووقف الأطفال يرقبون الجمع كما تقف الكلاب الجائعة تترقب فضلة من العظام على مقربة من وليمة تفوح رائحة طعامها . وأخذ أصحاب سيف يعثون بالأطفال فيلقون إليهم قطعاً من فئات الخبز ويتصاحكون كلما رأوهم يتزاحمون عليها . كانوا في تزاحمهم عليها يعفرونها في الرمال فمن استطاع منهم أن يفوز بقطعة منها أسرع بها ودمسها في فمه ولا يبالي أن ينفض التراب عنها . وتذكر سيف كيف أحس عند ذلك بما يشبه الحق . وكانت ضحكات أصحابه ترن في سمعه قاسية مزعجة . إنها فكاهة للمتفرجين ومعركة حياة للمعذبين . وقام يحمل ما استطاع حمله من الطعام فمد به يديه إلى الأطفال وأمرهم أن يذهبوا به ليأكلوه بعيداً في هدوء . ولم يدر لم كان

في قوله غليظاً جافياً مع أنه كان يرحمهم في قلبه . وضج أصحابه بضحكات
 عالية عند ما رأوا الأطفال يصيحون به صياحاً يشبه السخرية وهم يخطفون
 الطعام ويسرعون به كأنهم يخشون أن يستعيده من أيديهم . وجعل
 الفتيان يتبادلون فكاهات قارصة وهو يمسك نفسه من الغضب . ووقع
 في قلبه في ذلك اليوم أن هؤلاء المساكين الذين ذهب الفقر بإنسانيتهم
 أقرب إليه من رفقاءه أصحاب الكبرياء . وتمثلت له أمه ريحانة العربية
 تبسم له شاكرة . وخطر له في تلك اللحظة خاطر جديد وعجب لنفسه
 كيف لم يخطر له من قبل ، أن هؤلاء المساكين قوم أمه الحبيبة ريحانة .
 وكان سيف قد بلغ في سيره منتصف الطريق حيث كان جبل ينور
 الذي ينطوى على كهف يسكنه الجن ، وظهرت أشعة الشمس الأولى
 تضرب في السماء بمثل حراب دامية . فأحس رهبة شديدة وهمز مهره
 فانطلق يعدو به ، وأحس شيئاً من الارتياح للحركة السريعة ، ولكن
 هواجسه لم تفارقه فسأل نفسه : «ماذا كان يفعل لو كانت ريحانة ولدته
 لأحد أبناء قومها من حمير ، أو لرجل من بني خثعم أو الأزد أو السكاسك؟
 كيف كان ينظر إليه هؤلاء الشبان الساخرون أبناء قواد الحبشة ؟ وذهب
 بفكره إلى أحاديث الشيخ أبي عاصم إذ كان يقص عليه وعلى خيلاء
 أخبار جده ذي جدن ، وأطرافاً من سير ملوك حمير وآدابهم وعقائدهم . أكان
 الأطفال يسيرون عند ذلك عراة هكذا جياعاً ينتظرون أن تلقى إليهم
 فضلات الطعام ؟ وهل كان في حمير أمثال أولئك الرفاق من أبناء القادة الذين
 يتضحكون سخرية من بؤس المساكين ؟

وصعدت الشمس بموكبها في السماء وألقت أشعتها على حواشي السحب فصبغتها بالعصفر والقرمز ، وعادت إليه صورة أبيه أبرهة الذي سيخرج في موكبه إلى الكنيسة العظمى ليصلي ويدعو المسيح لينصره .

أيسأل عنه إذا افتقده ولم يجده ، أم هو لا يفتقده ولا يحس غيبته كما فعل من قبل مراراً ؟ كان أبوه أبرهة إذا اتجه إليه في حضرته يسم له عاطفاً ويكرمه رحيماً ولكنه لم يتجه إليه يوماً بعتاب على غيابه عن مشهد من المشاهد ، ولم يقل له يوماً : « ما كان ينبغي لك أن تغيب اليوم يا ولدي »

لم يذهب إلى الكنيسة في يوم عيد الميلاد السابق لأن خيلاء كانت مريضة ببرد ، فأثر أن يبقى إلى جانب سريرها ، وفي يوم الفصح لم يذهب لتهنئة أبيه لأن حلمه المزعج زاره في تلك الليلة فأفسدها عليه ولم ينم إلا قبيل الصباح ففاته ساعة التهنة بالعيد .. ولكن أبرهة لم يغضب في إحدى المرتين ولم يتجه إليه بلوم . بل بعث إليه يوم الفصح بهديته مع أمه .

وعادت إليه كلمات الشبح الأسود إذ قال له في الحلم : « من أنت وابن من أنت ؟ أتضرب ابن أبرهة ؟ » . ألم يكن أبرهة أباه ؟ وتمنى لو تجرأ أن يذهب إلى أمه ليلقي عليها السؤال الذي صار ينمو في طي نفسه كما تنمو الشياطين إذا تصورت في صور الحيوان ، وكاد الشك الذي أثاره الحلم المتكرر بصير يقيناً . وهاجمه السؤال مرة أخرى في حاجة « أنا ابن أبرهة ؟ ألا يكون ذلك الحلم من وحي الغيب جاء ليطلعني على حقيقة خفية ؟ » بل لقد بعدت به الدفعة عن مداها وسأل في ثورة قائلاً :

« أنا ابن ريحانة ؟ » ولكنه ما كاد يفتن إلى سؤاله حتى ارتد في فرع

كأن هوة عميقة تفغر له فاهها في الطريق على حين فجأة ، أو كأنه رأى عدواً يتربص له لينترع منه كترأ ثميناً . وقال في غيظ : « بل هي أمى ولا يمكن إلا أن تكون أمى . إننى أعرف ذلك كلما نظرت إليها أو سمعت صوتها وكلما نظرت إلى صورتى فى المرآة أو تأملت أعماق نفسى . إنها بلا شك أمى ولن يداخلى فى أمرها شك أبداً » . وبلغ به السير إلى قصر جده ذى جدن على قمة التل المشرف على وادى زهر ، ولم يحس مرور الزمن ، كأن لم تمض ساعتان ، وكانت الشمس تعلو فى السماء مقدار رحمن .

وكان القصر العابس مقفراً ليس فيه إلا صبيح الحارس وبعض الخدم من الأعراب ، وحجراته الواسعة الحجرية الباردة . ولكنه كان أرفق به من غمدان لأنه لا يضطره إلى التسلل والتخفى . كان هناك يستطيع أن يخلو إلى نفسه ويمضى مع أحاديثه بغير أن يعتمد الاعتزال أو يضطر إلى الاعتذار باختلاق الأكاذيب . ولكنه عندما أقبل الليل كاد يخنق من الوحشة ، فخرج إلى الوادى وكان القمر يغمره بضوئه الرفيق ، ويجعل مناظره أشبه بمناظر الخيال . وكانت تمر به أوقات يفىق فيها إلى حسه فيفرع ويتمنى لو كان إلى جانبه أحد يحدثه ويسمعه صوته ، خيلاء أو أبو عاصم أو ريحانة ، فإن هذه الحياة التى يحياها فى الخيال توشك أن تقطع صلته بالأشياء والأحياء جميعاً ، وتجعل كل حركته لا تزيد على سلسلة من الهذيان المحموم . ومع ذلك فقد أمضى أكثر وقته فى ذلك الوادى مدة إقامته فى قصر جده ، يهيم فيه مع خياله

فلا يعود إلا قبيل الصباح عند ما تثقل جفونه ، ولكنه إذا عاد إليه استأنف في نومه سلسلة الهذيان في الأحلام .

٣

قال الراوى :

كان غمدان قد استعاد رونقه بعد أن أصلحه أبرهة من آثار الحرب الطاحنة التي كانت بينه وبين أعدائه ، وأصبحت أبهاؤه كما كانت على عهد ملوك تبع أعجوبة من أعاجيب الفن البديع .

كان البصر يمتد في إيوانه بين صفين من العمد المرمرية الرشيقة ، تحف بهما من الجانبيين عقود أنيقة مدت من بينها الطنافس الوثيرة من نسيج فارس والهند وأرمينية ، وتتخللها تماثيل بارعة الصنع من نحاس أو مرمر ، وآنية من فضة أو حجر شفاف عليها نقوش افتن في تصويرها صناع القسطنطينية والإسكندرية . وكانت في أركان الإيوان أربعة أسود نحاسية سمراء ، إذا دخل الهواء في أجوافها سمع لها صوت يشبه الزئير كأنها عائدة عند الفجر إلى دحائها بعد أن امتلأت من صيدها في الليل .

ولما تقدم النهار توافدت على الأبواب جموع من الذين جاءوا فوجاً بعد فوج يسرعون من فجاج اليمن ليظهروا الولاء لأبرهة الملك المنصور قبل أن يخرج في جيشه العظيم إلى حرب قريش .

ووقفت الجموع في حلقات يتهامس بعضها مع بعض ، وعيونهم تلوح بين حين وحين إلى ردهة الإيوان تترقب قدوم الملك . وكانوا جميعاً في زينة مختارة وملابس زاهية وسلاح محلى بالذهب والفضة ، فكان ألوان الزهر اجتمعت هناك من أحمرها وأصفرها وأزرقها وما بين ذلك من ظلال شتى . كان فيهم زعماء القبائل من حمير أصحاب الملك القديم ، ومن أشراف خثعم سادة فرسان الصحراء ، وشيوخ همدان شجعان العرب ، وفيهم من مهرة والسكاسك وكندة الذين عادوا إلى بلادهم بعد أن خلعتهم قبائل الشمال عن عروش نجد . وكان بينهم عدد كبير من وجوه المدائن الكبرى صنعاء ونجران وزيد وصعدة وعدن وغيرها ، قد احتشدوا جميعاً بدعوة من الملك ليستوثق من ولائهم قبل خروجه إلى مغامرته الجديدة التي ستمد ملكه على أرض العرب جميعاً .

ودخل شيخ بدوى يتوكأ على عصاه ويبطأ بنعليه الغليظتين طنافس البهو في بطاء ، ناظراً إلى الجمع الكثيف في هدوء كأنه جاء يسوق إبله العطشى إلى مورد الماء . وكانت ملابسه الحشنة ووجهه المجعد تبدو مثل صرخة في وجه الجمع الجحافل الأنيق فكان أينما خطا تتجه إليه الأعين في اهتمام ودهشة . كان في هيئته محارباً قديماً من بقيه عهد منقرض . وحيا الشيخ أقرب الناس إليه تحية خافتة تضرر لوناً من الاعتداد بالنفس . وكان يقف بين خطواته البطيئة يقلب بصره في الوجوه كأنه يبحث عن وجه يعرفه . وكان يرى ما أمامه كأنه يالوح من وراء ضباب ويستمع إلى الهمهمة الغامضة التي تردد في البهو كأنها منبعثة من عالم بعيد .

وكانت الأعمدة المرمية تبرق جديدة والأروقة المزخرفة تطل هادئة جليلة والمصابيح تتدلى من عناقيدها النحاسية الفخمة كما كان يراها منذ عهد بعيد عندما كان يدخل على ذى نواس آخر الملوك . ومع ذلك فقد كان البهو يبدو فى نظره الكليل أجنبياً . وعادت إليه صورة ذى نواس يوم جمع شيوخ القبائل ليستنجد بهم على الأحباش الذين جاءوا لغزو بلادهم ، وكان يبسط لهم يديه راجياً أن يتناسوا أحقادهم وعداوتهم ويقفوا وراءه صفّاً واحداً ليحاربوا عدوهم ويدفعوه عن أرضهم . وتذكر ضجة الشيوخ وهم يتبادلون التهم ويتقاذفون بالصيحات الحانقة ثم ينصرفون فرادى لكى يلقاهم الأحباش أشتاتاً ويقهروهم واحداً بعد واحد .

وعادت إلى الشيخ صورة المعركة الطاحنة التى شهدتها ، وصورة ذى نواس وهو يولى منهزماً عند شاطئ البحر وينحوض الماء بفرسه حتى يغرق فيه لكيلا يقع أسيراً فى يد عدوه المنتصر . أهؤلاء الذين يجتمعون فى البهو الكبير من قومه ؟ كان لا يعرف فيهم وجهاً واحداً . وهل جاء من واديه البعيد ليقف فى هذه الصفوف حتى يحضر أبرهة ؟ وأحس فى صدره قبضة من الحزن ووخزة من الذلة . هذا ما تنبأ به ذو نواس عندما كان يتضرع إلى شيوخ القبائل ويسألمهم أن يقفوا من ورائه ، كأنه كان ينطق باسان الغيب . قال لهم عند ذلك واليأس يغالب الحق فى صوته : « سوف تقفون أنتم أو من يبقى منكم بين يدي العدو تحنون له رؤوسكم خشوعاً كما يحنى العبد رأسه لسيده » . وهذا هو ذو نفر شيخ حمير وبقية ذلك الجيل المنقرض تحكم عليه الأقدار أن يبقى حتى يحقق

نبوءة الملك اليائس . هذا هو يقبل من أرضه البعيدة لكى يحنى رأسه إلى أبرهة . وهؤلاء الذين لا يعرف منهم أحداً قد جاءوا جميعاً لكى يجتمعوا وراء أبرهة ويحاربوا من أجله كما لم يجتمعوا وراء ذى نواس وكما لم يحاربوا من أجل أنفسهم . وحجبت بصره الكليل غلالة من دمعة مترددة فلم ير أمامه إلا أشباحاً مختلطة مضطربة وسمع منها صوتاً يناديه :
— مرحباً يا أبا الهيثم .

وعجب أن يعرفه أحد في ذلك الجمع ، وكان يحسب أن الذين عرفوه قد ذهبوا ولم يبق منهم أحد يشاركه أسفه ؛ ومد بصره القاتم فرأى رجلاً طويلاً يمد إليه يده . وكان كهلاً متين البناء أنيق الملبس وخط الشيب لحيته ولكن لمعات عينيه ونضرة وجهه أكسبته مظهر الشباب ، وكان في منطقته خنجر له مقبض فضى يلمع بقطع من الجواهر ، وكان صوته عميقاً في شيء من الغلظ عندما قال للشيخ .

— أما تعرف نفيل بن حبيب ؟

فقال الرجل في صوت خافت : لا تعتب على بصرى يا أبا حبيب فما حسبت أن ألقاك هنا . ما حسبت أن ألقى هنا أحداً يعرفنى . وأخذته نفيل فابتعد به إلى ناحية بين عمودين متقاربين من أعمدة البهو الأنيق . وقال وهو ينظر حوله :

— طال عهدك بالناس منذ فارقتهم يا أبا الهيثم .

فقال الشيخ : لم تطأ قدماى صنعاء منذ فارقتها .

وسكت حيناً ثم أضاف :

— كنت أظن أبا عاصم هنا .

فقال نفيل : الشيخ صفوان بن قيس ؟
وقلب بصره الحديد في الجمع لحظة ثم قال :
— لا أظنه هنا .

فقال أبو الهيثم :

— كأني أرى الناس من خلال ضبابه . وجوه لا أميز منها أحداً .
هكذا نجتمع مرة أخرى يا نفيل .

وكان بعض الوافدين قد جاء فوقف قريباً منهما .

فقال نفيل : تعال يا أبا الهيثم إلى هناك . تعال يا ذا نفر .
وأخذ الشيخ من ذراعه إلى ركن أبعد من الزحمة وأضاف قائلاً :
— أعرف أنك ما تزال تذكر أيامك الأولى ولا آمن أن يسمعك
أحد هؤلاء .

فقال الشيخ في حزن يتردد فيه الغضب :

— لم يبق لي ما أخشى عليه يا نفيل ؟ أما تعرف أين أبو عاصم ؟
فأجاب نفيل :

— ما هي إلا كلمات سمعتها . يقولون هو غاضب من أبرهة ،

أو أبرهة غاضب عليه . ولكن من هذا ؟

والتفت فجأة إلى باب الإيوان وقال في دمعة :

— هذا أبو عاصم .

وذهب نحوه مسرعاً حتى أتى به إلى الشيخ ، فتلقاه فاتحاً ذراعيه

قائلا : كاد نفيل يوئسنى من لقاءك .

ومضت بعد التحية لحظة طويلة قبل أن يقول الشيخ أبو عاصم :
— وماذا أتى بك إلى هنا ياذا نفر ؟

فقال الشيخ باسم : أنت بى راحلتى .

ونظر فى وجهه لحظة أخرى ثم قال :

— وحق مناة لولا نفيل ما عرفتكَ يا أبا عاصم . أكنت تحسب أن

نتلاقى يوماً ها هنا ؟ كيف حالك منذ تفارقنا ؟

وسمع نفيل صوتاً يناديه من بين جماعة أقبلت جديدة ، فذهب

إليها وترك الشيخين وحدهما .

وقال أبو عاصم فى هدوء :

— الشمس تشرق فلا أكاد أراها وتغرب فلا أكاد أفقد نورها .

وآكل إذا حضر الطعام ولا أحس عطشاً عند ما أرفع الماء إلى فمى .

لا أذكر شيئاً من أيام حياتى كأنى أعيش فى هباء . لا أذكر إلا الماضى

البعيد كأنه لم يمض إلا منذ ساعة . ألا تذكر آخر يوم تلاقينا ؟

فقال ذو نفر :

— أكانت حقاً عشرين عاماً ؟ ما أسرع ما تمضى السنوات

يا أبا عاصم ونحن لا نكاد نحس مرورها .

فقال أبو عاصم : ألسنا نحس مرورها حقاً ؟

فقال ذو نفر : بلى ؛ إنها على الأقل تذكرنا بمرورها إذا رأى

أحدنا وجه صاحبه .

فقال الشيخ : نعم ، نحس التغير الذى نراه على وجوهنا . ونحسه فى ضعف حواسنا وأبداننا . كل شىء يزول حتى الجبال الراسية ، والبشر يذبلون كما تذبل النخيل المعمرة . وجوههم تتجدد كما تتجدد الثمرة الجافة ، ويتحول سوادهم إلى بياض وبياضهم إلى سواد . كل ذلك لا يزيد على حقيقة صغيرة وهى أننا من الفانين .

فقال ذو نفر : أهناك حقيقة أكبر ؟

فقال صفوان : نعم يا أبا الهيثم ، فإننا نتغير فى أعماقنا تغيراً آخر يدق عن إدراكنا حتى نقف عمداً لكى نتبينه بعقولنا لا بحواسنا . وقد نألفه وهو يدب فينا دبيب الفناء فى أعضائنا فلا نعرفه حتى يبدو لنا فجأة أو نطلع عليه فجأة كما أفعل اليوم .

وتلفت ذو نفر حوله قائلاً : لا يبدو القصر كما عهدته ، ولا الناس كما عرفتهم . أو هكذا هم فى عيني .

فقال صفوان : لا يملك أحدنا إلا أن ينظر بعينه . ولكن ليس هذا ما أقصد . هناك تغير آخر لا يتصل بما ترى . هناك تغير آخر يشمل العالم كله مستقلاً عن أشخاصنا ، وهو يجرفنا معه رضينا أو كرهنا . أنحن اليوم نفكر كما كنا نفكر ونحكم على الأمور كما كنا نحكم ؟ هل يزن الناس شئون الحياة بالمعايير التى كنا نزن بها ؟ أما زالت مثلنا باقية كما عرفناها نقيس بها الفضائل والردائل ونميز بها الخير من الشر ؟

فقال ذو نفر : أنا رجل قضيت حياتى فى البادية ولا أستطيع أن أعرف من الأمور إلا ما يقع فى خاطرى . عرفتكم يا أبا عاصم تطلب

العلم وتقرأ الكتاب ولست أعرف سوى إيلي وخيلي . ولكني مع ذلك أعرف أننا نتغير . نتغير في داخلنا كما نتغير في خارجنا . فإذا عركنا الدهر وامتحتنا تجاربه تعلمنا منه أن نكون أكثر حكمة .

فقال صفوان : أو أكثر تفاهة . قد تعلمنا التجارب أن نكون أكثر تهوراً أو أكثر جبناً . وقد تزيدنا بذلاً أو تحملنا على مزيد من الحرص ، وقد تجعلنا نقدر الحق كما قد تجعلنا نخذله ابتغاء الراحة . قد تجعلنا الأيام أكثر حكمة كما قد تميل بنا إلى الإسفاف والتعسف . فقال ذو نفر : إنها طبائعنا . الحنظل يزداد مرارة إذا نضج والشوك يزداد حدة وشدة ، ولكن الثمرة الطيبة تحلو .

فقال صفوان : لست أدري كيف أبين لك ما أعنيه بقولي ، فإني أحسه في نفسي غامضاً لا أستطيع أن أجده لفظاً . أو لعل أكون أصدق إذا قلت إن هذا الذي أحسه وأحاول أن أصفه لم يثر في نفسي إلا منذ لحظات عند ما وقع نظري على هذا الجمع يا ذا نفر . هؤلاء جميعاً جاءوا لتحية أبرهة . مررت من باب القصر إلى هنا بين جموع لم أر مثلها يجتمع لملك من بيت تبع . فوا أسفاً على ما سمعت في هذه الخطوات ؛ لقد دفعني الفضول إلى أن أبطئ في سيرى لأتسمع ما يقولون — فوا أسفاً ! لقد طرأ على الناس تبدل شامل جرفهم جميعاً حتى لقد سألت نفسي ألم أنجرف معهم ؟ كل ما سمعت منهم ثقیل على أذني كرية إلى قلبي ، وسرت أتسلل من بينهم مثل غريب في مدينة لا يعرف لسانها . كنت في شبابي أكره أشياء كثيرة في أهل جبلي ولكني لا أستطيع أن أصف لك

ما وقع في نفسي عند ما سمعت هذه الأحاديث . وأحسست في قلبي
وحشة الطريد الذي يجد نفسه وحده في فلاة . هو تبدل جرف الجليل
كله إلى حيث لا ندري .

فقال ذو نفر : أصدقاء بعيدة يا صديقي . ما عرفت أنك رضيت
عن الناس قط .

فقال صفوان : لست أراجعك في قولك يا أبا الهيثم . عرفت نفسي
ولم تخف عني عيوبي . كنت كما تقول لا أرضى عن كثير مما أرى ،
ولا يرضى كثير من الناس عني . كنت أرى قومي يتطاحنون على الصغائر
ويتنافسون على التوافه ولا ينظرون إلا إلى ما تحت أقدامهم . ولكني كنت
أعرف الذين لا أرضى عنهم وأعرف ماذا أنكر منهم . كنت أخالفهم
أو يخالفوني ولكننا كنا نختلف ومقاييسنا واحدة نقيس بها الأمور . وأما
اليوم فقد رأيت الناس ينظرون إلى الأمور نظرة أخرى ولهم مقاييس مبتدعة
يقيسون بها قيم الأشياء . بل لقد وقع في روعي أنهم أصبحوا يخفون ما في
قراءة نفوسهم ويتبعون طريقاً رسمت لهم ، لا يجرؤون أن يتحاووا عنها .
إنهم لا ينطقون بما في نفوسهم بل يتحاورون في أقوال لقنت لهم . أظني لم
أزدك بإيضاحي إلا غموضاً وإبهاماً .

فتبسم ذو نفر قائلاً :

ألا نكون نحن الذين وقف الزمان بهم وهو يعدو بهؤلاء جامحاً .

فقال صفوان هادئاً :

قد يكون ذلك يا أبا الهيثم ، إنك ما زلت أنفذ مني بصيرة وأفصح

صدرًا . أنت تستلهم الحقائق من كون أوسع من عالمي وأكثر صراحة .
وقال وكأنه يحدث نفسه :

« وقف الزمان بنا وهو يعدو بهؤلاء » .

فقال ذو نفر : عفوًا يا أبا الهيثم فإنني لم أقف يوماً لأفكر في مثل
هذا الذي تقوله لي . وكأنني أحياناً أدرك طرفاً مما تصفه لي . حقاً إن
الناس يستحسنون اليوم غير ما كنا نستحسن وينكرون غير ما كنا ننكر .
هم يرضون ويسخطون أو يقبلون وينصرفون ويحرمون أو يبيحون غير ما كانوا
يفعلون من قبل . وقد صدقت في قولك إن ذلك التغير يجرفنا جميعاً .
وإلا فلم جئنا إلى هنا .

وكان في صوته رنين الحزن . ثم مضى قائلاً :

— سمعت أنك غاضب يا أبا عاصم .

فقال صفوان : لم أغضب على أحد بمقدار غضبي على نفسي .
لم أغضب من أبرهة لأنني عرفته هكذا منذ رأيت . يبذل كل شيء ويلين
في القول حتى يطمئن ثم لا يبالي بعد ذلك شيئاً . فإذا احتاج إليك مرة
أخرى تملق كبرياءك حتى ينال منك ما يريد . أما نحن . أما أنا .
فإنني أذلت نفسي ورضيت أن أحضر مجالسه وأن أسمع من حوله يتحدثون
عمن أعرفهم وأحمل لهم أطيب الذكرى ، ويصفونهم بما أنكر ويقلبون
الحقائق فإذا النبل على لسانهم دناءة . وإذا الكرم لؤم . ثم رضيت آخر
الأمر أن أجيء اليوم من داري البعيدة لأنحني لأبرهة مع الذين جاءوا
للانحناء

فقال ذو نفر في مرارة : ونذهب إلى القليس ؟

فقال أبو عاصم : نعم سنذهب لنصلي من أجل انتصاره على قريش
كما لم نصل من أجل انتصار ذي نواس ، سنذهب إلى القليس .

وأقبل نفيل فقال في مرح نعم إلى القليس لنرى بدعة الفن
الحالص ، قطعة من المرمر والذهب يكاد من يراها يقول ما هو بناء البشر .
فقال ذو نفر : لن أذهب يا أبا عاصم .

فقال نفيل هامساً : لا تعل صوتك هكذا يا أبا الهيثم .

فالتفت الشيخ إلى نفيل في شيء من الغضب وقال :

— أعرفت المسيح يا نفيل ؟

فقال نفيل : لست أبالي أين أذهب ، فإني أنظر إلى من أصلي معه .

وكان في صوته سخرية . ثم مضى قائلاً :

— لست أبالي أن أذهب إلى القليس أو إلى بيت مناة ما دمت في

صحبة ملك .

ثم همس ضاحكاً :

— إنها تجارة يا أبا الهيثم ، هم يتجرون مع من يشتري منهم وأنا أتجر

مع من يشتري مني . هذا هو أبرهة يقبل والجموع تتحرك .

واهتزت الصفوف المتراصة تتدافع عند ما ظهر أبرهة في حلقة جراسه ،

وكان يسير بجسمه الضخم القصير كأنه يتدحرج . وجلس على العرش في

صدر الإيوان فخشعت الأصوات وشخصت إليه الأبصار .

وهمس نفيل قائلاً : لقد تعلم أن يكون ملكاً .

وبدأ الناس يتقدمون إليه ودبت الحركة في البهو وتعالى همهمة الأصوات فقال ذو نفر ساخراً :
— إنها تجارة حقاً .

فقال نفيل : لست أبالى يا أبا الهيثم سخريتك ، فقد طالما تجادلنا في أيام الشباب وكنت تضيق بى وتشتد في لومى . كنت لا تحب سخريتى ممن يعبدون الصنم الأصم ويمسحون جباههم بأقدامه ، ولكننى اليوم لا أسخر من شىء بل أقول ما تعلمت من الأيام صريحاً ، كل يعبد إلهه . كل يخلق إلهه .

فقال ذو نفر فى حق : إله تخلقه أنت ؟
فقال نفيل باسماء : لا تغضب يا صديقى فلست أقصد أن أثرك . كل منا يصور لنفسه إله كما يشتهى . كل منا يقصد من إله شئاً ويتعبد له من أجله . فإذا لم يجد عنده ما أراد خلق له إلهاً سواه . انظر إلى أعماق نفسك وقل لى صادقاً ، هل ترانى أقول غير الحقيقة .

فقال ذو نفر فى حق : أسمع يا أبا عاصم ؟
فنظر نفيل إليه باسماء وقال :

— سيروا فالصفوف تتقدم .

ولم ينتظر جواباً بل سار حتى دخل بين الناس يرفع رأسه فوقهم متطالعا نحو صدر الإيوان ولا ينظر من يدفع فى سبيله . ووقف ذو نفر إلى جنب صاحبه فى سكون واضعاً كفيه فوق عصاه الطويلة ، متكئاً عليهما بذقنه حيناً ، ثم رفع رأسه وتنفس نفساً طويلاً وقال :

— هلم نسير وراء الجمع يا أبا عاصم .

وتقدما حتى بلغا أطراف الجمع وبلغت آذانهما أصوات الوفود وهى تلقى تحيتها ، وكان صوت أبرهة يجيب عليها بكلمات قصيرة ، وضحكته العالية ، ترن بين الجدران كأنها صيحة أحد السباع فى ليلة ساكنة .

وأخذت الصفوف تمر بين يدى أبرهة والحراس وقوف من حوله ، نحاف الأجسام ، طوال القامة ، حفاة الأقدام ، عراة الرؤوس ، لهم شعور شعناء تزينها حلل من ريش الطيور الملونة ، وكانت نظراتهم تلمع عابسة مثل أسنة الحرب الطويلة التى فى أيديهم . وكان القواد يلبسون جلود فهود تتدلى من أكتافهم إلى ركبهم ، ونعالا من جلود الوعول وأساور من الفضة فى معاصمهم وسواعدهم . وكان أبرهة فى حلة حمراء موشاة بالذهب ، وعلى رأسه تاج تزينه الجواهر وفى وسط جبهته ياقوته حمراء تأتلق ، ووجهه الضخم يتردد بين السماحة إذا تبسم وبين القسوة الصارمة إذا تهجم . فإذا انبسط وجهه وانفرجت أساريره ظهر عليه أثر جرح غائر يعترضه من أعلى عينه اليسرى إلى جانب خده الأيمن ، يعلن للأبصار أنه أبرهة المقاتل الذى يقف فى وجوه المعارك ويتلقى ضربات السيوف .

وسارت بقية الصفوف بين يديه لا يكاد يستوقف منها أحداً إلا ريثما يرد على تحيته بكلمة قد تكون ضاحكة راضية وقد تكون عابثة ساخرة ، ولكن وجهه كان فى كل أحواله ينطق قائلًا : « إننى أجيب على ألفاظ بمثلها » . وكان دونفر لا يخفى تملأه كلما سمع أقوال الوفود ، ويميل على صاحبه هامساً : « لشد ما تغير الناس حقاً » . وتقدم شيخ من أهل صنعاء

يبقى أمام الملك قصيدة من الشعر يظهر فيها مودة أهل المدينة وعرفانهم لما شملهم به أبرهة من العدل بعد طول عهد المظالم ، ومن الرحمة بعد أن كادت القسوة تقضى عليهم .

فقال ذو نفر في دفعة : أسمع ما يقول هذا ؟
فأخذ الشيخ بذراعه وتقدم إلى الأمام صامتاً ، وكان الإيوان قد خلا
إلا منهما ، فأقبلا على أبرهة فصاح قائلاً :
— كنت أفحص الوجوه عنك يا أبا الهيثم . جئت تقدم رجلاً وتؤخر
أخرى .

فقال ذو نفر مبادراً :
— أبيت اللعن أيها الملك .
فضحك أبرهة ضحكته المزعجة وقال :
— لم تنس بعد تحيتك القديمة يا أبا الهيثم ؟
وكانت عيناه تلمعان لمعة غريبة عند ما اتجه نحو أبي عاصم قائلاً :
— أحسنت يا أبا عاصم إذ جئت مع الشيخ ، فقد بلغني أنك
غاضب علينا .

وكان ذلك اللقاء مفاجأة للرجلين ، وقال ذو نفر في دفعة :
— لم أتعلم بعد تحية خيراً منها أيها الملك .
فقال أبرهة ساخراً :
— أبعث إليك من يعلمك غيرها ؟

وأحس أبو عاصم في نفسه حرجاً شديداً ولكن الألفاظ غابت عنه

فلم يدر كيف يقول . واعتدل ذو نفر في وقفته يتكى بكفيه على عصاه
مواجهاً لأبرهة وقال هادئاً :

— هيهات أيها الملك فإني كما ترى شيخ كبير .

فقال أبرهة في حدة :

— لا يستعصى أحد على التعلم أيها الشيخ . بل قل إنك ما زلت
تتعلق بأذيال الماضي وتخيل إلى نفسك أوهاماً تملأ بها شديقك إذا خلوت
إلى من تسميهم قومك . أتحسب أن أقوالك لا تبلغ سمعى ؟ أأست
تقول لقومك إنكم كنتم الملوك ؟

فقال ذو نفر : ما تعودت أن أنطق إلا لكى يسمع عني . سألني
أيها الملك أجبك صريحاً فهذا أجدر أن تسمع ما أقول صحيحاً . وهل
أملك أن أنزع نفسي من ذلك الماضي ؟ وهل بقي لي من الغد ما أعلل
به نفسي ؟

فقال أبرهة في غضب :

— ما ذلك الماضي الذي ما تزال به مفتوناً ؟ أتخشى على شبان
حمير أن ينسوا أنهم كانوا من قبل ملوكاً ؟ أنا وحدي الذي أنزع نفسي
من الماضي وأنسى عداوتي وحقدي وكراحتي . أنا وحدي الذي أتسامح
وأغضى عيني على القذى . أسمع ما يقول يا صفوان بن قيس ؟
فقال الشيخ صفوان : عفواً أيها الملك فقد عرفنا حلمك وحكمتك .
وما جاء ذو نفر إلا مظهراً للولاء .

فقال أبرهة في دفعة سريعة : أتتلق عن الشيخ ؟ أما تدعه يتحدث

عن نفسه وتقنع بأن تتحدث عن نفسك ؟ إنك أنت كذلك لا تستطيع أن تترع نفسك من ذلك الماضي ، وتقول مثله إنك من حمير أصحاب الملك . أليس هذا ما تقوله صباح مساء في دروس الصبية ؟ ووقعت الكلمة على الشيخ كأنها وخزة . دروس الصبية ؟ أما يزيد في نظر أبرهة على هذا ؟ وسكت أبرهة لحظة قصيرة ثم استأنف قوله وكان صوته أهدأ وفيه رنين أسى :

— كنت أحسب أنني أكسب بالحلم أصدقاء وأمحو أثر العداوة الأولى . كنت أحسب أنني إذا قربت الذين حاربوني اقتربوا مني ، وإذا أسوت جراحهم وحقنت دماءهم قضوا سائر حياتهم يعرفون الدين الذي لي في أعناقهم . ولكنني وجدت آخر الأمر أنني أنا وحدي الذي نسيت العداوة . فرفع صفوان رأسه وقال :

— لست أنسى أيها الملك أنك أسوت جراحى . عندما حملت من المعركة ؛ ولست أنكر أنك رحمتني وحقنت دمي حين لم أنتظر منك العفو . كنت أعرف أنني عدو ولا أحزن لو لقيت مصير العدو المهزم . ولكن هذا ما كان منك وقد مضى عليه حين طويل لقيت في أثنائه من برك ما جعلني أحس ثقل ديني . وقد حاولت أن أرد لك بعض ديني بأن أكون معلماً للصبية كما قلت . وحسبت أنك تقدر ذلك وتجد فيه دليلاً على شكرى . فإذا كنت لا تحب إلا أن تتقاضى دينك دماً فهل أيها الملك فلست به ضئيلاً .

فقال أبرهة في نغمة اعتذار : لم أقصد كل هذا يا أبا عاصم .

ولكنى أخشى الفتنة . لم أعبأ بهذه الأقوال التى كانت تبلغنى عنك
فإنما هى علالات خيال لا تنال منى شيئاً . ولكنى اليوم مقبل على قتال .
والتفت إلى ذى نفر قائلاً : سأذهب إلى حرب قريش فماذا
أعددت للسير معى ؟

فأطرق ذو نفر حيناً ثم قال : سأجمع قومى أيها الملك كما ينبغى لى .
فقال أبرهة فى دفعة : كلمة داهية ؛ لم أنس بعد كلماتك التى
تشبه سجع الكهان يا ذا نفر . ولكننا ستحدث فى هذا إذا عدنا من
الصلاة . لا تتخلفا عن مجلسى وكونا قريبين منى لنتم حديثنا .
ورفع يده فانصرف الشيخان وفى قلب كل منهما زوبعة حتى صارا
فى الفناء فوقفا حيناً فى صمت وجهاً لوجه ، ثم قال ذو نفر :
— ماذا قلت يا أبا عاصم وماذا قال لى ؟

فقال صفوان فلنشرب الكأس حتى الثمالة . فلنشربها لأننا
عصرناها بأيدينا .

فقال ذو نفر : وحق مناة ما حسبت الطريق تنهى بى هنا .
سأجمع قومى كما قلت حقاً . وسيعلم أنها كلمة داهية .
فقال صفوان : أما علمتك التجربة ؟

فقال ذو نفر قد تجعلنا التجربة أكثر تهوراً . أليس هذا
ما قلت ؟

وسار يتوكأ على عصاه حتى غاب بين الجموع الزاخرة التى كانت
تملأ الفناء ، ووقف أبو عاصم وحده متردداً يحس كأن قدميه لا تقويان

على الحركة . وأحس كأن العيون تشخص إليه ساخرة وتتساءل إلى أين يمضى . سيذهب ذو نفر إلى بنيه وحفدته وبنى أعمامه وبنى إخوته ليقفوا معاً . سيقول لأبرهة هؤلاء قومي . وأما هو فأين يتجه ؟ إلى داره المحطمة في حقل صنعاء ؟ وغمره شعور من العجز والذلة مع العرق البارد الذى دب على أعضائه . وتمنى لو كانت جراحه التى أصابته فى المعركة القديمة قد نزت دمه ولم يعيش بعدها يوماً . ليت أبرهة قضى على حياته كما قضى على إخوته وبنى عمومته الذين استماتوا فى الدفاع إلى جنبه . أهكذا جرفه التيار معه فلم يفتن إلى الغمرة التى قذفه التيار إليها إلا بعد أن أوغل فيها وصار لا يستطيع انفلاتاً ؟ أهكذا يقتلع أبرهة ريشه واحدة بعد واحدة حتى إذا اطمأن إلى أنه يعجز عن الطير يركله بقدمه مطمئناً ؟ أما من أمل ؟ أما من غاية ؟ أما من نهاية ؟ وتنبه على صوت نفيل فنظر إلى وجهه وكأنه لم يره منذ ساعة كانت عيناه محمرتين تقدحان غضباً وكان وجهه المحتقن يشع ثورة . وقال الشيخ فى فتور : نفيل ؟

فقال نفيل فى صوت أجش نعم أنا ، فسمنى كما شئت تعال بنا نعتزل عن هؤلاء . أعرفت كيف لقينى أبرهة ؟ أسمعته ضحكته وهو يقول لى : « أما تعرف لك سيداً ؟ » ثم قال لى : « امسح لحيتك أمامى كما كنت تمسحها فى نادى قومك وأعد ما قلت على ملأ منهم » . نعم سوف أمسح لحيتى أمامه وأقول لست أعرف سيداً . وسار يحدث الشيخ فى صوت محتقن يعيد عليه ما قاله أبرهة عند

ما تقدم إليه ليؤدي تحيته وكان الشيخ يستمع إليه وتزيد نفسه
كآبة . فهذا الرجل يثب على بقايا المعركة ويأخذهم واحداً بعد واحد .
ومروا في سيرهم بحلقة صاخبة يمتزج الجلد فيها بالفكاهة وكان فيها
جمع مختلط من الحبشة ومن وجوه صنعاء وأشراف القبائل يتحدثون
ثلاثاً أو رباعاً

فقال نفيل في مرارة : أليس هذا قيس بن خزاعي وهذا حناطة
الحميري ؟ كانا منذ قليل يلعبان قدميه وها هما ذان يأخذان أجرهما .
أما عرفت أنه وعد ابن خزاعي بملك مكة ؟
فقال صفوان في ضجر قصة معادة يا نفيل .

فقال نفيل في حدة نعم قصة معادة . لست أحب أن أتستر
ولا أن ألتبس العذر لنفسى . نعم قصة معادة تذكرني بها يا أبا عاصم .
تجارة يبيع فيها كل امرئ ما عنده . كانت لى عنده تجارة وقبضت
ثمها ثم انقطع ما بيننا . أتسمعى ؟ ولكن قيس بن خزاعي لن يبلغ
ملكاً . أقول لك لن يبلغ ملكاً . إنما هى أمنية كاذبة يخدعه الرجل
بها ولن يلتقى إلا مثل السهم الذى أصاب أخاه من قبله . لن يقبض
سوى الثمن الذى قبضه أخوه محمد بن خزاعي .

وكان فى حنقه ينفلت من حرصه المعتاد فيعلو صوته بين حين
وحين والشيخ مطرق إلى جنبه كأنه لا يسمع .

ومضت الحلقة الصاخبة فى حديثها فقال حناطة الحميرى يخاطب
عدوة الحبشى : مالى أراك واجماً يا عدوة ؟

فقال الشيخ الحبشى أرأيت هذين ؟

وأشار إلى صفوان ونفيل وهما يتباعدان .

فقال أنيس كبير سواس الفيلة وما يعنيك منهما يا عدوة ؟

فقال الرجل وجهاهما ينطقان شراً . وهذا الشيخ الذى كان

أبرهة يدخله إلى القصر . أما رأيت وجهه ؟

فقال أنيس ضاحكاً : لقد أصبحت كاهناً .

فقال عدوة : الحمقى لا يعرفون إلا السخرية .

فقال حناطة : صدق عدوة . أما سمعت أنفيهما ؟

فأجاب عدوة وسط ضحك الجماعة دع الحديث فى هذا

يا حناطة فإنه عن الرجال .

فقال حناطة : أتغضب أن أقول لك صدقت ؟ كان أولى بك

أن تكافئنى بحديث عن امرأة .

وعادت ضحكة أخرى عالية .

فقال أنيس : وما للكهنة والنساء ؟

فقال عدوة : وأنت يا سائس الفيلة ؟

فقال قيس بن خزاعى : لا تغضب من هؤلاء يا عدوة . سيعرفون

حقك غداً إذا نشب القتال .

فقال حناطة : أراك تستعجل تاج الحجاز .

وقال أنيس عدنى أن تبنى لى عندك قصرأ يا ملك قريش .

فقال عدوة قصرأ عالياً فى الهواء .

فصاح قيس : كهانة أخرى ؟ متى تمطر السماء يا عدوة ؟
فقال عدوة متى سمعت رعدا ورأيت برقها .

وظهر أبرهة عند ذلك من باب الإيوان فقال حناطة يخاطب
ابن خزاعي : أسرع أيها الملك إلى زميلك .
وعلت ضحكة أخرى فقال ابن خزاعي في ضجر
- اسكتو أيها الحمقى ؟

وأقبل أبرهة في حلقة حراسه وسارت من ورائه حاشيته وأمرأه جنده ،
وكان وجهه يفيض بشراً عند ما وقع بصره على الجموع الزاهرة . وكان
يسايره شيخ من قواد الحبشة يميل عليه أبرهة بين حين وحين كأنه
يسر إليه حديثاً ، وهو بين حين وآخر يضحك ضحكته المزعزعة
التي تفيض سخرية . وخشعت الأصوات وثبت كل جمع في
مكانه . ولما اقترب الملك من حلقة عدوة التفت إليه قائلاً :
- كيف أصبحت يا عدوة ؟

فقال عدوة كما كنت دائماً يا مولاي . ولياً مخلصاً .
فقال أبرهة هذا عهدى بك دائماً . وما لهؤلاء الشبان يخفون
ابتساماتهم ؟ أكانوا يعابثونك ؟ قل كلمة وسأوقع بهم العقوبة جميعاً .
ونظر إلى حناطة قائلاً : وأنت يا حناطة . كم بلغ عدد نسائك ؟
ثم رنت ضحكته وسار بغير أن ينظر ورائه . والتفت إلى الشيخ الحبشي
الذي كان يسايره وقال له في صوت هامس :

- أظن بي البله يا بن مقصود ؟ تحسبني كما يقول أصحابك الذين

تحلو لهم الثروة ؟ أتحسب أنى لا أعرف هؤلاء فرداً فرداً وأعلم ! ينطوى عليه نفوسهم ؟ قيس بن خزاعي ؟ ذلك الشاب المفتون ؟ أتحسب حقاً أنى أجعله ملك الحجاز ؟

فقال الأسود بن مقصود : إني أفضى إليك يا مولاي بما يتردد على الألسنة .

هؤلاء الذين تأمن إليهم من العرب لا يريدون إلا شيئاً واحداً . فقاطعه أبرهة قائلاً : قطعة من غنيمة . تجارة لها ثمن . خديعة يدارون بها الخوف . أعرف هذا كله قبل أن ينطق به غيرى . أعرف أنهم لا يبالون شيئاً سوى أن ينالوا مآربهم . ولو وجدوا فرصة لانقضوا على يضربون في ظهري . أليس هذا ما تريد أن تقول ؟

فقال الأسود : هذا ما أردت حقاً .

فقال أبرهة : تقولون إننى نسيت عداوتى وأقفلت عيني وخدعنى هؤلاء العرب عن نفسى . ألا فاعلم أنت وغيرك ممن يظنون بى السخف والبله أنكم أنتم البلهاء . رأيت العرب يبيعون لى مكرراً فاشترته بمكر مثله ، ويبيعون لى عداوة فاشتريتها بقطعة صغيرة من الحلوى فهم يظنون أنهم يخدعونى ، فأدعهم يخدعون أنفسهم . اذهب يا بن مقصود فقل لأصحابك الذين يتحدثون عني إننى أسمع أقوالهم وإن كانت همساً

وكان قد بلغ قريباً من الباب فالتفت إلى الوراء نحو باب القصر مما يلي جناح الملكة ، وكانت جماعة عدوة تسير من ورائه منذ مر بها

فوقع بصره على حناطة الحميرى فقال له

— أأعددت سلاحك ودروعك ؟ ستجد فى مكة حسناوات من

قريش يا حناطة . أأست بهن مفتوناً أيها الحبث ؟ سوف أهدى
إليك أبرعهن حسناً .

— وكان عدوة واقفاً وراء حناطة يسمو بقامته فوق الرؤوس وشعره

الجعدي يكلل رأسه وقد امتزج سواده بالبياض .

فقال له أبرهة

— كبرنا يا عدوة . كأنى أرى نفسى على وجهك أيها الصديق .

ولكننا سنحارب مرة أخرى .

فأغضى الرجل متأثراً، ولكنه أحس فى صدره قولاً يريد أن ينطق

به ولا يجرؤ .

وعلت أصوات الطبول وصاحت كتيبة الجنود المصطفة عند الباب

بتحية تشبه صيحات الحرب فى جبال الحبشة وأقبل قائدها

يكسوم بن أبرهة ، فانحنى بما يشبه السجود وتبسم له أبوه بسمة

ضئيلة ، ثم أسرع فالتفت إلى ورائه مرة أخرى نحو باب القصر ،

وتهلل وجهه قائلاً :

— ها هى ذى الملكة .

وأقبلت ريحانة تسير بين الصفوف المنفرجة ، وكانت فى حلة زرقاء

موشاة بالذهب وعليها حلية مجوهره ، وسارت رافعة الرأس لا تلتفت إلى

أحد . وكانت بسباسة إلى يسارها تزينها حلية ثقيلة من الذهب والجوهر ،

ولكن شعاع الحسن كان يتنفس عن يسارها من قبل خيلاء . وتقدم يكسوم فساق الفيل الذى يحمل هودج الملكة حتى اقترب منها فأسلم القيادة للسائس وهو يخالس النظر إلى أبيه . وكان وجه أبرهة يشرق بابتسامة وهو يأخذ بيد ريحانة ليساعدها على الصعود فى السلم المغطى بالقטיפه الحمراء حتى اعتلت الهودج .

وهمس حناطة لأنيس قائلاً :

— ما تزال العجوز حسناء .

فشد أنيس على ذراعه هامساً

— اصمت أيها الحبيث . أتقول إنها عجوز ؟

وتقدمت بسباسة وخيلاء نحو هودجهما فقال حناطة :

— ألا ترى الربيع إن كنت ترى ؟ هذه هى الظبية العربية .

فقال أنيس أيها الثرثار لا تقل عربية ولا حبشية .

فقال حناطة صدقت يا سائس الفيلة . لست أبالى من أى

قوم تكون الحسناء .

وجاء يكسوم فاقرب من خيلاء يريد أن يساعدها وقال لها

هامساً

— عمت صباحاً يا خيلاء .

فتمتمت رداً وأسرعت تركب وراء بسباسة قبل أن تمتد إليها يده ،

وانفلتت من يكسوم نظرة حانقة نحوها .

فغمز حناطة ذراع أنيس هامساً :

— هي ظبية عربية برغم أنفك .

فقال أنيس : دعنى لفيلتى .

وأسرع ليأخذ مكانه فى الموكب .

وتلفتت خيلاء من وراء أستار الهودج تقلب بصرها فى الوجوه ولكنه

لم يكن هنا . لم يكن سيف هناك وراءها — كما تمت — على فرسه الأبيض ينظر نحو هودجها .

وتزاحم أهل صنعاء على جانبى الطريق يحيون الملك الحبشى الذى

أنساهم أنه الأجنبى المنتصر . وكان أبرهة يتلفت مبتسماً إلى الجموع

المحتشدة ويرفع يمينه بالتحية ردّاً على دعائها كما كان قيصر يفعل

إذا حيا جموع القسطنطينية ولما بلغ الموكب رحبة الكنيسة ووقع

بصره على مدخلها الرائع وزخرفها البديع جذب عنان فرسه ووقف

حيناً يتأمل بابها المرصع بالياقوت والذهب وقبابها التى تبرق بغشائها

الذهبي فى ضوء الشمس .

ونظر إلى من حوله من قواده وجعل يحدثهم عن محاسن البناء الذى

سيخلد اسمه على آباد الدهر .

ولم يفارقه مرجه عند ما استقبله الجاثليق والقسوس ورفعوا أصواتهم

بالترتيل وهم يسرون إلى صحن الكنيسة . فكان يداعب القس الأكبر

بلغة رومية ينطق بها فى عسر وبطء، ويضحك بعد كل كلمة ينطق

بها . وسار إلى جنب الملكة بين الجدران المرمرية وعطر المسك يفوح منها

حتى بلغ باب المحراب وهو يتمايل بجسمه الضخم فى زهو . ونظر إليها قائلاً :

— هذا يوم من أسعد أيامي يا مليكتي . أحس السلام يملأ قلبي ،
وأكاد أحب أعدائي ليت قومك كانوا في هذا اليوم معي .
فوجئت الملكة ونظرت إليه نظرة سريعة وقالت في جفاء :
— ما أشد وحشتي إليهم ومن بعدهم .

وجلست عابسة صامتة فلم تجب أبرهة بعد ذلك على أحاديثه
التي كان يتدفق فيها . ولما تمت الصلاة وتلقى أبرهة ومن معه بركة القس
الأكبر عاد الموكب إلى القصر ، فما كادت ريحانة تبلغه حتى أسرع
إلى جناحها وانتبذت في شرفتها تسند رأسها إلى يدها وتتأمل الأفق
البعيد ساهمة .

وشغل أبرهة بضيوفه وكان قد أعد لهم سمائاً عظيماً لطعام الغداء ،
وكان يتفقد ذانفر ونفيل بن حبيب وصفوان بن قيس فلم يرهم بين
الوفود ، وأحس لذلك قلقاً مبهماً . وكان في أثناء طعامه يستعيد صورهم
ويردد أصداء أحاديثهم في شيء من الجنق .

٤

قال الراوي :

وكان الحريف يخلع على المروج الخضراء بقية روائه كأنه الشباب
المدبر إذ يبالغ في الزينة متعلقاً بالحياة . ولكن ريحانة لم تر شيئاً

من الجمال في كل ما وقعت عليه عينها وهي جالسة في شرفها .
كانت الوحشة الكامنة في صدرها تصور لها القصر الفخم كأنه سجن
مظلم ، تذكرها جدرانها بأنها ريحانة الأسيرة التي فقدت قومها وعزها
يوم دخلته . وكانت البساتين الياقة التي تمتد تحت بصرها تلوح في
رونقها كأنها عدوة حسناء تسخر من شقاءها ، وكلما هبت نسائم
الجنوب على أفنان الشجر أو لمعت أشعة الشمس على رؤوس جبلي
نقم وعيبان أو امتدت الظلال توشى ساحة صنعاء المزدهرة ، زاد
شعورها بوحدتها وقسوة الأمس واليوم والغد عليها . كانت كل المحاسن
التي حولها لا تحمل بهجة إلى قلبها وهو مغلق يسبح في ذكريات
قديمة حزينة مرت بها منذ عشرين عاماً . وتمنت لو كانت تعيش
في كوخ وضيع يتروى في ركن بعيد من شاطئ قبر أو في خص
مهلهل في جانب واد من أودية سراة حمير تقضى فيه حياتها سعيدة
مع من اختاره قلبها في شبابها ، إذن لكانت الزهرة الحجول التي تنبت
في شق من الصخر أحلى منظرًا وأعطر أريجاً من كل أزهار البساتين
الياقة في غمدان ، ولكانت قطعة العشب الضئيلة المصوغة التي تحف
بجوانب بئر عميقة من ماء أجاج في بطن واد أجرد أحب من كل
المروج الريا الفسيحة التي تكسو ربي الساحة .

وما صنعاء وما ساحتها وما البساتين والمروج ؟ لم تكن كلها سوى
زخارف سجن سلبها حريتها وذهب بكرامتها ولم يعطها بدلا منها سوى
تحف وآنية وأثاث ورياش وطعام مترف وفراش منعم . ماذا أعطاهما

غمدان غير تلك العروض الرخيصة التي لم تهب لها السعادة في يوم من الأيام ؟ وتذكرت حياتها الأولى البعيدة التي مضى عليها أكثر من عشرين عاماً .

ما كان أقصرها من الحياة ! ولكنها كانت ما تزال ماثلة في ذهنها واضحة حية نابضة . مرت بها ولم تخلف لها سوى ما تبعته الذكرى من قلق وألم وحسرة على حب مفقود . تذكرت زوجها الأول أبا مرة ذا وزن الذي لم تعرف الحب إلا منه وله ، وتذكرت الأشهر القليلة التي لم تزد على عامين وإن كانت عندها أثمن ما في حياتها . لقد تمتعت في تلك الأشهر القليلة بالحياة معه - مع أبي مرة الفارس النبيل - وكان منزلهما على ضفاف وادي زهر قريباً من قصر أبيها ذي جدن . ما كان أقصرها من أشهر مرت كما تتمضي ليلة الصيف المقمرة ، وأثمرت ثمرتها الفريدة فولدت ولدها الأول والأحب . وكانت تحسب أن الحياة تبسم وأن الدنيا تغني أغنية السعادة ، وأن ذلك الوليد سوف ينمو ويحبو ويشب في رحاب أبيه ليقر عينيهما في شيخوختهما ويرث السيادة المنحدرة إليه من جديه . ولكن وا أسفا ! فإن أبا مرة خرج يوماً إلى حرب الأعداء ولم يعد إليها . خرج إلى حرب هؤلاء الأحباش يقودهم أبرهة وما كانت تحسب عند ذلك أنهم يصيرون سادة الأرض أو أنه سيأتي عليها يوم تكون فيه . . .

وأغمضت عينيهما عند ما تمثلت لها صورة أبرهة .

كانت آخر كلمة سمعتها من أبي مرة أن قال لها : « قبلنا طفلنا كل

ليلة وانظري إلى نجم الشعري ، فأني سأرقب طلوعه لأنظر إليه ،
فتتلاقى نظراتنا هناك وأعلم أنك تقبلين ولدى . وأرجو أن يكون لقائنا
قريباً » . ثم قبل الطفل الذي كانت تحمله بين ذراعيها ونظر إلى وجهها
باسماً ولكنه لم يقبلها . لقد آلى ألا يشرب خمرأً ولا يقرب امرأته حتى
ينتصر على عدوه . وأسرع يبتعد عنها كأنه يتزع قدميه من موطنهما ،
ووقفت تنظر إليه وصورته تسبح من وراء عينيها الدامعتين ثم
غاب وراء ثنية الوادي وغاب آخر فارس من الذين كانوا يركبون
وراءه .

كانت تقف في الأصباح والأماسي في شرفة قصر أبيها الذي
انتقلت إليه لعلها تجد مع أهله أنساً . وكانت ترقب الأفق تنتظر
عودة فارسها المنتصر . وكم خفق فؤادها كلما لاح لها شبح فارس من
ثنية الوادي ولكنها كانت في كل مرة ترد بصرها خائبة حزينة .

وطلع عليها آخر الأمر فارس ومن ورائه ركب ، وجاءوا يقصدون
نحو القصر ، ولكنه لم يكن أباً مرة . وتأملت أشخاصهم في قلق
ولهفة حتى نزلوا ثم صرخت في يأس . كانوا ركباً من الأعداء الذين
خرج أبو مرة إلى حربهم ، سود الوجوه شعث الشعور في أيديهم
حراب طويلة . وجاءوا إليها بعد حين يحملون إليها أمر أبرهة أن تسير
إلى صنعاء . وتلفتت حولها ترجو أن ترى نصيراً ولكن لم يكن هناك
قومها . لم يكن هناك سوى شيوخ من الأتباع وعجائز أو صبية
من الأهل ، لأن الرجال جميعاً خرجوا مع أبي مرة . وصاح الجنود في

وحشية ينادونها باسمها . أما كان خيراً لها لو ألقت بنفسها من الشرفة فتدهدت على حافة الوادى الصخرية ؟ ولكن الوليد كان بين ذراعيها وأمسك بها فى ذعر عند ما صرخت . ودفعها الفطرة إليه فنظرت إليه تطمئنه من خلال لهفتها . فتبسم لها بعينيه الواسعتين البريئتين وهو لا يدري ماذا ينتظره فى الغد الموحش .

وأغمضت ريحانة عينها مرة أخرى فى يأس ، تريد أن تبعد الصورة عن ذهنها . ولكن الصورة تشبثت بها فى لحاجة وقسوة فلم تبعد عنها . ورنّت فى أذنيها أصداء ضحكة مزعردة . كانت بلا شك ضحكة أبرهة عند ما رآها تدخل عليه فى بهو غمدان . ثم قوله لها :
— أنت ريحانة حقاً ! ما هذه السحابة التى تغشى وجهك يا ريحانة ؟

أهو حلم أم حقيقة ؟ أهى الرؤيا البعيدة أم هو أبرهة الحى الذى أمامها ؟ وقامت ريحانة جافلة نحو باب الشرفة وكان أبرهة هناك حقيقة يناديها فى ضحكته المزعردة :

— ما هذه السحابة التى تغشى وجهك يا مليكتى ؟ هكذا كنت عند ما وقعت عيني عليك أول مرة .

ونظرت إليه نظرة صامته فيها كل مشاعرها فاستمر قائلاً :
— إنها النظرة الحانقة الصامته .

فعادت ريحانة إلى مقعدها صامته . وقال أبرهة
— أهكذا تلقينى ؟

فقلت في دفعة :

— وماذا تريد مني ؟

فقال أبرهة هادئاً

— لقاء بديع في مثل هذا اليوم السعيد .

فسكنت ريحانة وقالت في سرها سعيد حقاً ؟

ولكنها لم تنطق .

ومضى أبرهة قائلاً : أنت غاضبة ؟ لقد رأيت ذلك منذ كنا

في القليس . أغضبك شيء ؟ ... أهكذا تغضبين كلما رأيت مني

انشراحاً ؟

فقلت في حق : إنها القسوة التي أعرفها .

فقال في دهشة : قسوتي أنا ؟

فقلت : قسوة من إذن ؟ هذه الضحكة التي تعتمد أن تسخر

بها من آلامى . تقطع ضاحكاً ، وتطعن ضاحكاً ، وتسوق ضحاياك

إلى الموت ضاحكاً .

فقال أبرهة في نغمة عتاب : كل هذا ؟ كأنها أصدقاء قديمة .

فقلت : بل متجددة . تجددتها دائماً .

فقال أهو الماضي مرة أخرى ؟ ألا يختفي ذلك الماضي ويندثر

حيث مضى ؟

فقلت في دفعة : إنك أنت تنبشه ليعود أجديداً في بشاعته وقسوته ،

كأنك تجد متعة في العبث بجراحي .

فقال حسبها اندملت أما زالت بك بعد كل هذه
السنين ؟

فقلت فيما يشبه الحقد : إذن فاعلم أنها لم تندمل ولن تبرأ أبداً .
لن أنسى اليوم الذى جئت فيه إلى هذا القصر المظلم ، ولن أنسى
الكوارث التى ساقنتى إليه لن أنسى يوم جئت إلى هنا يسوقنى
عبيدك كأننى أمة .

فقال أبرهة : وهذه السنون العشرون . وهذه الفلذات التى نحيا
فيها : مسروق وبسباسة أما ترقين من أجلهما ؟ أما تنسين
من أجلهما ؟

فتحركت ريحانة فى ضجر واثارت فى قلبها عاصفة مكبوتة
مسروق . بسباسة . أحقاً هما ولداها ؟ إنها تكاد تنكرهما . ألم تجعل
اسمه « مسروقاً » ؟

هكذا قالت فى نفسها . « إنها لسرقة شنيعة أن تغتصب منى
ولداً » ولكنها جمجت ما فى نفسها وبقيت صامته .

فقال أبرهة أما تتغير هذه الجفوة على الدهر ؟ هبىنى أجنبياً
أمت إليك بأننى قريب لهذين . أما تتغير هذه الجفوة ؟

فقلت فى صوت مختنق : وهل تغيرت أنت ؟ أما زلت تذكرنى
بأوجاعى وتسخر من شقائى ؟ أما زلت تذكرنى بوحدى وبهلاك قومى ؟
ألم تكن اليوم كما كنت منذ هذه الأعوام العشرين ، تمنى
ولشفيت نفسك بأن ترى أهلى إلى جنبك يشهدون موكبك ويخضعون

لمجدك ؟ لقد كان القضاء بهم رحيمًا إذ أعفاهم من شهود هذا اليوم .
 ألم تقل لي : « ليت قومك كانوا هنا » ؟ ووضعت رأسها على يديها
 باكية .

فمد يده إلى رأسها عاطفًا وقال

— كلمة واحدة تثير كل هذا ؟ من أجل كلمة واحدة تنسين

كل حبي وكل مودتي ؟ ومع ذلك فما قصدت كل هذا .

فرفعت رأسها قائلة : إذن فماذا حملك على إقحام قومي في

حديثك ؟ أكنت تريد أن يكونوا اليوم معك أتباعًا ؟ إذا شئت

فاعلم أنني لن أنسى أنهم كانوا أهل الملك وأصحاب الأمر ، ولن

أنسى ما فقدت عند ما ذهبوا عني نعم ليتهم كانوا إلى جانبي

وخدمهم سادة كرامًا .

فقال ضاحكًا : في القليس ؟

فقالت في حدة حيث يكونون سادة . لا أبالي أكونون في

القليس أم في معبد مناة . لست أبالي أين يكونون لو كانوا إلى جنبي .

ولكنها أمنية حمقاء .

فقال أبرهة لقد قلت حقًا . إنها أمنية حمقاء . وما كانت

أمنيتي إلا كذلك وماذا فقدت من السيادة والكرامة ؟ أأست

اليوم ملكة ؟

فقالت في حق نعم ! فامض في قولك وعد إلى قسوتك .

قل ما تعودت سماعه منك غير مرة . فليست هذه أول مرة تمن على

فيها بأنك اتخذتني زوجة . امض في سخريتك وقل إنك لم تعاقبني
كما تعاقب الأمة ، ولم تتخذني امرأة كما تتخذ الأمة . وقل إنك
أكرمت ولدى الذى جئت أحمله بين ذراعى فجعلته مثل ولدك . قل
ذلك وغيره فإنه غير جديد على .

فقال أبرهة وهل في ذلك سخرية ؟ نعم أقول إننى اتخذتك
زوجاً وجعلت ولدك في مكان ولدى وسميته سيف ابن أبرهة . أقول
ذلك لا أمن به عليك ولكن لأذكرك بمكانتك عندي .
فقالت في جفاء لم تردني مكانة يا أبا يكسوم . لن أنسى
أننى ريحانة ابنة ذى جدن .

فقال هذا حق وهو ما يزيدني لك مودة أعندك طعنة
أخرى ؟ أما من طعنة أخرى ؟ لم لا تقولين إنك ريحانة زوج
أبي مرة ؟

فانتفضت في وثبة وقالت بلى أنا ريحانة زوج أبي مرة
ابن ذى يزن . ألم تعرف ذلك عند ما بعثت إلىّ تحملى إلى هنا ؟
ألم تعرف ذلك وأنت تنزعني من بيت أبي ؟ نعم أنا زوجة أبي مرة
الذى ما يزال حياً يهيم على وجهه في الأرض شريداً يذكر امرأته
وولده كل يوم إذا أصبح وإذا أمسى .

فقال أبرهة : أنت تثيرين غضبي .

فقالت في حنق : ليزد قلبك ثورة إذن فهلم إلى بطشك
حتى لا تبقى على حياة أمقتها وأبقى فيها ولا أستطيع أن أنسى عارى .

ثم وضعت وجهها بين كفيها واستخرطت في البكاء .
فهدأ أبرهة واقرب منها وجعل يمسح رأسها ويفرق بأصابعه خصل
شعرها الغزير الأسود . ثم قال

— لا عليك يا ريحانة . قطعت يد امتدت إليك بسوء . وهل
تمتد يدي إليك بغير الحب والإجلال ؟ إنك تزينين ملكي ، ولك
على الفضل في عشرين عاماً من حياتي أنت تعلمين ما أضمره
لك في قلبي أغضبتك كلمة فهت بها عفواً ولم أقصد بها ما
فهمت منها ؟

فقال ريحانة وهي أهدأ أكنت حقاً تحب أن يشهد قومي
موكبك ؟

فقال أبرهة أما قلت إنها أمنية حمقاء ؟ هزنى طربى فقلت
الكلمة كأنني ألقى بها تحية إليك هبها كلمة ذهبت في الهواء
لا تقدم ولا تؤخر شيئاً .

فقال ريحانة ولم أفعل سوى أن قلت كلمة . وهل كنت
لأملك نفسي من لوعة الذكرى ؟ أغيرة من الموتى ؟ أغيرة من
خيال ؟

فقال أبرهة في رقة ما بي من غيرة ولا غضب . إنك أعز
الناس عندي وأقربهم إلى قلبي . بل إنك صاحبة الفضل على لأنك
أدخلت إلى قلبي رقة لم أعرفها قبل أن أراك منذ رأيتك تفتح
قلبي كأنه كان في ظلمة ثم دخله النور . لست أكذب إذا قلت

إننى كنت أقصد بكلمتى غير ما فهمت منها ، فلو رأيت قومك اليوم لفتحت لهم ذراعى مرحباً وقلت إنهم أهلى . بل لست أكذب إذا عدت إلى الماضى قليلاً يوم رأيتك . فلقد وددت فى ذلك اليوم البعيد عند ما وقع بصرى عليك لو لم يكن بينى وبين قومك عداوة . وددت صادقاً لو رضى ذو يزن بالعودة إلى صنعاء فأردك إلى بيته زوجة له كما كنت ولا أمد إليك يدًا . لست أدرى كيف أدخلت السلام إلى قلبى منذ رأيتك . لم أنظر إليك كامرأة أريد أن أتخذها لنفسى بل كنت فى نظرى ملاكاً يوحى إلى بالسلام . ولو رضى ذو يزن أن يعود إلى صنعاء لجعلته أقرب سادة اليمن إلى مجلسى ، ولكنه أبى وآثر أن يخرج هائماً فى الأرض يلتمس المعونة ليعاود قتالى . فهل فعلت أكثر مما كان ينبغى لى ؟ اتخذتك زوجة وجعلت ولدك ولدى وسميته باسمى ولم أعاتبك يوماً على ما سمعته منك وأنت تردددين على مسمع منى كل ما تدفعك إليه ثورتك . ولكنى لم أكره يوماً بعد أن أحببت . ترفق بنفسك وكفى عن هذا البكاء ولا تعكرى على صفاء هذا اليوم . لا تذرفى هذه الدموع الحزينة فإنى ذاهب غداً إلى حرب لست أدرى ما ينجأ لى القضاء فيها .

فقال ريحانة وهى تجفف دمعها لست أدرى أنا ما ينجأ لى القضاء .

فقال : لقد طالما ندمت على هذه الضحكات التى تنطلق منى وتلك الكلمات التى ينفجر بها لسانى أحياناً ولو استطعت أن

أزيل عنك آلامك بأن أحملها عنك لما أحسست منها ألماً . سأمضي إلى الحرب غداً ولا يداخلك هم فإنها رحلة خريف قصيرة . وسوف أعود منها منصوراً وأمد ملكي إلى حدود الشام وأصافح ملك صديقي قيصر . وسوف أقسم البلاد فأجعل لسيف ولدك شطراً منها . ولن يعرفه الناس أبداً إلا سيف بن أبرهة . أياكون هذا اعتذاراً من خطئي ؟ أيرد هذا حق ولدك إليه ويرضى قلبك عني ؟

فقالت ريحانة متهانفة : أتفعل حقاً ؟

ومرت صورة ولدها في ذهنها كما يمر شعاع مضىء في حجرة مظلمة . ثم قالت في صوت خافت ليست هذه أول مرة أسىء فيها وتعفو ، وتكرمنى وأجفوا ، وتحسن إلى وألقى إحسانك بالنكران . ولكنى إذا خلوت إلى نفسي كدت أقطعها أسفاً اعف عني لما فرط منى في ساعة غلبني فيها ضعفى . واذهب إلى حربك وعد منصوراً موفقاً وسأصلى لك لعل الله يستجيب لدعائى ويغفر لى زلل لسانى . فنظر إليها أبرهة متأثراً ثم حول عينيه حيناً فشخص إلى الأفق ثم انفلت مسرعاً وهو يمد يده إلى عينيه يمسح منهما دمعة .

وبقيت ريحانة في مكانها ساعة طويلة تتحدث إلى نفسها حديثاً صامتاً ، وكانت كلمة أبرهة ترن في سمعها إذ قال لها « سأجعل لسيف ولدك شطراً منها » . وكانت تضطرب مثل ريشة في مهب الهواء يضىء لها الأفق الذى تحت عينها حيناً ثم يقتم حيناً ، وتساؤل نفسها أحقاً يصدق أبرهة أم هى إحدى دفعاته التى يتدفق

فيها القول على لسانه حلواً حتى إذا ما هدأت نفسه وذهبت عنه
 الدفعة نسي ما قال أو تناساه أو جحدته في جمود وهل يستطيع
 أن يبر بذلك الوعد الذى نطق به فى حرارة تشبه حرارة الصدق ؟
 أو هى حماسة لحظة لا تلبث أن تنطفئ إذا أحاط به ولده يكسوم
 وقواده الأحباش الذين ما زالوا يلومونه على إفراطه فى تكريمها ؟
 وهل كان يستطيع أن يصدق فى قوله تلك ويتحدى ولده يكسوم ؟
 ومع ذلك كله فمن يدرى ؟ إنه لم يعدها بأكثر من أن يجعل لولدها
 شطراً من ملكه وأى ملك هو ؟ أهو الملك الذى انتزعه قسراً
 من قومها أم هو الملك الذى لم ينطق القضاء بعد بحكمه فيه ؟ من
 يدرى ؟ ماذا يكون حظه فى المغامرة التى يعتزم أن يفتحها ؟ إنه
 يعدها بقطعة من حلمه ، بظل من خيال ، بأمل فى أمنية ما تزال
 وهماً فى خاطره أرضيت نفسها بعهد يقطعه على نفسه فى أمر
 ما يزال محجوباً وراء ستار الغيب ؟ وهل هى حقاً رحلة خريف ؟
 تلك الحرب التى يعتزم أن يخوضها مع قريش صقور عرب الشمال ؟
 وعاد قلبها يثور ويرمى أبرهة بالسخرية والقسوة وقالت فى سرها :
 « إنه فى كل مرة يسحر قلبها بألفاظه المعسولة حتى إذا ما ذهب عنها
 وجدت أنها لم تقبض منه إلا على الريح . أين سيف ؟ إنه لم يكن
 اليوم فى الموكب ؟ » وهجم عليها فجأة شعور الأم التى تفتقد ولدها ،
 كأنها لم تفتن إلا فى تلك اللحظة إلى غيابه . أين سيف ؟ ولدى
 سيف ؟ وقامت فى لهفة تبحث عن ولدها .

قال الراوى :

خرج أبرهة فى الصباح الباكر مع جيشه يتدفق مثل نهر يفيض تحت عاصفة ، وكانت الفيلة تسير فى الطليعة كأنها حصون تتحرك بطيئة ، ومن ورائها سارت الخيول العربية رشيقة ، من فوقها حراب تبرى فى سحابة من الغبار . وبقيت ريحانة فى شرفها تنظر فى أعقاب الألوف المتدفقة بين جبلى نغم وعيبان حتى غابت آواخر صفوفها بين الرى الحضراء ، ثم استلقت على أريكتها وقد استولت عليها رهبة شديدة . كانت منذ ليلة تتحدث إلى نفسها حانقة على أبرهة حتى خيل إليها أنها لا تضيق بالحياة إلا من أجله ، وجرفتها الهواجس فى تيارها حتى اتهمت نفسها وودت لو كانت قضت على حياتها قبل أن تعرفه ، ولكنها مع ذلك أحست له وحشة عند ما فارقتها .

ومهما يكن من الأمر فإن ريحانة استلقت على أريكتها فى الشرفة مستسلمة لهواجسها ، تتمثل أبرهة وقد بلغ مكة فخرجت إليه قريش خاضعة ذليلة تسأله العفو وتدعن له بالطاعة ، ثم تتمثل الفيلة الضخمة وقد شدت إلى الكعبة تنقض بناءها حجراً

حجراً حتى تدكها وتسويها بالرمال المحيطة بها ، ثم تتمثله عائداً بجيشه العظيم يشق جبلى صنعاء مرة أخرى ويسوق أمامه الغنائم والأسرى ، وقد خرجت تستقبله في موكب ضخم مع شيوخ اليمن وأمرائها ، وتستنجزه وعده الذى قطعه على نفسه أن يجعل لولدها سيف شطراً من ملكه . أيفعل حقاً ؟ أم يعود أدراجه وينسى وعده أو يحدد أنه نطق بحرف منه ؟ وما كادت ريحانه تخلص إلى تلك النهاية حتى ارتدت عليها الهواجس تصور لها فرسان قریش وهم يسارعون إلى القتال من رؤوس جباهم الجرداء وشعاب أوديتهم الوعرة التى يتربصون فيها ، ثم يثبون على الحبشة فيشردونهم ويوقعون بهم القتل والأسر حتى لا يبقى لأبرهة جيش . وتمثلته يرتد كسيفاً يتعثر فى هزيمته الشنيعة هائماً على وجهه فى الصحراء . أهى نقمة القضاء عليه من أجل تشريده لأبى مرة ؟ وخيل إليها أنها حقائق لا هواجس يجسدها الوهم لها ، وكادت تصرخ قائلة : « أية مقادير تلك التى تتعقب آثارى ؟ » لم تحمل إليها تلك الحواطر الحزينة شيئاً مما تحمله أحلام اليقظة من الرضى ، بل إنها حملت إليها فزعاً وقلقاً لم تكن تتوقعه . فلو هزم أبرهة حقاً وشرد عنه جيشه وارتد يتعثر فى الهزيمة هائماً على وجهه فى الصحراء كما فعل أبو مرة من قبل لكانت كارثة جديدة بعد كارثتها الأولى ، كأن الزمان موكل بها يختار لها أشد الكوارث وأقساها .

وأحست يداً تمسح على رأسها فى رفق فالتفتت إلى ورائها وهى

ما تزال ماضية في سبحها ، ثم انطلقت منها صبيحة مكبوتة
— سيف ؟

ومدت إليه يدها قائلة أين كنت يا ولدى ؟
وجذبتته إلى مقعد بجوارها . وأشرق على وجهها شعاع من البشر
وهي تتأمل قامته الفارعة ووجهه الذي ينطق بالرجولة وعينه اللتين
يأتلق فيهما نور حالم ، وكأنها لم تره منذ كان طفلاً إلا في تلك
اللحظة . ألا ما أشد الشبه بينه وبين أبيه ذى يزن ؟ أو هو الشبه
بينه وبين أبيها ذى جدن ؟ وأطرقت تفكر فيما تقوله له كما كانت
تطرق كلما رآته يدخل عندها .

وخيل إليها أنه كان في مظهره ومشيته غير ولدها الذي اعتادت
أن تراه مقبلاً عليها ، كأنها كانت غافلة عن مسامرة نموه حتى طلع
عليها فجأة وهو رجل . أهكذا تبدل بين عشية وضحاها أو هي
التي كانت تنظر إليه ولا تراه ؟ ولم يفهما أن ترى كذلك ما على
وجهه من آثار تنطق بأنه يخفى في قلبه أشياء تقلقه وتحركه ولا يستطيع
أن يطلق بها لسانه . كانت عيناه تضطربان ولا تستقر نظراتهما ،
وقد أحاطت بهما دائرتان بين السواد والزرقة وكان وجهه ذابلاً
فيه خطوط تشبه تجاعيد الكبر ، وتتوسط خديه بقعتان ورديتان
تشتعلان ثم تنطفئان . وهجم عليها ذلك الشعور القوي الذي تحسه
الأم عند ما ترى ابنها مشرفاً على خطر ، وامتلاً قلبها لوماً لنفسها
وإشفاقاً على ذلك الابن الذي لم يكن له في الحياة سند غيرها منذ

طفولته الأولى لقد تركته الأقدار طفلاً وليداً بين ذراعيها ، ثم ألفت به بين أعداء أبيه يمدون إليه أيديهم بالرحمة وهم يشعرون في قرارة نفوسهم أنه ليس منهم . ولم يكن ذلك الشعور جديداً عندها بل كان يهجم عليها في كل مرة يقع بصرها عليه ، وكانت كلما أحسته وجدت نفسها تضطرب وترتبك ويغمرها ضيق عجيب يطوى تحته أمواجاً من مشاعر مبهمة ، تشبه مشاعر الذى ينهم نفسه بجرمة لم يطلع عليها غيره . فكانت لا تكاد تطيق مجالسته إذا جاء يوماً ليجلس إليها ، ولا تقوى على مواجهته بعينها خوف أن تنم عن خلجات ضميرها . فإذا انصرف تنفست نفس المكروب يؤذن كربه أن ينكشف عنه . وقد ازداد بها ذلك الشعور فى الأشهر الأخيرة لأنها كانت كلما لقته أحست فى غموض أنه يريد أن يقول شيئاً ثم يرد نفسه عنه قسراً . فما ذلك الشئ الذى يريد أن يقوله ؟

وسمعت من أعماقها صوتاً يصيح بها : « خذى ولدك المسكين بين ذراعيك وبللى عنقه بالدموع وأفصحى له عن الحقيقة التى أخفيها عنه هذه السنين الطويلة . إنك تدعينه ابن أبرهة ، وتأمرين الجميع أن يدعوه بذلك الاسم ، وستكون صدمته عنيفة إذا تكشفته له الحقيقة يوماً » . وكادت تطيع ذلك الصوت وتجر له بالحقيقة السافرة . وأى عار عليها أن تكون قد أخفت عنه قصة مولده وهو طفل لا يطيق أن يتحمل وقع المأساة ولا يدرك معنى الحياة ؟ بل أى عار عليها

أن تتخذ أبرهة زوجاً بعد أن خرج أبوه من الأرض وتركها وحدها لا حامى لها ؟ ولكنها لم تقو على أن تخطو تلك الخطوة بل ارتدت عنها فى شىء يشبه الذعر . ألم تكن تستطيع أن تهلك نفسها قبل أن تصير زوجاً لغير صاحبها ؟ أكان أبرهة يجرؤ على أن يتخذها زوجة بغير أن يجد منها ما ينم عن الرضا ؟ أقاتل لأبرهة عند ما لقيته : « أيها الرجل اقتلى إذا شئت أو أطلق سراحى ؟ »

ورفعت رأسها بعد لحظات كأنها ساعات طويلة ونظرت إلى ولدها ورأت ما عليه من أمارات القلق والتعب ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى إطراقها فى اضطراب وارتباك كأنها تتوارى .

ولاحظ سيف ما بدا على وجه أمه من ظلال الحيرة ونظر إليها نظرة إشفاق مترددة . وهم أن ينطق بكلمات يسألها عما بها ، ولكنه أمسك . فكيف يسألها عما بها فى اليوم الذى يسير فيه أبوه إلى القتال ؟

وفطن إلى الفكرة التى خامرته وقال فى نفسه : أقول إنه أبى فيما بينى وبين نفسى ؟ فلم جئت إذن ؟

ومرت دقائق أخرى وهو لا يدرى أينذهب عنها معتذراً بعذر مصنوع كما فعل من قبل مراراً ، ثم يذهب إلى مخدعه ليناجى وساوسه حانقاً على نفسه كما فعل فى كل هذه الأشهر التى مضت عليه منذ أواخر الربيع ، أم يجمع نفسه ويقذف الكلمة التى يريد أن يقولها ؟

وذهب إلى جانب الشرفة يحول ببصره فى البساتين والربى وفى جبلى

نقم وعيبان ، ووجد في اللحظات التي وقفها هناك متنفساً يستجمع فيه جنانه وأفكاره الشاردة . ولعل ريحانة كذلك قد وجدت في تلك اللحظات متنفساً تماسك فيه وتحاول أن تجمع قوتها لمقابلته . وعاد سيف إليها قائلاً :

— معذرة يا أماه أن أكون قد جئت إليك في هذه الساعة التي ... وتردد لا يدرى كيف يتم كلمته فقالت ريحانة مع ابتسامة ضئيلة :

— اجلس هنا يا سيف . اجلس إلى جنبي فأني في وحشة ، وأشعرنى بقربك مني

وبعثت كلماتها فيه هزة . أمه ريحانه في حاجة إلى أن يجلس قريباً منها ليشعرها بوجوده ؟ إذن فهذا هو إلى جنبها . وقال في عطف وحماية

— هأنذا في جنبك أيتها الأم النبيلة . لا غرو أنك تحسبن الوحشة في مثل هذا اليوم .

وكان صوته العميق يفيض رحمة . وأنست ريحانه إلى صوته وانقشع عنها كثير من وجومها . وقالت في هدوء :

— أين كنت يا سيف ؟ لم تكن في موكب الأمس ولا في وداع أبيك اليوم .

وما كادت تنطق بكلمتها حتى عاد إليها جفوها وندمت عليها . أتعيد الكذبة في مثل هذا الهدوء ؟ أتسأله عن وداع أبيه ؟ وفتحت

عينها وأذنيها تنتظر الجواب في لهفة .

وقال سيف في هدوء كذلك :

— أبى ؟ أسألك العفو يا أماء ، فقد خرجت منذ يومين إلى

وادی زهر .

وغمرها شعور بالنجاة لأنها لم تتوقع جوابه ، وقالت كأنها في حلم :

— وادی زهر ؟

وأرادت أن تبعد عن موطن الخطر ، فصرفت الحديث إلى ذلك

الوادی قائلة

— كانت ليالى قمراء .

فقال سيف : كان القمر في أزهى مطالعه حقاً . لم أر الوادی

في مثل منظره تحت أشعته الرفيقة ، وكان يسبح بين السحب البيضاء

كأنه ملاك يبحث في الآفاق عن الأشقياء ليعث إليهم رحمته

كان يرسل أنواره إلى أركان الشطوط كأنه يبحث فيها عن وحيد يؤانسه

أو حزين يؤاسيه .

وأحست الأم أنه يعود إلى الوطن الذى تهرب منه . وقالت في

نفسها

— « مسكين ولدى ! إنه يهيم في الخيال كما أهيم . أهى جنابة

أخرى جنيتها عليه إذ أورثته لعنتى ؟ »

ثم قالت له عاطفة أكنت وحدك ؟

فقال في صوت خافت ومن يكون رفيقى ؟

وكان في نغمته شيء زادها قلقاً .

فقالت وهي تتكلف المرح

— ما أبدع وادى زهر في الليالي القمرء ! لقد طالما خرجت

إليه في صباى في مثل هذه الليالي وكان البدر كما وصفت ينحلق على جمال الوادى ما يشبه أن يكون سحراً .

ومضى سيف قائلاً في حماسة :

— كانت السحب تحيط بالربى الحاملة كأنها إطار من فضة حول

نقش بارع . وكانت الأشجار تقطع صفحة السماء بين باسق منها

وقصير في منظر يقصر اللفظ عن وصفه . . كان السلام يلف الأرض

الصامتة ، وكأن صوتاً عذباً من أنغام السماء يتردد في طباق الجو قائلاً

للناس إن الجمال أسمى من المجد وأغنى من الغنى وأخلد من الحياة .

وتبسمت ريحانة مرتاحة فهذا خير من الحديث عن حرب

قريش وعن جيوش أبرهة وعن التفكير في الأمس والغد . وعجبت أن

تسمع من سيف مثل هذا القول الذى يشبه قول الشعراء . ولم يكن

عجباً منه أن يحس الشعر فقد كان جده ذو جدن شاعر اليمن الذى

بكى عزها الدليل . وقالت :

— إذن قضيت ليالىك ساهداً .

فضحك سيف وقال :

— سوف ننام طويلاً .

ووثب قلبها وثبة شديدة . ماذا يقول سيف ؟

وقالت وهي تنظر إلى الدائرتين المظلمتين حول عينيه :

— لقد أجهدت نفسك يا ولدى . ألا تصيب بعض الراحة في مضجعك ؟

فأغضى سيف وقال في شيء من الارتباك أو السخرية :

— مضجعي ؟

فقالت ريحانة :

— ماذا بك يا سيف ؟

وما كادت تنطق بكلماتها حتى انكمشت .

فقال هادئاً :

— عفوك يا أماه فإنني لا أحس رغبة في نوم . دعيني ساعة إلى

جنبك فهذا أحب إلى .

وأحست ريحانة إحساساً غامضاً بأنها حيال عاصفة توشك أن

تهب ، وقالت في دفعة لم تفكر فيها

أرى كأنك تخفى عني أشجاناً في نفسك .

ثم انكمشت مرة أخرى وندمت على كلماتها .

وقال سيف :

— معذرة يا أمي إذ أجيء إليك في مثل هذه الساعة التي تحتاجين

فيها إلى السلام والمؤانسة فأزعجك أو أثير أشجانك .

فقالت والألفاظ تنفلت منها انفلاتاً :

— كنت منذ حين أراك على غير عهدي بك . كنت أراك قلقاً حزيناً

وأرى على وجهك حديثاً تطويه عني . ولست أحب أن أتدسس إلى
أسرارك فإني أعرف الشباب وما يبعثه في القلوب من شجون .
وتمنت لو أتاحت لها الكلمة الأخيرة منقذاً من موقفها .
فقال سيف : ليس بي شيء مما تظنين يا أماء .
فقلت باسمه : أعرف أن للشباب أسراراً يؤثر أن يخفيها لكي
يناجيها وحده .

وعلقت بصرها في وجهه تتمنى أن ترى عليه حمرة . ولكنها رآته
هادئاً يذكرها بوجه أبي مرة وهو خارج إلى المعركة .
وأجاب : إني أعلم ما في نفسك اليوم من وحشة وقلق ، وما كان
أجدرك أن أجنبك فيه حديثي . ولكني أتيت إليك بعد أن سألت
خيلاء .

« إذا فهي خيلاء ! »

وقالت ريحانة وهي تحس النجاة .

— خيلاء ! أسألتها ؟

فقال سيف مبادراً : نعم وأنا آت من عندها في هذه الساعة .
وهي التي أشارت عليّ أن أفضي إليك بكل ما في نفسي . إن إيمانها
بك يشبه إيمانها بالعدراء .

« أكان يسألها عني ؟ ألم يحدثها هي ؟ ليت يطمئن إلى سلامتها

ووداعها ؟ »

هكذا قالت في نفسها ، ثم قالت تتمسك بأمنية واهية :

— أكنت تنتظر مشورة خيلاء لكى تفضى إلى بما فى نفسك
يا سيف ؟ قل ما عندك تجده ينطلق إلى قلبى قبل سمعى . لا تخف عني
نبضات فؤادك .

فقال سيف :

— كنت منذ أشهر أترقب مثل هذه اللحظة ، ولكنى لم أجرو ، وهى
التي شجعتنى على أن أفضى إليك بوساوسى .
فقال ربحانة فى نفسها : « وساوسه ؟ » واستعدت تستقبل العاصفة
التي أحست ألا مفر منها .

ومد سيف يده إلى يد أمه فأمسك بها ومضى قائلاً :

— لم أجرو أن أحرك لسانى بألفاظ لا تؤدى حقيقة ما فى ضميرى .
وكثيراً ما خلوت فى مخدعى أو فى ركن من الأركان البعيدة فأعيد على
سمعى ما أود أن أنطق به فكنت فى كل مرة أجد الألفاظ ناشزة لا تعبر
عن مقصدى . ولهذا كنت أتحاشى أن أزورك ما استطعت ، ثم إذا
غلبنى شوقى إليك لم أشأ أن أطيل زيارتى .

فقال ربحانة فى صوت خافت

— رأيت ذلك يا سيف ، وكنت مثلك أود أن أتحدث ثم لا أجرو .
وما كادت تقول كلمتها حتى كادت تصيح قائلة : « لا . لا . » .
وبادر سيف قائلاً : عفوك يا أماه إذا سمعت منى ما يشبه أن
يكون شكاً . فما هو سوى وسواس أحب أن أكشف السر عنه لأطرده من
قلبي . أكاد أخجل من نفسى وأنا أسألك عن حقيقتى أيتها الأم النبيلة .

وكان قلب ربحانة يخفق في حنق ولكنها تعلقت بأمنية واهية أخرى .
ألا يقول سيف إنه وسواس .

وقالت في مرح متكلف :

— حقيقتك ؟ أنت سيف بغير شك .

فقال : نشدتك بحبي ألا تغلق قلبي ، وقد جاهدت أن أفتحه .
مريني أن أمسك لساني وأن أرد وساوسى إلى أعماق ضميرى ولن تسمعى
منى حديثاً في هذا أبداً .

وسرى حر في جسم ربحانة وندى جسمها . إنها حيال ابن أبى مرة :
وامتزج في نفسها الإعجاب والضيق معاً عند ما قالت :

— عفوك يا ولدى ، فما أردت إلا فكاهة . كن أكثر بياناً فإني
لا أفهم . وخيل إليها أن الموقف أعنف من شجاعتها ، وكادت تقول له : « بل
استمع أنت يا سيف ولا تقل شيئاً » ، ثم تجهر له بالحقيقة بغير مداورة .
بل لقد خيل إليها أنها حيال أبى مرة نفسه وقد عاد إليها يحاسبها
على التحلل من عهده . أتجثو عند قدميه وتكشف عن نفسها صريحة
ذليلة تسأله المغفرة ؟

وقال سيف وهو أشد منها ارتباكاً .

— بل اغفرى لى أنت جرأتى فإن لساني يخذلنى كيف أضع
لك سؤالى ؟ هل أنا ابن أبرهة ؟

وكأنه وهو يقول هذه الكلمة الأخيرة رجل مستبشس يرمى سهماً إلى
صدر عزيز وهو يغمض عينيه حتى لا يراه يقع حيث رماه .

ولم تملك ريحانة صيحة انفلتت منها ثم تهالكت في مقعدها
فقام سيف في لهفة وأمسك بيديها قائلاً :

— أيتها الأم النبيلة عفواً . لا تظني بي الظنون فأني ما تزعزعت
عن يقيني لحظة . كان خيراً لدى لو كان شكى في انتسابي إليك أنت
ولكن لم تطعني طبعي كيف آتى إليك أسعى بنفسني يائساً سائلاً
« دلي أنا ابنك حقاً؟ » حين روي تصيح بي ودمائي تنداعى بالحق أنك أُمي .
غير أني لو كان هذا سؤالاً كان عندي أخف وقعاً وقسوة . بل لعل أراه
أشبه شيء باعتراف مني بحسن صنيعك . أنت أولى بالنبيل لو لم تكوني لي
أماً بما وهبت لي من حنان . فوق قدر الوفاء والشكران . ليت قلبي
يشك فيك فآتي شاكراً ما لقيت من إحسانك .

وسكت سيف لحظة ونظر إلى وجهها الحزين وهي مطرقة صامته .
ثم استأنف قائلاً في رقة :

— لا تضيتي بما أقول يا أماه . نعم فإني أحتمل كل شقاء في
الحياة ، بل إنني أحتمل الموت أو العار نفسه حتى لا أحرم من بنوتك
أيتها الحبيبة . ومع ذلك فإني أجد ألفاظ سؤالى تصدع سمعي كأنها قعقة
الصواعق ، وتجعلني أتجرع ما أتجرع وأنا أسألك عن أني . فرفقاً أيتها الأم
لا تحزني واحتملي قسوة سؤالى ، فإن الألفاظ عاجزة عن أن تذهب ببشاعته .
وتهالكت الأم حنائها بشيء من القسر وقالت :

— ماذا يدفعك إلى أن تستسلم إلى هذا الذي تسميه وسواساً ؟ وماذا
أدخله في نفسك ؟ وماذا حملك على الشك في أبوة أبرهة ؟ ألم تجده أباً باراً ؟

فأجاب سيف : بل عرفته يقربني ويكرمني ويفيض عليّ من رحمته
 ما لا يدع لي شكوى . ولكني لم أحس منذ عقلت أنه أبى . كنت
 منذ طفولتي أشعر بشيء يقف حائلاً بينه وبينى كنت أدخل عليه
 فأناديه « يا أبى » ثم أحس قلبي يخونني وأجد برداً يتمشى في مفاصلي .
 وأنظر إلى وجهه متأملاً فأراه يبتسم لي مرحباً مداعباً ومع ذلك فإنى كنت
 أحس أنه يضحك منى . فأبادر خارجاً أتسلل والحجل يبلى جسمى .
 وصمت حيناً وكانت ريحانة مطرقة تحاول أن تهدئ من ضربات
 قلبها . ومضى سيف قائلاً :

— قولى كلمة واحدة تكفينى . قولى ولو إشارة فإن صمتك يشعرنى
 بأنى ارتكبت جرماً .

وأوشكت ريحانة أن تجهر بالحقيقة ، ولكنها نكصت تتعلق بأمل
 ضعيف أن تؤجل الصدمة حتى تبصر فيما تقول ، فإنها كانت تحس
 أنها لا تقوى عليها فى تلك اللحظة .

ومضى سيف قائلاً : وهذه الأحلام يا أماء ، أليست توحى بالحقيقة ؟
 وإلا فما هذه الرؤى التى تعتادنى وما هذه الأشباح التى تسألنى عن أبى ؟
 وقالت وهى تكاد تغص بريقها :

— أهذا هو كل ما تشقى به نفسك يا ولدى ؟ أوهام طفولة عابرة ،
 أحلام وأشباح لا تزيد على أخيلة . أما كان جديراً بك أن تكشف من
 قبل عن هذه الهواجس أو أن تلقاها وجهاً لوجه وقد كبرت وصرت رجلاً ؟
 إنما هى أرواح خبيثة أعرف أنها تدخل على الطفولة أوهاماً ومخاوف ،

وكنت دائماً حريصة على أن أقرأ عليك الرقى حتى لا تجد إليك سبيلاً .
فابحث في أعماقك ثم حدثني كيف تساورك ومتى تعتريك اليوم . فإنه
لا يجدر بك الآن أن تقيم وزناً لمخاوف الطفولة الجوفاء .

فقال سيف في حزن : ولكنها تتعلق بي برغمي ، وما تزال تطاردني .
فقالت ريحانة وهي أملك لنفسها :

— ما هي يا ولدي ؟ ما تلك التي تتعلق بك ؟

فقال سيف أشباح غامضة تتحرك في غبش الظلام وتنطق في
جلجلة خرساء فأهب من نومي وأنا أسأل : « أنا ابن أبرهة ؟ »
ثم حدثها عن أحلامه التي كانت تعاوده على فترات .

فقالت ريحانة :

— أضغاث أحلام يا سيف . أضغاث أحلام . أمن أجل هذا تفسد
على نفسك السعادة ؟ أتعطي زمامك للخيال لا يزيد على أن يكون نفثة
شيطان يحقد عليك ؟ سوف أذبح للعدراء قرباناً وأجعل خيلاء تصلى لها من
أجلك حتى لا تعود الأشباح إليك . واملاً قلبك يا ولدي بمباهج الشباب .
ولا تعذب نفسك يا ولدي بهذه الأوهام التي تضرب فيها وتتطلع إليها . لقد
صرفتك عن الحياة حتى ألقتها وجعلتها عالماً ، وأسلمت نفسك للخيال
يشرد بك حتى إذا عدت إلى الحقائق وجدتها تصدمك وتهزمك وتجرفك .
اعرف هذا يا ولدي لأنني عرفت في نفسي ، ولعله ميراث مني . فحاول
أن تتخلص منه وتعيش مع نفسك ومع الناس . أنت في زهرة العمر التي
لا تفتح إلا مرة في ساعة قصيرة ، فاخرج مع لداتك كما كنت

تفعل . أما تذهب إلى منازة الأودية النضيرة مع صبحك وخدمك ؟ وخيلاء .
 أين أنت منها ؟ وهذه الدروس التي كنت تحضر فيها إلى ابن عمي أبي عاصم
 لم هجرتها ؟ أين ذهب أبو عاصم ؟ لقد بلغني أنه غضب وذهب إلى داره
 في حقل صنعاء ، أفلا تذهب إليه تسأله باسمي أن يعود إلى غمدان ؟
 وقامت في دفعة وأخذت بكتفي سيف قائلة :

— دع هذه الوسوس واذهب الآن إلى مخدعك حتى تنال حاجتك
 من الراحة . قم إلى مخدعك معي فأغني لك كما كنت أفعل وأنت طفل ،
 أتضحك يا سيف ؟ إنك ما تزال عندى صغيراً وهكذا تبقى حتى تصير
 شيخاً . نعم هذا أطيب لنفسى فقبلني كما كنت تفعل كل ليلة إذا
 ذهبت إلى سريرك . هلم فاستشعر الأمان إلى جنبي .

وجذبه فسار معها حتى ذهبت به إلى حجرته واستطاع بعد قليل أن
 يغمض عينيه على أغنيتها وهي تمسح بكفيها على شعره الصقيل . وتبسمت
 في حزن عند ما نظرت إلى وجهه الهادي في نومه كما كانت تبسم كلما
 رآته ينام وهو طفل ، وسألت نفسها كما كانت تسألها : « ماذا يكون غداً ؟ »
 ثم عادت إلى مخدعها تجرر قدميها ، وهجمت عليها ذكرياتها تتدسس
 في تلايف سرها وكان رثاؤها لنفسها يصاحب رحمتها لولدها . كلاهما
 يعيش في الخيال ويصطدم بالحقائق . كلاهما يهيم مع الصور ويفزع من
 الواقع . أية لعنة أورثت ولدها ! وأسفت أشد الأسف على أن ابن عمها
 الشيخ غادر القصر ، فهو وحده الذي يحب ولدها ويستطيع أن يعيد إليه
 الطمأنينة . ولكن أيرضى أن يعود ؟ أيرضى وهذه الذئاب تتربص به في

بلاط غمدان ؟ وعزمت على أن تتوسل إليه ليرضى فإنه البقية الضئيلة من أهلها لعل ولدها يجد في قربه أنساً وفي حكمته هادياً .

٦

قال الراوى :

كل شيء في الحياة يتغير ، وهذا أمر لا شك فيه ولا موضع فيه للتأمل ، ولكن الذى يدعو إلى العجب هو أن الإنسان يتغير بين صباح ومساء أو بين ساعة وساعة في نظرته إلى الأمور وفي تقديره لنفسه ولما يحيط به . فقد يرى الدنيا معتمة في ساعة ثم يراها متألثة في أخرى . وقد يضيق بأمر في موقف ثم يكاد يسخر من ضيقه في موقف آخر . وقد يكون ذلك التغير نتيجة لسبب تافه مثل كلمة أو حادث صغير ، كما قد يكون لسبب غامض خفى لا يستطيع أن يتبينه . تعجب سيف من نفسه عند ما رأى الأمور تبدل في نظره بعد أن استيقظ في عصر اليوم الذى لقي أمه في صباحه . كان عند ما هب من نومه شخصاً آخر غير الذى كان في الصباح . واستعاد حديثه مع أمه وجعل يردد أقوالها حرفاً حرفاً ويتمثل حركاتها حركة حركة وخيل إليه أنه إنما كان يلتمس أسباب الشقاء لنفسه بالاسترسال في أوهامه والخضوع لوساوس أحلامه . وكاد يضحك من الحماسة التى جعلته يترجح في هبات تطوح به كما شاءت بغير أن يتحكم

فى نفسه بعقله كما ينبغي لمثله بعد أن شب عن طوق الطفولة . ألم تكن أمه صادقة إذ قالت له إن أوهامه لم تكن إلا مخاوف الطفولة ؟ بل لعلها لم تكن سوى أثر من المتاعب التى أجهد فيها جسمه فى تلك الشهور الأخيرة بغير حكمة . فما الذى كان يريد من وراء كل تلك الحماقات ؟ أكان يجب أن يسمع أن أبرهة لم يكن أباه ؟

وكانت الشمس الغاربة تطل على الحجرة من وراء صفائحها المرمرية الشفافة وتشع بنور رفيق يخلع بهاء على الأثاث الثمين الذى كانت ريحانة تعنى بترتيبه وتنسيقه بنفسها ، كما كان يزيد فى بهجة الأزهار الزاهية التى كانت تبسم فى آنيها الفضية الأنيقة .

ومد يده إلى زنبقة بيضاء مفتوحة وخيل إليه أنه يمد يده إلى خيلاء يحبها شاكراً ، فهى التى أشارت عليه بأن يذهب إلى أمه ويكشف لها عن وساوسه حتى لا تبقى فى ظلمة سره وتنمو ولا تدع له سلاماً . وتذكر يوم مد يده بمثل تلك الزنبقة إلى خيلاء يحبها بها بعد غيبة ، فرشقها فى شعرها الغزير فكانت مثل غصن مزدهر . ماذا يقول لها إذا لقيها فإنه سيلقاها بعد قليل فى خيمة من خمائل البستان أو فى ردهة من ردهات القصر ، فإذا لم يجدها فإنه ذاهب إليها ليقص عليها ما سمع من أمه . وقد كان يجد فى نفسه حديثاً طويلاً آخر لا يدرى ما هو ولكنه يعرف أنه يتدفق فى أعماقه . فكيف استطاع أن يمتنع عن لقاء خيلاء عمداً كل تلك الأسابيع الطويلة فكان لا يكاد يراها إلا فى لحظات مثل لمح البصر ثم ينصرف عنها كأنه يهرب منها ؟ أى شيطان ذلك الذى وسوس له ليحرمه من جنته ويقذف

به إلى الشقاء الذى عذبه كل تلك المدة ؟

وعاد إلى حديث أمه يردده حرفاً حرفاً ويتمثل حركاتها حركة حركة ، وكاد قلبه يغوص فى جوفه عند ما لم يجد فى كل ما قالته له ما يدل على شيء قاطع . لم تقل له فى صراحة : « مالك تقول هذا القول يا سيف ؟ فإنك بلا شك ابن أبرهة » ، بل أخذت تسأله عن أسباب شكه وعن مبعث أوهامه ، ثم ذهبت به آخر الأمر إلى مخدعه فهددت أشجانه بأغنيها الحلوة حتى نام .

وذهب إلى النافذة وكانت أشعة الأصيل تتخلل ظلال البستان رفيقة هادئة لم تقع عينه على منظر أبعث على السلام منها . ورفت فى صدره نشوة من الشعور الغامض الذى يجعل الشباب يغنى بحب الحياة . فما الذى يحمله على تكدير صفائه باللجاجة فى شكوك لا تؤدى إلا إلى الشقاء ؟ إن الذين يجاهدون فى سبيل أمنية عزيزة يحملون أنفسهم العناء حيناً من الدهر لكى يفوزوا فيما بعد بجزائهم الجزيل من السعادة عند ما تتحقق أمنيته ، فما الذى يدعوهم إلى المجاهدة والمراجعة ومكابدة الأحزان مع أن الأمنية التى يتوق إليها ماثلة أمامه بغير مجاهدة ولا حاجة . وماذا يجديه من هذه الوسوس التى تطارده كأنما هى حريصة على أن تبرئه من أبرهة ؟ ولو كان أنفذ بصيرة وأكثر حكمة لكان يتبين من أول الأمر أن خيلاء هى أمنيته الكبرى التى يتطلع إليها ويتمنى أن يحققها . أهى فى مخدعها فى مثل هذه الساعة فلا تخرج إلى البستان لتتمتع بساعة الأصيل الحاملة ؟

وكانت خيلاء فى تلك الساعة فى البهو الأكبر الذى يلي جناح الملكة ،

وتنتهى إليه الردهة المؤدية إلى حجرتها . أقعد طالما جلست هناك فى انتظار درس الشيخ أبى عاصم فى تلك الأيام السعيدة الماضية قبل أن يطرأ على سيف ذلك التغير العجيب الذى اعتراه فى الأشهر الطويلة منذ الربيع المنصرم . وسارت حول البهو تقاب بصرها فى تحفه وتماثيله ونقوش أثاثه وستوره وهى شاردة لا تدرى ماذا تفعل هناك . كانت تعلم أن الشيخ انقطع عن دروسه منذ أيام وأنها لن تستقبله هناك كما كانت تفعل من قبل . فماذا كانت تبغى من بقائها هناك ؟ وتمثلت لها صورة سيف الذى رآته فى الصباح عند عودته من وادى ضهر ، وكان عند ذلك مضطرباً يلوح عليه الحزن على رغم ابتسامته الضئيلة . وتذكرت ما قاله وما أشارت به عليه من الذهاب إلى أمه الملكة ليفضى إليها بأحزانه .

أفما كان ينبغى له أن يعود إليها ليقص عليها ما قالت له الملكة ؟ أليكون قد خرج من عند أمه عائداً إلى وادى ضهر ليستأنف لياليه المسهدة ؟ لم تعرف منه سوى أنه فريسة لشكوك مضمينة لا تدع له سلاماً فى ليل ولا فى نهار ، وأنه لا يستطيع الإفضاء بشيء من تلك الشكوك إلى أحد إلا إلى أمه فهى وحدها التى تستطيع أن تلقى الضوء عليها . وكان فى نفسها شيء من العتب لأنه لم يفض إليها بشيء من تلك الشكوك لعلها تشاركه برأيها أو تسرى عنه بمواساتها ، وهكذا لا يعود إليها بعد أن ذهب إلى أمه وأودعها أسرار حزنه ؟ ولم يخل قلبها من الغيرة لأنه لم يظهر لها من الثقة ما كانت تتوقعه منه . ألا يستطيع الإفضاء بما فى نفسه إلا إلى أمه وحدها ؟ وكانت ترهف سمعها لعلها

تسمع وقع خطواته فوق الطنافس الوثيرة ، ولكن ساعة طويلة مضت ولم يحضر بعد ، فلعله ذهب يستريح فإن عينيه كانتا تنطقان بالإعياء . أو لعله ذهب إلى الشيخ أبي عاصم قبل أن يفكر في العودة إليها . ومن هي حتى يسرع إلى لقاءها عقب لقائه لأمه ؟ بل لعله كان لا يعبأ بلقائها لو لم يتفق لها أن تكون في البستان منذ الساعة الأولى من الصباح في الممشى المؤدى إلى جناح الملكة . ومع ذلك فقد بقيت ترهف سمعها لسماع وقع خطواته والأمل ما يزال يساورها أنه سيبحث عنها حتى يلقاها . لا شك في أنه لن يبطئ الليلة في السعي إليها . وأخذت تدبر في نفسها أحاديث كثيرة فيها عتب وفيها عطف وفيها رحمة ومواساة . كانت تردد في سرها ألفاظاً تختارها وعبارات تتأمل جرسها وتقدر وقعها حتى إذا لقيته وحدثته لم يخنها لسانها بكلمة ثم عن شيء من خواطرها . بل إنها كانت في عباراتها تحرص على أن تخفي قلقها ولهفتها على لقائه ، وتظهر له أنها ما وقفت هناك في ذلك البهو إلا عفواً وجرياً على عادة تقودها إلى هناك بغير إرادة . وتذكرت آخر مرة لقيته فيها بذلك البهو وكان ذلك في أواخر الصيف . كان عند ذلك شارداً صامتاً لا يكاد يهتز إلى شيء من قولها . وتذكرت كيف كانت نظراته خابية وانية وكيف كان لا يرفع بصره إليها ولا يكاد يلتقي نظرتها حتى يحول عينيه سريعاً في شيء يشبه الجفول . فما السر في تلك الجفوة التي اعترته ؟ أهى الشكوك التي أدخلت إليه كل هذا التبدل أم هو الذي انصرف عن مودته الأولى ؟ وما تلك الحمرة التي كانت تصبغ وجهه ثم لا تلبث

أن تنطوى وتخلف وراءها بقعة صغيرة وردية سقيمة ؟ أكان عند ذلك ينوى مفارقتها وقطيعتها التي مضى فيها سائر الصيف وصدرًا في الحريف ؟ وطال انتظارها منذ ذهبت إلى البهو في عصر اليوم حتى اقترب الليل ، وكادت تذهب إلى مخدعها يائسة فلا تفارقه ما دام سيف مقيمًا في غمدان حتى تجزيه على جفائه بمثله ، ولتبرهن له على أنها تستطيع مقابلة الصدود بالصدود والحمود بالحمود ، وأنها تقدر على أن تحتفظ بكرامتها ولكن ألا يكون قد غادر غمدان ؟ ألا يكون قد ذهب إلى حجرته فلا ييارحها سائر اليوم ويبقى إلى الليل في عزله ثم ييكر في الصباح خارجًا إلى بعض ما يخرج إليه ، فلا تراه بعد ذلك إلا اتفاقًا إذا لقيته مصادفة عند عوته ؟ وما يديرها أنه إذا لقيها بعد ذلك يوماً ألقى إليها تحية فاترة من بعيد ثم يمضى إلى حيث يريد فلا تصيب من وراء غضبتها إلا أقصى الآلام وأبشع الهوان .

على هذه الحال بقيت في البهو كأنها في رحلة مملة تقف عند كل صورة تتأملها حينًا ثم تنتقل إلى أخرى وأنفاسها المضطربة تسير دقات قلبها ، كلما سمعت صوتًا تحسبه حفيف ثيابه أو وقع أقدامه . وكيف تلقاه فاترة هادئة وهذه الحفقات تسرع بأنفاسها ولا تستطيع معها أن تتحدث إليه هادئة ؟ وعزمت على أن تلقاه إذا أقبل نحوها وهي عابسة كأنه لم يكن عندها شيئًا . ولكن ألا ينم ذلك العبوس عن مقدار اهتمامها أو يكشف عن لهفتها ؟ ألا يدل ذلك على أنها كانت تفكر فيه وأنها قد تعمدت أن تقف في البهو لتلقاه ؟ ولكن ما الذى يحملها على كل

هذا؟ وكانت قد بلغت في سيرها الركن الذي فيه الوعاء المرمى الوردى .
هناك كانا يجلسان جنباً إلى جنب على الأريكة المجاورة للوعاء ويعلقان
فيه بصرهما ويتحدثان في حماسة عن بهاء لونه وبراعة صناعته . وكان
سيف عند ذلك لا يخفى عنها نأمة من صدره ولا يطوى عنها شيئاً من
أفكاره . كان يتدفق في حديثه إليها مرحاً باسمًا سعيداً ويجعل الدنيا
تبتسم أمامها مرحة سعيدة . فما الذي غيره وجعله يتنكر لمودتها؟ ألا يكون
ما ذهبت إليه في قلقها من تهويل الخيال وهو برىء من كل ما ذهبت
إليه؟ ألا يكون في ضيق أو حزن أو يأس لسبب من الأسباب التي
تعرض لمن كان مثله؟ ليته لم يكن سيف بن أبرهة . ليته لم يكن سوى
شاب تستطيع أن تلقاه عاطفة وتقول له هأنذا إلى جنبك أقدر على
أن أخفف عنك وأن أواسيك بنفسى . وما الذي يمنعها أن تقف إلى
جنب سيف بن أبرهة فتخفف عنه همه وتواسيه بنفسها وعطفها؟ إن
الرحمة والمودة والمواساة من هبة الله للقلوب الإنسانية ولا ينبغي أن يقف
شيء في سبيلها . فخير لها أن تقبل عليه باسمه مرحبة وتفتح له قلبها
وتسأله عن نفسه وتعتب عليه لأنه لم يظهر لها الثقة التي كانت تنتظرها .
خير لها أن تدسس إلى أعماق سره ولا تجعل شيئاً من الأوهام يقف حائلاً
بينهما . ولكن كيف ينظر هو إليها؟ أليست في نظره فتاة وحيدة لا تعرف
عن نفسها شيئاً سوى أن ريحانة الكريمة تضمها إلى جناحها؟ ألا يكون
مثل يكسوم؟ ألا يكون كل ما ظهر منه نحوها نوعاً من إعجاب السيد
بجارية حسناء؟ ألا يكون قد أحس شيئاً جديداً بعد أن تخطى حدود

الصبا وأصبح كما تراه رجلاً ؟ إن تلك الشهور الأخيرة قد أضافت
عشر سنوات إلى سنه وسلبته تلك السداجة الطيبة التي كانت تجعله
زميلاً صديقاً . . . لم لا يكون . . .

ولم تقو خيلاء على المضي في ذلك التفكير المظلم ، فليس من الوفاء
لسيف أن تقرن صورته بصورة أخيه يكسوم القاسي الذي تنطق كل
جارحة فيه أنه فظ طاغية . . .

لم لا يكون . . .

وسمعت عند ذلك حفيف أقدام على بسط البهو فدق قلبها سريعاً ،
ولكنها لم تلتفت وبقيت حيث هي تنظر إلى الوعاء المرمرى ، وبدأت عند
ذلك حقاً تلتفت إلى لون الوعاء ونقوشه البديعة التي تشبه الوشى فوق ثوب
الحرير . وكانت الصورة التي عليه تمثل جانباً من بستان فيه شجر
باسق يظل رقعة خضراء تتخللها شجيرات تتدلى أغصانها محملة بعناقيد
مرسلة من الزهر ، وكانت الطيور تبسط أجنحتها بعضها يسبح في الهواء
وبعضها يهبط نحو الأرض ، والقمر الكامل في أعلى الصورة يبعث أشعته
على شابين في وفاة يسيران في الممشى ، وقد تعاقدت يمناه بيسراها وهما
يسمان نحو القمر .

لقد طالما وقفت مع سيف يتحدثان في إعجاب عن الصورة
ونقشها قبل أن يأتي الشيخ أبو عاصم إلى الدرس .

واقتربت الخطأ خفيفة فحقق قلب خيلاء ثائراً ولكنها لم تلتفت ،
هي هي خطاه فهي تعرفها من بعيد . وسمعته يناديها باسمها في نغمة عجبت

لها ، هي نغمته التي تعودت أن تسمعها من أمد بعيد كلما أقبل نحوها في أصائل الربيع . ولم تدر هل التفتت إليه آخر الأمر أو بقيت جامدة في مكانها فإنها وجدته ممسكاً بيدها يتدفق في تحيته وعيناه معلقتان في عينيها مخلصتان كعهدها بهما صريحتان تشعان مرحاً ، وقال مبادراً :

— أنت هنا ؟ لقد بحثت عنك في كل مكان ، في البستان وفي جناح الملكة وفي حجرتك وأنت هنا تخفين نفسك عني وراء الآنية المرمرية ؟
فقلت في نغمة عتاب :

— كما أخفيت نفسك عني .

ونسيت كل العبارات المقدرة التي رددتها في نفسها من قبل حتى حفظتها ، كما نسيت شكوكها التي كانت تتدافع في صدرها منذ لحظات . وازدحمت المشاعر على لسانها تريد أن تتدفق ولكنها لم تنطق ، فبقيت صامته وقنعت بما نطقت به عيناها . ولكنه لم يقف ليقرأ ما على وجهها ولا يستمع إلى ما تنطق به عيناها بل أسرع غير متحفظ يقص عليها ما كان بينه وبين أمه منذ فارقها في الصباح ، نظر بعد أن قص عليها ما أراد إلى الوعاء المرمرى الذي كانت خيلاء واقفة عنده فقال لها :

— أتقفين وحدك عند الوعاء ؟ أليس هنا موقفنا معاً ؟ ماذا ترين فيه يا خيلاء ؟ حدثيني فإني أخذت الوقت كله لنفسى ، وأحب أن أروى سمعى من صوتك . ماذا ترين في هذا الوعاء ؟ كنت أسمع منك عنه أحاديث طلية ولكنك تعرفين أنى أعجز عن حفظ هذه الأقوال التي تحسنين صياغتها .

فقلت خيلاء باسمه :

— قطعة من المرمز الوردى الجميل .

فقال سيف : أهذا كل ما عندك ؟ إنك اليوم متحفظة ، كأنك تعرفين أننى أحب أن أتكلم . نعم قطعة من المرمز الوردى الجميل كانت يوماً فى جوف صخرة ، قد يتخذها حجار ليضعها فى جدار بيت ، أو تتخذها عجوز فقيرة لتصنع منها رحي أو تربط بها حبل عثرها . ولكن انظرى يا خيلاء كيف حولها صانعها إلى تحفة حية ، بل هى أكثر حياة من كثير من الأحياء .

هكذا هى تمثل أماننا دليلاً على ما يستطيع الإنسان أن يصنع من الحجارة . وهكذا هى تنطق قائلة : « أيها الأشقياء الذين تفسدون الحياة على أنفسكم بالغباوة والحماقة ، إنكم تستطيعون أن تصنعوا حياتكم بأيديكم . تستطيعون أن تجعلوا منها وعاء مرمرياً بديعاً بدلاً من تركها قطعة صماء من الحياة » .

وكانت خيلاء تستمع إليه فى نشوة ، وتعجب أن يكون هذا الذى يتكلم هو سيف الذى رآته فى الصباح . بل كأنها كانت تستمع إلى شخص آخر غير الشاب المرح الذى كان يجلس معها إلى الشيخ أبى عاصم ويكاد يضيق بما يفيض فيه الشيخ من المعانى . لم يسبق لها أن سمعت منه مثل هذا . لئن كان تبدل فما أسعد هذا التبدل . ومضى سيف يقول :

— كنت كلما وقفت هنا إلى جنبك يا خيلاء أحس شيئاً غامضاً

لم أكن أفهمه وإن كنت أحسه . انظري إليه يا خيلاء من بعيد .
وجذبها من يدها خطوة إلى الوراء وضغط على كتفها وهو يجذبها .
وأغضت خيلاء وعلت ابتسامتها حمرة .

وقال سيف :

— كأنها قصيدة . كأنها من تلك القصائد التي كان الشيخ يملئها
علينا مترنماً في إنشادها وأنا أدارى وجهي حتى لا أظهر ضحكي . لم
أكن أفهم من قوله شيئاً وكنت أعجب لك كيف كنت تستمعين
إليه في استغراق . كأنها قصيدة . ألا ترين ذلك يا خيلاء !

فقالت خيلاء باسمه :

— هي كذلك إذا شئت ، أو هي كما أسميها أنا فيما بيني وبين

نفسى . . .

فقال سيف مبادراً : ألهاعندك اسم؟ لقد حسبت أننى أول من قرأها .
وضحك معتذراً .

فقالت في صوت خافت :

— أسميها لحظة مسحورة . لحظة من اللحظات التي تمر بالأحياء
فتهزهم وتأخذ بمشاعرهم وتنقش على قلوبهم ثم يشبها الفنان على قطعة
جامدة من الحجر ، فإذا هي مثل هذه الصورة التي نسميها قصيدة
أو تحفة حية .

فقال سيف في حماسة وإعجاب :

— صدقت يا خيلاء وما أبرعها من تسمية حقاً إنها لحظة

مسحورة ، جعلها الفنان تتحدى الزمان والتغير والفناء ، وتبقى خالدة ثابتة وإن تبدل كل ما حولها . ذهب الفنان الرومي الذي صنعها ، وذهب هذان الشابان اللذان كانا يقفان يوماً في ظلال البستان المزدهر ، ودار القمر دورات لا يحصى عددها ، ولكن هذه الصورة بقيت خالدة على وعائها . البستان مزدهر أبداً والطير لا يهبط من سمائه والشابان يقفان باسمين ويشيران إلى البدر الذي لا يعتريه محاق . السعادة التي تغمرهما في مأمن من صروف الدهر . ذهب الجزء الفاني من هؤلاء جميعاً وبقيت الصورة تتضمن الجانب الخالد الذي لا يفنى . هما هناك شابان لا يعتريهما كبر ولا ضعف ولا يداخلهما حزن ولا هم . هو لا يتغير وهي لا تشك . هما هناك دائماً سعيدين يشيران إلى البدر ويتمتعان بالشباب . بل إن الغصون هناك دائمة النضرة تجري فيها مياه الحياة ، وذلك الطير لا يسف ولا تنقطع أغنيته .

وعلى فجأة منها رفع يدها إلى فمه فاخطف منها قبلة . وتمنعت خيلاء في رفق فأرسلها وقال في شيء يشبه الاعتذار :

— لو كنت فناً لخلدت موقفنا هذا .

فقالت باسمه :

— أيستحق عندك الخلود ؟

فقال سيف :

— وهل تشكين يا خيلاء ؟ لو كنت فناً لأبدعت صورة لا تكبر

فيها ولا نفرق ، نكون فيها مثل هذين . لحظة مسحورة حقاً . وأخذ يدها

فى شىء من القسر فرفعها مرة أخرى إلى لفه فلمسها بشفتيه . وسمعا من ورائهما صوتاً يقول فى رفق :
— لحظة مسحورة حقاً .

والتفتا إلى الوجه الباسم الذى طلع عليهما وقالت خيلاء فى صيحة مكبوتة :

— مولاتى !

فقال ريجانة فى مرح :

— أشركانى فى حديثكما ، فإنه يجلو قلبى . ماذا سمعت منك

يا سيف ؟ لحظة مسحورة ؟

فقال سيف : نعم لحظة مسحورة يا أماه .

وكان ينظر إليها باسمّاً هادئاً وهو واقف . ومضى قائلاً فى هدوء :

— كنا نتحدث عن هذا الوعاء المرمى . انظرى إليه يا أماه .

ولعت عينا الملكة فى رفق وقالت باسمّة :

— صورة طالما استرعت نظرى .

وقالت فى سرها :

— صورة قديمة تتجدد ، وحديث يعيد نفسه دائماً .

ووقفت تتأمل الصورة وهى لا تكاد تلتقط لفظاً مما كان يقوله ولدها

وهو يبين لها دقائق الصورة ويعيد عليها ما قاله لخيلاء .

وقالت فى سرها مرة أخرى :

— أهذه أول مرة يرفع سيف يد خيلاء إلى شفتيه ؟

ثم قالت لهما :

— ألا نقضى ساعة في البستان ؟ هلما فإن الليلة مقمرة .
 وقضوا ثلاثهم ساعة طويلة حتى سطع القمر وراء الظلال ولف
 الليل بأشعته الهامسة ، وكانوا يتناجون بحديث ذى شجون .
 ولما عادت خيلاء إلى وحدتها كانت تحس أن الهواء يتنفس عطراً
 وأن الحياة يغشاها جمال باهر وأن الفضاء يردد أنغاماً سعيدة . وبقيت
 صورة سيف مائلة أمام عينيها مع صورة الوعاء المرمى ، وكانت
 حرارة شفثيه ما تزال مطبوعة على أناملها . ورفعت يدها إلى شفثيه في
 رفق كأنها تريد أن تستوثق من تلك الحرارة الرفيعة . وتمنت لو كانت
 مع سيف صورة كصورة الوعاء المرمى لا تبلى ولا يدركها ما يدرك
 الأجساد من الفناء ، ولا يعترها ما يعترى قلوب البشر من تقلب أو هموم
 أو شكوك .

٧

قال الراوى :

انصرف الزائران اللذان كانا مع الشيخ أبى عاصم فى الصباح ،
 وبقي هو فى مجلسه مائلا بظهره على الوسادة التى وراءه ، شاخصاً ببصره
 فى الفضاء الذى وراء باب الحجرة الفسيحة ، وكانت ضبابية خفيفة

تنعقد في الجو تفضل فيها أشعة الشمس القليلة التي تنفذ إلى الباب ،
وتحجب عن النظر زرقة السماء . فكانت نظره لا تستقر عند غاية كما
كانت أفكاره لا تستقر عند غاية . وبدت له الحياة مثل الفراغ الأغبش
الذي لا معالم فيه ، عماء من فوقه هواء ومن تحته هباء ، لا تلوح فيه
بارقة تتطلع فيها العين إلى ما وراءها . ماذا كان بالأمس وماذا يكون
غداً ؟ تذكر الأمس فوجد فيه كوارث تنبعث منها كوارث مثل أمواج
البحر المضطرب كل منها يسوق ما أمامه ، وهي جميعاً تصدع الساحل
في عنف . ولو بقيت من بعد تلك الكوارث المتلاحقة بقية من الأمل
لكانت الحياة تبدو أقل جهامة ، لأن الأمل يبعث في الشقاء شيئاً
من الرفاهة . ولكن أين يلوح وميض ذلك الأمل الخائب ؟ لم يجده
الشيخ في نفسه فإنه كان في حياته وحيداً كأنه غصن اهتصر عن شجرته .
فلماذا حرص على البقاء ولم يلحق بأصحابه الذين كانوا إلى جنبه وسقطوا
في المعركة ووجدوا الراحة في النسيان ؟ ذهبوا جميعاً وخلفوه بين هؤلاء
الذين لا يعبأون إلا بأنفسهم وبما يعود عليهم من النفع في المال أو الجاه ،
ولا يغضبون إلا بمقدار ما يصيبون أو ما يصيبهم . وهل في مثل نفيل
ابن حبيب بقية من خير ؟ ذلك الذي كان يحدثه منذ ساعة قصيرة ويدعوه
إلى العودة معه إلى أودية الصحراء ليثيرا معا ثورة القبائل على أبرهة . أليس هو
الرجل الذي خان قومه من قبل عندما وقفوا لأبرهة منذ عشرين عاماً ؟
كان أبرهة عند ذلك يستميله بالوعود ويبعث إليه الهدايا ، ويلوح
له بالسيادة في قومه إذا هو تخلى عن المعركة . لم يتردد عند ذلك في

شيء وانقلب على أصحابه ففر من المعركة بلا خجل وأوقع الفشل في
 أصحابه ، ولم يكن ذلك كله إلا من أجل السيادة والمال ، ومن أجل
 الحقد الذي كان يضمه لمنافسه الشاب ذي يزن أبي مرة . وذلك الشيخ
 ذو نفر الذي جاء مع نفيل ليذكره بمجد حمير الزائل ويقول له بصوته
 المتهدج المرتعش لقد ذللنا . أذللنا لأن أبرهة ذاهب إلى قريش ليهدم
 كعبتهم ؟ ألا يغضب إلا لأن أبرهة يصلي في القليس ولا يعرف آلهة
 قريش ؟ ألا يعبأ بشيء سوى اللات والعزى ومناة ؟ أما ذلك الذل الذي
 استعبد فيه الأحرار وأهدرت فيه الكرامة ، والحرمان الذي يعيش فيه
 أهل المدن والقرى والبوادي لكي يوفروا للسادة السفلة ما يتنعمون فيه من
 ترف ، وذلك الظلم الذي ينجب الناس خبط عشواء ليمهد للطغاة أسباب
 السرقة ، أما هذا كله فلا يعبأ به ذو نفر . أين ذو جدن وأين ذو يزن
 وأين الآخرون الذين سقطوا وقواهم السيوف في أيديهم ، أو هاموا على
 وجوههم في الأرض ليستأنفوا الجهاد إذا ما سنحت الفرصة ؟ وتذكر
 صورة الشاب الفارس أبي مرة ذي يزن وهو يحارب إلى جنبه حتى أثختته
 الجراح ، وتمثل صورته وهو يتسلل في الظلام إلى ظهر فرسه ويناديه
 باسمه هامساً بصوته الضعيف قائلاً : « إذا كتبت لك الحياة فانظر
 إلى زوجتي وولدي » . إنها لبقية ضئيلة تلك التي بقيت بعد هؤلاء .
 أما هو ، فقيم امتدت به الأيام ؟ وتمنى الشيخ لو كانت الجراح التي
 أصابته في ذلك اليوم قد ذهبت به مع صديقه وابن عمه ذي جدن ،
 أو لو استطاع أن يقوم على قدميه مترنحاً من بين جثث القتلى كما فعل

ذو وزن، ثم يلتبس فرساً من بقايا المعركة فيتسلل في الظلام ضارباً في الأرض . ولكنه أفاق من غشيته فوجد نفسه في خيمة ووجه أبرهة الأسود يطل من فوقه . وتذكر إذ صاح به : « نح وجهك الكريه عني » ، ولكن أبرهة ضحك مقهقهاً وقال : « إنها فكاهة ظريفة » ثم التفت إلى أصحابه قائلاً : « اعنوا بجراحه » . ثم تذكر اليوم الذي رأى فيه أبرهة مرة أخرى بعد ذلك وكان أول ما قال له : « أما زلت تكره النظر إلى وجهي » ؟

وكانت لحظة ضعف غلب عليه حب الحياة فيها فقال له :

— « بل أنت أكرم الناس نفساً أيها الملك » .

فما باله يلوم الناس على خضوعهم لأبرهة وقد كان من أولهم خضوعاً . وأحس الشيخ أن الجحود يزداد ظلاماً . فقد مرت به هذه الأعوام العشرون وهو يحاول أن يصرف نفسه عن التفكير في الحياة منقطعاً إلى الكتاب . وسافر في أنحاء الأرض يلتبس ما يسميه الحكمة حتى أصبح الناس يقولون عنه حكيم اليمين وعالمها . فماذا أجدى عليه ذلك العلم أو تلك الحكمة ؟ هل رعى أبرهة علمه وحكمته ؟ هل رعى أذنب حاشيته أنه حكيم اليمين ؟ لم يكن عندهم إلا رجلاً تافهاً يتقرب إلى القصر بأن يكون معلماً للصبية ، ولو كان قد خرج ليفسد في الأرض أو يقطع الطريق ويسلب الناس أو لو رضى أن يتدلل لأبرهة ويأخذ أجره على ذلك بسيادة مزيفة يستطيع بها أن يعسف ويملاً خزائنه من ضرائب العسف ، لو أنه فعل ذلك لكان أكرم عند الناس وأسمى

قدراً . وها هي ذى الأيام تتقاضى حقها منه إلى آخر ذرة ، ولم يبق له إلا أن يشرب الكأس حتى ثمالتها . لم يبق له إلا أن ينتظر انقضاء آخر أيامه وحيداً محروماً معدماً .

وسمع الشيخ في وسط عاصفته كأن صوتاً يناديه باسمه ، ومن ذا الذى يأتى إليه في تلك الساعة في بيته المنزل المهدم ؟ أهو نفيل يعود إليه ؟ أيجرؤ ؟

وقام في شيء من الغضب إلى باب الحجرة فأطل من الطنف على البستان الأشعث ونظر من خلال أشجاره نحو الباب الواسع الحشبي الذى تراكت الرمال تحت عقبه ، وقال ::

— من أنت ؟

فخرج سيف من وراء الفروع المتسلقة التى كانت تتوكأ صاعدة على جانب الطنف وأعلن عن نفسه .

فصاح الشيخ مرحباً وكان صوته يعبر عن دهشته ، وتحرك ليهبط على الدرج المحطم وهو يقول :

— لقد تكلفت مشقة في سعيك إلى هنا .

فقال سيف وهو يسرع نحوه ماداً يديه :

— عفواً يا سيدى الجليل فإنه لا يشق علينا إلا أن نحرم منك .

وعاد الشيخ والفتى يسنده من ذراعه إلى ما يشبه البهو ، لولا أنه كان عارياً من كل أثاث إلا أريكة خشبية خشنة تعلو شبرين عن الأرض وعليها فروة شاة تغطيها ، ومن ورائها وسادة . فقال الشيخ إلى

الأريكة ليصلحها وأوماً بيده كأنه ينفض عنها غبارها قائلاً :
— لم تكن مثل هذه الأريكة بمجلس للأمير .

وتبسم سيف وهو يجلس قائلاً :

— كل ما في هذه الدار كريم يا سيدى الشيخ .

فتبسم الرجل ونظر إليه عاطفاً ، ثم التفت عنه ذاهباً إلى داخل الدار
فغاب لحظة . وجلس سيف على الأريكة وهو يدير بصره فى البهو ،
وداخله ما يشبه الحزن أو الرحمة . الشيخ يؤثر هذه الدار المهدامة على
غمدان ! وعاد الشيخ ووجهه مهلل وأعاد كلمته قائلاً :

— لقد جشمت نفسك مشقة يا سيدى .

فأجاب سيف : لو كان فى سبرى مشقة لكان جزائى مضاعفاً إذ
أراك سليماً معافى .

وقال الشيخ وهو يجلس :

— أعائد من وادى ضر ؟

وجاءت خادم تحمل طبقاً من الخوص فى أصناف من الفاكهة ،
ووضعتة على الأرض بين يدى سيف ، ثم خرجت تتعثر فى أذيال ثوبها
البالى . ومد سيف يده إلى الطبق وهو يقول :

— بل جئت من صنعاء . أهذه الفاكهة من بستانك ؟

فقال الرجل باسمياً :

— إذا شئت أن تسميه بستاناً .

وقال سيف وهو يذوق تفاحة :

— ما أشبه بستانك هذا ببعض أركان وادى زهر .

ونظر إلى إفريز الجدار من أعلى ، وكانت عليه زخرفة كبيرة الشبه
بزخرف قصر ذى جدن . وكانت الجدران مطلية بخص أبيض لامع
لم تبق منه إلا قطع قليلة ، وأما الأبواب والنوافذ فتحتفظ بأثر من
روعتها ، وبقية ألواح النوافذ المحطمة كانت من المرمر الذى اعتاد سادة
صنعاء أن يجعلوه فى نوافذهم وسقوفهم فلا يحجب لمعة الشمس وإن حجب
حرارتها .

وقال سيف ماضياً فى الحديث :

— لم أذق مثل هذه الفاكهة فى غمدان ، بل هى صنف لم أر مثله
من قبل .

فانبسط أسارىر الشيخ وقال فى بساطة : أعجبتك حقاً ؟ وأخذ
يمد يده إلى الطبق فيأخذ من أصنافه قطعاً يضعها أمام سيف وهو يتحدث
عنها وعن أشجارها ، كأنه يتحدث عن جمع من الأصدقاء لكل منهم
عنده قصة .

فهذا عنقود من العنب الملاحى نقلت أولى أعواده منذ ثلاثين عاماً
من وادى الحارد هدية من صديق كان شيخاً لحثعم . وأما العنب
الأشهب فقد نقل من وادى زهر من حدائق ذى جدن جد الأمير
نفسه .

وتبسم الشيخ قائلاً :

— كان جدك صديقاً كريماً يا سيف وما تزال شجرته كريمة عندى .

وأما شجر التفاح فإنه نقل من أعلى أودية السراة أهداه الملك ذو نواس ،
شكراً لي على خدمتي في القضاء على ثورة أهل نجران . ألا تذكر قصة
هذه الثورة ، ثورة أتباع المسيح على ذى نواس ؟

وكان سيف يستمع إليه في شغف كأن كل قطعة من الفاكهة
إنسان من بقية الماضي ، فلم يتنبه إلى سؤال الشيخ إلا بعد مضي لحظات ،
فقال في شيء من الارتباك :

— لا شك يا سيدى الشيخ أنى أذكر تلك القصة ولكنى لم أعرف
أنها وقعت في هذه السنين القريبة .

فقال الشيخ باسمًا :

— لم تكن في هذه السنين القريبة يا ولدى ، فإنها وقعت منذ خمسين
عامًا .

ومضى في حديثه متدفقاً في سرد الذكريات التى تثيرها فاكهة
البستان ، وكان يتحدث كما لو تحدث إلى نفسه . وكان سيف ينظر
حيناً إلى وجهه المجعد الذى خلعت عليه الحماسة شيئاً من الحمرة ، ثم إلى
جدران البهو المتداعية وإلى نوافذه المحطمة وإلى الفضاء الأغبر الذى
خلف بابه

ولما فرغ الشيخ من حديثه نظر إلى سيف عاطفاً كأن تلك
الصور القديمة قد أشاعت في نفسه أنساً بعد وحشة ، وتنفس نفساً عميقاً
وهو يقول :

— لقد نسيت نفسى فأطلت الحديث عن هذه الأشياء التافهة

التي لا تمثل لك شيئاً . إنها أزمان مضت يا سيدى الأمير ولم يبق منها هنا إلا شيخ محطم تراه مثل النخلة التي جف مأوها وذوى أعلاها ونخر أسفلها .

فقال سيف فى حماسة :

— بل هى أحاديث طلية وما أشد أسنى إذ حرمت من مثلها هذه المدة الطويلة ، ولعلها تتجدد يا سيدى الجليل .

فقال الشيخ هادئاً :

— وكيف حال سيدتى ؟

فقال سيف :

— هى فى وحشة من غيبتك .

فنظر إليه الشيخ متردداً وتحرك وجهه المجمع حركة خفيفة وقال سيف ماضياً فى الحديث :

— بل إن صنعاء كلها فى وحشة من غيبتك ، وما أكثر ما أسمع من سؤال أهلها عنك !

فقال الشيخ وبسمة ضئيلة تنطلق على وجهه :

— صنعاء فى وحشة من غيبتى ؟ ومن أنا فى صنعاء ؟ وهل أنا إلا

بقية من ماض بعيد لا محل له اليوم فى مكان ؟

ونظر سيف إليه صامتاً ومضى الشيخ قائلاً :

— إنه لمنظر حزين عندما يحف البستان وتيبس أشجاره وتتساقط

الأوراق الصفراء عنها فتذروها الرياح ولا تبقى منه سوى نخلة وحيدة

يضطرب سبغها في عنف أمام عاصفة هوجاء . ما أشد شقاء النخلة الوحيدة والرمال السافية الكالحة تغطي الأحواض التي حولها بعد أن كانت منابت لحمايل الزهر .

وصمت لحظة ثم قال :

— عفواً يا سيف فإني أكاد أعجب من نفسي إذ أقول لك هذا ، فكأنني نسيت أنك أمامي . إنما هو مثل أضربه وما أكثر الخطأ الذي تطويه الأمثال في زخارفها !
فقال سيف :

— ولكن النخلة الوحيدة لا تبخل بظلها أبداً . هأنذا أمضي مع المثل وما أحسبه إلا صادقاً .
فقال الشيخ باسمًا :

— ومن ذا يعبأ بظل نخلة ذاوية ؟ إنه لا يغني شيئاً إذا اشتد الحر في الظهيرة ، ولا يقدم للناس عذراً بثمرة ترجى منه . ما أنا إلا رجل تخلف عن عالمه خطأ . ذهب لدائي الدين عرفتهم وعرفوني وزالت معالم الحياة التي أنست إليها ، فأنا لا أرى حولي إلا أغراباً أجهل عنهم كل شيء ويجهلون كل شيء عني .

فقال سيف :

— قد تجهلهم أنت يا سيدي ، ولكن من ذا يجهلك أنت ؟

فقال الشيخ هادئاً :

— ومن أنا يا ولدي ؟

فقال سيف في ثبات :

— حكيم صنعاء بل حكيم اليمن . هذا ما يقوله الناس جميعاً .

فقال الشيخ :

— حكيم اليمن ؟ ما أطيب الناس إن قالوا هذا ! لست

أتواضع يا سيدى الأمير ولا أحب التواضع الكاذب الذى يستدر
الرحمة أو يختلس المجاملة . أود مخلصاً لو استطعت أن أتجرد من هذا
الفكر الذى أشعرنى الجذب والإفلاس ، فكلما تعمقت ضميرى
لم أجد فيه شيئاً يستحق أن أسميه فكراً . فإذا عثرت على شيء أظنه
يستحق أن أجهر به لم أجد جدوى فى أن أنطق به . ولمن أنطق ؟ لمن
أحدث ؟ ألقليدين الذين يستطيعون أن يستمعوا ومع ذلك فهم لا يريدون
إلا أن ينصرفوا إلى التافه السخيف ؟ أم إلى الأكثرين الجهلاء الذين
لا يجدون وسيلة إلى شيء غير ما يمسك الرمق ؟

فقال سيف : إذن تعيش لفكرك وحكمتك ، وحسبك أن تكون

مورداً لنفس بشرية واحدة .

فأطرق الشيخ ثم قال فى صوت خافت :

— لو علمت أن عندى ما يروى نفساً بشرية لما ترددت فى شيء .

ليس عندى ما يروى ، فما أنا إلا رجل إذا عاش مع الناس عاش
وحده . إن المغنى لا يطرب إذا غنى فى سجنه لأن طربه مستمد من
استجابة سامعيه .

فقال سيف : أليس هذا هبوطاً بالفكر ؟

فقال الشيخ : ولم تسميه هبوطاً ؟

إن الناس يخذعون أنفسهم بمثل هذه الأباطيل ، وما هي إلا محاولة ماكرة لصرف الفكر عن أداء واجبه في الحياة . ليس المفكر مثل الوعاء الممتلئ الذي يفيض بما فيه عن مدد غير منقطع . لا يستطيع المفكر أن يؤدي الفرض الذي توجه عليه طبيعته إلا إذا اتصلت أسبابه بالناس واستطاع أن يستمد منهم نبع أفكاره . فهو يعطيهم ما يستمدونه منهم مثل النحلة التي تستمد شرابها من قطرات الزهر ثم تحيله إلى عسل فيه حلاوة وشفاء . الأفكار لا تعيش في فراغ ولا تجد صدى إلا في القلوب . والمفكر ون قوم فيهم شطط وكلفة لا يرضون إلا إذا تحركت قلوب الناس ليستمدوا الإلهام من حركتها . ولكن الحركة تكلف الناس جهداً كما أنها تزعج الذين اطمأنوا في مقاعدهم ، بعضهم يقتعد الأكتاف من عل والآخر يرزح مطمئناً تحت العبء الثقيل الذي يحمله ، وكلاهما لا يحب أن يتكلف مشقة . فالراكبون على الأكتاف يخشون مشقة النزول ، والرازحون تحت الأعباء لا يستطيعون أن يبذلوا جهداً ليتخلصوا من أحمالهم .

فما الذي يحملني على أن أتمس المتاعب لنفسي ولغيري ؟

فقال سيف باسمياً :

— لم أقصد كل هذا يا سيدى المبجل وإن كان ما أسمعته يلد سمعى . ولكن قولك يحملني على أن أسألك : هل ترتاح إلى أن ترك الشر مستقرّاً لأنك تشفق من الحركة ؟ ماذا تريد أن يبقى للناس إذن ؟

فقال الشيخ في شيء من الحق :

— تبقى فيها الأسواق التي تعرض ما يطلبون .

فضحك سيف قائلاً :

— عفوك يا سيدى فإنها كلمة فكهة . أتقصد الحبز واللحم والمساكن

والملابس ؟

فقال الشيخ باسمًا :

— صدقت يا ولدى . وإن شئت فأضف الخمر والعطور وأنواع

العقاقير من مخدر وسم وترىاق .

فقال سيف :

— أهذا كل ما ينبغي أن يعرض في الأسواق ؟

فقال الشيخ :

— في أسواقنا . . . هذا ما يطلب الناس حقًا . . . هذا كل

ما تتحرك نفوسهم إليه .

فقال سيف :

— أليس للفكر مكان ؟ ولا للأدب ولا العلم ولا الحكمة ؟ أنت

تقول هذا يا سيدى الجليل ؟

فقال :

— لأننى لست أحب أن أكذب نفسى أو أكذب الناس ، ولكنى

لست أنكر قدر العلم أو الحكمة أو الأدب ، وهل أنكرها وهى كل

ما أدعى ؟

فقال سيف :

— ما الذى يملك على أن تحسب أن الناس لا يطلبون شيئاً من ذلك ؟

فقال الشيخ فى شىء من المارة :

— رأيهم يختارون ما يطلبون وينصرفون عما لا يحسون حاجة إليه . هذا كل شىء . وجدتهم يشترون ما يتملق غرائزهم البهيمية وما يثير الحيوان فى طبيعتهم ، ويبذلون أثماناً غالية حتى إنهم ليشترون الإنسان نفسه إذا وجدوا فيه متعة . أليسوا يشترون المرأة ليتخذوها أمة ومتعة ؟ ألا ترى الناس يهبطون بالإنسانية إلى مستوى السلعة إذا وجدوها ترضى حيوانيتهم ؟ ولكنهم لا يقدفون قطعة من الخبز الجاف إلى إنسان جائع . يبذلون الأموال فى الحمر والميسر وفى الجواهر — فى الحجارة الثمينة ، وفى العطور والحرير ، بل يرضون أن يبذلوا الأموال ثمناً لكلمة نفاق أو رياء أو مديح أو دعاية ، ولكنهم ينصرفون ساخرين عن الإحسان ومن الكلمة التى تثير المعانى السامية — أقصد المعانى التى تقلق النفوس أو تكلف الأجسام شيئاً من المشقة . هم يختارون ما يشاءون ولا حيلة لأحد فى حملهم على غير ما تهوى نفوسهم . أيستطيع أحد أن يلقى سلعته على الناس قسراً ؟ تقول لا ؟ إنهم يدوسونها بالأقدام ثم ينصرفون ساخرين . إذن فأولى بمن كانت عنده سلعة كاسدة مثل سلعتى أن يتحمل وحدته وأن يقنع بجذب الوحشة والعزلة ، فذلك أرفق بى وأهدأ لضميرى .

فقال سيف فى شبه عتاب :

— قد يكون أرفق بك ولكنه لا يمكن أن يكون أهدأ لضميرك .
 بل عفواً أيها السيد الجليل إذا قلت كأنك أنت تشفق على نفسك
 من الحركة ، لا تؤاخذني فيما أقول يا سيدى فإننى أحد من يطلبون
 ما عندك .

فقال الشيخ باسمًا :

— أنت ؟

فقال سيف : عفواً يا سيدى ، فكأنك تشير إلى ما اعترانى فى
 تلك الأشهر الماضية .

فقال الشيخ هادئًا :

— بل أشفق عليك يا ولدى .

— وكيف ؟

فقال الشيخ بعد لحظة صمت :

— لقد كلمتنى صريحاً فلأجبك صريحاً .

ثم سكت لحظة أخرى واستأنف بعدها :

— إنك أمير وابن أبرهة .

وصمت مرة أخرى ينظر إليه . وخيل إليه أنه يرى حمرة خفيفة على

وجه الفتى .

ومضى قائلاً :

— وهذا الذى أصفه لك من فساد الضمائر وإسفاف النفوس وزر

من أوزار الحكم . لا تؤاخذنى فقد قلت إننى سأكون صريحاً . بل

لا يغضبك قولى لأنى أقوله لك على أنى أمت إليك بصلة من القربى
لا تعرفها .

فقال سيف :

— بل أعرفها فإن أمى أخبرتنى .

فقال الشيخ مرتاحاً :

— لست أحاول أن أسمو إلى مقام الملكة فما أنا إلا رجل من العرب
وهى ملكة اليمن . ولكنى أتوسل إليك بصلة القربى ليكون قولى عندك
رفيقاً . فإذا أردت أن تحرك الأفكار وأن تجعل الناس يتحركون كنت
بمثابة من يريد أن يزلزل الأرض تحت أقدامه .

فقال سيف :

— ولكن الحاكم يستطيع أن يصلح ويستطيع أن يسمو بالناس إذا
خلصت نيته فى الإصلاح .

فقال الشيخ وفى صوته هزة :

— هيهات يا ولدى ! لعلك نسيت أنى عربى . لعلك نسيت أنى
حاربت يوماً فى صفوف العرب ضد أبرهة .

فأطرق سيف حيناً ثم قال :

— ولكن ذلك عصر مضى . وأبرهة اليوم ملك اليمن والعرب رعاياه .

بل لعلك أنت تنسى يا سيدى الشيخ أنى ابن ربحانة .

وخفق قلب الشيخ وقال :

— ما أجمل هذا يا ولدى ! كأننى أسمع صوت ذى جدن .

فقال سيف :

— لقد نسيت يا سيدى أن أحمل إليك رسالتى . فإن أمى بعثت بى إليك ترجو أن تعود إلى غمدان .

فقال الشيخ :

— عهدتها نبيلة كريمة ، فاحمل لها شكرى وتحيتى .

وصمت لحظة ثم قال :

— واعتذارى .

فقال سيف فى قلق :

— إذن فهل أقول إننى كذلك أتيت إليك راجياً ؟ وهل أعزز

رجائى باسم خيلاء ؟

فقال الشيخ متأثراً :

— أنت تعرف مالك وما لخيلاء عندى ، ولكنك لا تعرف ما للملكة

الرحيمة من دين فى عنقى .

واستند برأسه إلى الوسادة التى وراءه وأغمض عينيه قائلاً :

— احمل إلى الملكة الجليلة جميل عرفانى ورجائى أن تعفينى من العودة

إلى صنعاء . لن أستطيع أن أعيش هناك طويلاً ، وأخش أن صفحتى

قد طويت أو أوشكت أن تطوى . فدعنى أقيم هنا فى هذه الدار البالية

أنتظر يومى . هنا لا أرى إلا السماء والنجم أو هذا البستان الأشعث

المضطرب ، أو حقول الأودية المحيطة بى حيث لا يلقانى إلا العامل الذى

يسوق الثور أو الراعى الذى يسير مع كلبه وراء غنمه . فهؤلاء أقرب

إلى نفسى من كل السادة الذين أراهم فى أبهاء غمدان . لا . لن أعود إلى غمدان .

فقال سيف :

— لا يحملك الغضب يا سيدى على أن تعيدنى خائباً . ماذا أقول لك ؟ أأقول لك أيها الحال العزيز ؟
وتحرك الشيخ فى مجلسه وأدار وجهه قليلا .

ومضى سيف قائلاً :

— قد عرفتكم كما عرفت نفسى وإن كنت لا أبلغ أعماق حكمتكم .
وكنت أستمع إلى أقوالكم أحياناً فى ضجر عندما كنت تتحدث عن قوم أمى الذين حاربوا أبى . وكنت إذا قلت لى إننى أشبه جدى كنت أحس كأنك تريد أن تحط منى ، ولكنى كنت عند ذلك لاهياً يحملنى الجهل والغرور على تياره لا على طبيعتى . وإنى أحس فى نفسى شيئاً جديداً أحس كأننى كنت نائماً ثم استيقظت . فأنا أنظر اليوم إلى الناس كما أراهم . ولست أكذبك أن بؤس الأشقياء يحرك من نفسى أكثر مما تحرك الكبرياء . أحس فى قلبى أحاديث كثيرة وأتلفت أحياناً أريد أن أجد أذنأ تسمعنى . وهناك خيلاء تستجيب لى ونهم معاً فى أودية الفكر على غير هدى . فهل لك أن تكون هادينا ؟ ألا تجد سوقاً لحكمتك إلا أن تكون سوقاً عامة مزدحمة تلتمس لها ال واج فيها ؟ لا تنزل أيها الحكيم بالحكمة إلى سنة الأسواق كما يفعل باعة الخبز واللحم أو الحمر أو العطور ، لا تؤاخذنى إذا كان قولى عنيفاً فإنى أود أن تسمع حجى .

وأطرق الشيخ في صمت وذهب به خياله إلى بعيد عندما قال له
أبو مرة : « أوصيك بولدى » . أيقول الفتى إنه يحس في نفسه شيئاً
جديداً ؟

ونظر إلى وجهه وإلى جبهته العالية وعينيه السوداوين العميقتين
وتعبير ملامحه النبيلة وخطر له سؤال وهو يعلق به عينيه :
أما آن الأوان بعد ؟

ولم يملك أن قال :

— سأعود معك إلى صنعاء يا ولدى وإن كلفنى ذلك ما بقى من

أيامى .

وكان الليل يلف صنعاء عندما دخل الراكبان من بابها الضخم ،
وكانت الأنوار الباهرة تلمع من نوافذ القصر ومن وراء قبتة الممرية
العالية . وذهب سيف إلى أمه بعد أن أنزل الشيخ في غرفة بمotel الضيوف
ليحمل إليها بشرى عودة ابن عمها .

قال الراوى :

مضى الخريف والشتاء ولم يعد أبرهة مع جيشه العظيم إلى صنعاء ،
 ولم يبعث خيراً بنصره على قريش ، ثم أقبل الربيع فى موكبه الحافل
 يخال بين البساتين ومروج الأرباض وفى الرحبة الفسيحة بين جبلى
 نغم وعيبان ، وتزينت الأرض تتبرج فى زخرفها ، والسماء تبدى صفاء
 ديباجتها لا تشوبها إلا سحب رقيقة تكلل الربى المزدهرة . وكان النسيم
 يهب دفيئاً يفوح بعطر الليمون والنارنج ، والحياة الحديدية تردد أغنية
 مرحة كأن لم يكن فى صنعاء خوف ولا كآبة ، وكأن لم يكن ملك الأرض
 غائباً فى تيه لا يدري عنه أحد شيئاً . وجلست ريحانة فى شرفة القصر
 تسرح بصرها فى الأفق وخيل إليها أن الطبيعة الضاحكة تتحدى هموم
 الإنسان وغروره ومطامعه . لم لم يبعث أبرهة رسولا كل تلك الشهور
 الطويلة ؟ ألم تكن رحلة خريف ؟ أم هو فى شغل من تدبير ملكه الحديد
 بعد أن هدم الكعبة ودانت له قريش ؟ وهل نسي أن يجعل لسيف
 شطراً من ذلك الملك الحديد ، أو بدا له أن يقيم على الحجاز ملكاً من
 أتباعه الذين كانوا يتبعونه كالكلاب الجائعة تنتظر أن يقذف إليها
 بفضلة من المجد ؟ وكان فناء القصر يضطرب منذ الصباح الباكر بحركة

الجنود لأن يكسوم أعد لذلك اليوم موكباً عظيماً يسير فيه إلى الكنيسة الكبرى للصلاة من أجل انتصار أبيه . وسمعت ريحانة تصايح الأحباش برطانتهم التي كانت لا تفهم منها حرفاً وخيمت على قلبها سحابة . ماذا تحس في أعماقها التي لا تستطيع أن تخفى عنها حقيقةها ؟ أكانت تلك التي تخفيها هناك أمنية أم خوفاً ؟ أليكون أهل مكة حقاً قد غرروا بأبرهة وتركوه حتى تنفذ مؤونته وتخور قوى جنوده من الحر والجوع والجهد ثم هبطوا عليه من رعوس الجبال فجأة فحطموا جيشه ؟ لم يبعث أبرهة رسولا منذ خرج ولكن الأنباء كانت تتطاير في الظلام مثل خفافيش الليل تذيع في الناس أن أبرهة قد هزم هزيمة طاحنة . أتحنزن لتلك الكارثة لو كانت حقيقة ؟ ماذا كان على أبرهة لو قنع بملك اليمن واقتطع لولدها قطعة منه ليعوض عليه ما أصابه في جده وأبيه وقومه ؟ ولكن يكسوم يعد الموكب ليستنقذ الانتصار بالصلوات .

وضحكت ريحانة ضحكة كادت هي تفرع منها . وعادت تنظر إلى أعماقها لترى ما تخفى بها ، أهي أمنية أم هي خشية ؟ وماذا يفعل يكسوم لو صح أن أبرهة قد هلك كما تقول الأنباء التي يتهامس بها الناس إذا خلا بعضهم إلى بعض في ستر الظلام ؟ كان يكسوم يزداد حنقاً وقسوة يوماً بعد يوم ، ويزيده حنقاً ما يرفعه إليه جواسيسه من همسات الناس في خلواتهم كانت الطباقي الرطبة الجاهمة التي في أغوار القصر تستقبل كل ليلة عدداً من وجوه صنعاء الذين يتهمهم الجواسيس بالتآمر للثورة . بل إن يكسوم لم يتردد في أن يذهب

إليها هي ليحدثها عن ولدها سيف وعن خيلاء ، وأنهما يقضيان ساعات من الليل أو النهار وحدهما يتحادثان فيما لا يدري أحد من الأحاديث ؛ ويحضران معاً دروس ذلك الشيخ الذى يفسدهما بآرائه التى لا تزيد على سفاسف العامة . فكيف تسمح لسيف أن يجالس فتاة مثلها ؟ وكيف يقيم الشيخ فى غمدان عزيزاً كأنه لم يكن فى يوم من الأيام من أعداء أبرهة ؟ أيبقى فى القصر ليسم قلب سيف ويلقى ستاراً على اجتماعه بخيلاء ؟ وكان يكسوم فى ثنايا حديثه يشير إلى أن صبره كاد ينفد وإلى أن سلامة الدولة لا تعرف قرابة ولا مجاملة . ومع هذا فإنها ستذهب معه فى الموكب إلى الكنيسة وتصلى معه من أجل الانتصار حتى لا يجد سبيلاً عليها . وسمعت صوت الأبواق ودق الطبول ورأت تحت بصرها صفوف الأحباش تنتظم فى صفوف وتستعد للموكب . ولن تستطيع أن تعتذر عنه بعذر من فتور أو مرض ، بل إنها توسلت إلى سيف أن يركب معها حتى لا يلهب غضب يكسوم عليه .

وكانت كلما فكرت فى ذلك الموكب زادت منه نفوراً . وأحست هاجساً يهتف أنه ينطوى على نكبة . أيسير موكب فى صنعاء الصامته الكثيبة التى لم يمر عليها أشقى من الشتاء المنصرم ولا أشد كساداً من ذلك الربيع ؟ لم تتوافد القوافل فى ذلك العام كعادتها من الشمال والشرق ، ولم تتلاحق السفن إلى شواطئ زبيد وعدن تحمل البضائع من أقصى أركان الأرض إلى صنعاء ، ولم تنعقد الأسواق فى ميادينها الفسيحة ولا فى أرباضها الفيحاء ، ولم يتزاحم أهل البوادي على الطرق المؤدية

إليها صاعدين من كل فج عميق بما عندهم من سلع يعدونها طوال العام انتظاراً للموسم الأكبر . ولم تكن صنعاء في ذلك العام ملهى صاخباً فيه السمر إلى جانب البيع وفيه المجون إلى جانب الجدد ، وفيه المسابقات والمباريات . والمناضلات والمفاخرات بالأشعار . لم تشهد صنعاء في ذلك الشتاء المنصرم شيئاً من كل ذلك لأن الحرب تركتها خامدة مظلمة ، وكانت طرقها الحالية وساحاتها العارية تبدو كأنها بقية من عالم مندثر . فهل كانت مثل هذه المدينة لتخرج بقية أهلها إلى الطريق العظمى لتحية الموكب كما خرجوا لتحية أبرهة ؟

وجاءت الوصيصة الحبشية لتؤذن الملكة بأمر سيدها أن الموكب في انتظارها . فسوت حلتها وحليها وقامت بطيئة بقلب ثقيل تسير في البهو نحو السلم الرخامي . ولما بلغت باب القصر كان يكسوم هناك بوجهه الجاهم ، ومد إليها يده يساعدها على الصعود إلى هودجها . وسارت الخيول بعد أن استوى الموكب ، وكانت أصدااء حوافرها تقعقع على الأرض الصلبة في الطريق الحالية . وكانت البيوت العالية مغلقة الأبواب والنوافذ عن اليمين والشمال . ونظرت ريحانة خلفها فزادت قبضة صدرها . كان سيف يركب جواده الأبيض عن يسار يكسوم ، وكان ولدها مسروق يسير عن يمينه ، وكان يكسوم على جواده الأدهم وعبدان يمسكان بزمامه ، وفي يمينه حربة طويلة وهو يسمو بقامته وهامته الضخمة فوق الركب ، ونظراته العابسة ت برق كما ي برق سنان حربته . إنه موكب يكسوم ! ولاحت قبة الكنيسة مشرقة من بعيد من بين

أشجار الجوز والليمون والسمر والسلم ؛ ثم بلغ الموكب الباب المزخرف ذا الياقوتة الحمراء ، وكان القسوس وقوفاً تحت الدرج الواسع في استقبال الركب الملكي يلبسون مسوحاً سوداء واسعة وعلى رؤوسهم قلانس عالية . وتقدم القس الأكبر من الملكة وفي يده صولجان من الأبنوس يعلوه صليب من الفضة .

ونزل يكسوم عن فرسه مسرعاً فقبل يد القس منحنياً ، ونزلت الملكة في ثيابها البيض وعباءتها الحريرية الزرقاء وكانت حليها تتوهج بالجوهر . وتقدم القس نحوها رافعاً يده بالصولجان ونطق لها بكلمات رومية فهمت منها أنها تحية مقدسة . فانحنى له في صمت وسارت رافعة الرأس نحو الباب بين صفى القسوس حتى شقت الصحن ، وكانت نوافذه العالية تصفى شمس الضحى في صفائحها المرمرية وزجاجها الملون ، فيغمر الضوء الخافت الفسيفساء الأنيقة التي كانت تزخرف الممشى ويخلع على جو الكنيسة غموضاً وجلالاً .

وأقام القس الصلاة وكان ترتيله عميق الصوت يرن في جنبات الصحن ، والصفوف المتراسة على المقاعد تنصت خاشعة . ولما فرغ من ترتيله أتى إلى الملكة والأمراء فأشار إليهم ليذهبوا إلى قدس الأقداس . وكانت الشموع هناك تضيء الحجرة الضيقة بنور ضئيل يغشى الجدران بظلال المذبح والتماثيل القائمة حولها ، وكانت روائح الند والعود تفوح من مجامر النحاس ممتزجة بعطر المسك الذي طليت به الجدران .

وعادت الترانيم ترن جليلة عذبة ، وأقبل القس الأكبر نحو الملكة

رافعاً صولجانه مرتلاً بصوت هادئ . وتلقت الملكة بركته راكعة تميل برأسها نحوه فلوح بالصليب فوق صدرها ورأسها ولس به تاجها الذهبي عند اللؤلؤة التي تتوسطه .

ولما فرغ من مباركته ذهب يكسوم إليه فتناول طرف الصولجان وقبل الصليب وخشع يتلقى البركة ، حتى إذا فرغ القس منه أقبل نحو سيف ليباركه ، وعلقت الملكة نظرها في وجه ولدها والقس يقترب منه . فإذا يكسوم يسرع ويدفعه في عنف ، ويقدم أخاه « مسروقاً » نحو القس قائلاً : « ابن أبرهة أولى » .

وكانت الحركة أسرع من أن تتنبه ريحانة إلى بدئها ونهايتها ، فما كادت تفتن إليها حتى رأت وجه سيف يشتعل ، ثم يتجه إلى يكسوم متحدياً في حنق . وأحس القس حرج الموقف ، فأسرع يبارك الفتى الذي تقدم إليه ، وذهبت ريحانة إلى ولدها الذي أذهلته المفاجأة ، ولكنه بادر قبل أن تدركه فانفلت من الحجرة قائلاً : « لا حاجة بى إلى بركة » . وظهرت في عيني الأم دمة فحولت بصرها إلى الباب الذي خرج منه سيف ، ودارت بها الأرض فلم تمالك نفسها حتى اقترب القس منها وعلى وجهه أثر من الارتباك وتمتم بكلمات ، فقالت ريحانة :

— عفواً أيها الأب المبارك . ثم انصرفت خارجة .

وعاد الموكب في الطريق الحالية حتى بلغ القصر ، وذهبت الملكة إلى جناحها مسرعة حتى إذا بلغت مخدعها ألقت بنفسها على أريكة وغلبتها دموعها .

وجاء إليها سيف بعد قليل فوقف عند رأسها ينظر نحوها صامتاً ،
ثم ناداها بصوت خافت :

— مولاتى !

وسمعت صوته كأنها فى حلم فرفعت رأسها وقالت فى صبيحة
مكبوتة :

— عفوك يا ولدى !

فقال سيف هادئاً :

— بل عفوك أنت فقد أحدثت لك حرجاً يا مولاتى !

فقالت فى ألم :

— أبهذا تنادينى ؟

وقامت إليه فضمته بين ذراعيها وألقت رأسها على كتفه باكية .

فقال سيف :

— لا يحزنك شىء أيتها الأم النبيلة .

فقالت :

— بل تكلم يا ولدى وانطق بما فى نفسك ولا تخفف من عنفه

شيئاً . قل إننى كذبت وإننى ضعفت وإننى أسأت فإنه خير عندى

أن أسمع منك ما يبك أذننى ويصدع قلبى لعله يخفف من حزنى .

فقال سيف :

— ليس فى قلبى لوم ولا حاجة بى إلى مزيد من القول . لقد برح

الحفاء وما كنت تستطيعين أن تكونى أكرم نفساً .

فقال ريحانة في ضراعة :

— دع لي فرصة لأبين لك عذري . إنما عذري إليك محبتي وإشفاقي
وضعف الأم التي تحس ذنبها . لم تكن هذه الأكاذيب التي كررتها
عليك هينة عندي . كان كل لفظ منها يجفف ريتي ويطن قلبي ، وكان
ضميري في كل مرة يصيح بي قائلاً : « اجهرى بالحقيقة » ، ولكني ضعفت
ولم أطع صوت ضميري كما تفعل المرأة التي تحس ذنبها . وكان ذنبي
أنني لم أقتل نفسي عندما كنت أحملك بين ذراعي . ألا فاعلم يا سيف
أنك ابن الأكرمين كابراً عن كابر . أنت ابن سادة اليمن وأنا ريحانة
ابنة ذي جدن . كان أبوك زين الفوارس — أبو مرة ذو وزن .

ففتح سيف عينيه وقال في همسة مدهوشة :

— ذو وزن !

ومضت ريحانة قائلة :

— إنهما اسمان لا يزيدان عندك على لفظين ولكن استمع إلى قصتي
لتعرف من كان هذان .

وأخذت تسرد عليه قصتها وهو يستمع إليها في لهفة وتأثر . ثم قالت
في ضراعة :

— هذه هي الحقيقة التي كنت أطويها عنك ، وليس فيها ما يندى
له جبينك خزيًا إلا أن يكون أنني لم أضع في قلبي خنجراً عندما دخلت
غمدان . فإذا كنت أسأت في هذا فإنني أطلب عفوك ، ولا أتواري مما
يقع في قلبك .

ورفعت رأسها ثانية تنظر إلى وجهه الهادئ وجبينه الفسيح .

وأخذ سيف يديها فقبلهما قائلاً :

— لم يقع في نفسي إلا أنك أعز الناس عندي وأكرمهم شيمة وأنبلهم قلباً .

وأطرق لحظة ثم قال :

— ولكن الحقيقة تطلع على فجأة وتبهرنى كما يقع النور الساطع على العين فيبهرها . قلبي يجيش ولساني يتلعم .

والتفت يريد أن ينصرف فتمسكت به قائلة :

— بل أقم إلى جنبي حتى أهدأ ، ولا تدعنى لأحاديث وحدتى

العنيفة .

وانفجرت في بكائها متهالكة على مقعد .

فبقى سيف في جوارها حزيناً من أجل حزنها ولكن أفكاره كانت تضطرب كما لم تضطرب من قبل في وساوسه . ورنّت في أذنيه كلمات يكسوم وهو يقول « ابن أبرهة أولى » ، وتذكر نظرتة عندما نظر إليه بعينيه الجامدتين . وعادت إليه فجأة صورة العينين اللتين طالما أفزعتا أحلامه وأفسدتا سلامه . أليستا هما العينين القاسيتين اللتين اتجه بهما إليه في قدس الأقداس ؟ تلك نظرتهما وهذا بريقهما البارد وتلك هي الهامة الضخمة وذلك هو الوجه الأسود الذي كان يحملق فيه . إنه الوجه الغليظ الذي كان يصيح به في الأحلام : « من أنت حتى تضرب ابن أبرهة ؟ »

وكان في مضطرب أفكاره تلك ينظر إلى أمه المسكينة تهتز في فحمة بكائها وقلبه مملوء رثاء . ما كان أشد الأيام والليالي في قسوتها عليها !

كان يراها مثل شابة لم تنل السنون منها إلا خيوطاً بيضاء قليلة تلمع بين خصل شعرها ، وما كان يستطيع أن يحسب يوماً أن مثل تلك الآلام المبرحة تعذبها . أعرفت ريحانة في زمانها كل تلك المحن وعركت الدهر في كل تلك المواقف ؟ فلو عرف أن أبرهة لم يكن أباه وأنه لا يزيد على أن يكون ولداً لرجل من العامة مات عنه أو هجر أمه حتى تلقاها أبرهة فضمها إليه لما أحس في الأمر كله سوى صدمة الحقيقة . ولكن الحقيقة كانت أبشع من صدمة ، لأنها كانت مأساة دامية ، وما كانت ريحانة إلا إحدى ضحاياها . أكل ذلك كان ينطوى وراء بسماتها وأغانيتها له ؟ أكل هذه الأسرار السوداء كانت تكمن في قلبها ليلاً ونهاراً وهي لا تنطق بكلمة ؟ وثبت بصره عليها حيناً وقلبه يتحدث : أيتها الأم المسكينة لم تتعذبين هكذا ولم تبكين مثل هذا البكاء المر ؟ ألا أنك لم تقتلي نفسك عندما قتل أبرهة قومك وشرد زوجك وبعث إليك لتكوني امرأته ؟

وناداه قائلاً :

— هوني عليك يا أمي .

ووضع يده في عطف على رأسها .

وكأنها كانت تنتظر منه تلك الكلمة ، فرفعت رأسها تنظر إليه نظرة

ملؤها الشكر وقالت :

— أنت هذا إلى جانبي يا سيف ؟

فقال لها :

— أنا فداؤك أيتها الأم النبيلة ، هوني عليك فإن هذه الأحزان تزيدك نبلا . إن قلبك الذى تحمل كل هذه الصدمات يجعلنى أفخر بأنك أمى . كوني كما كنت دائماً ، أستمّد منك قوتي وآوى إليك فى لحظات كربى وأستوحى منك سبيل الهدى . أماه لست أجد من الألفاظ ما أبين به رحمتى وحبى وإجلالى سوى أن أقول : أماه ؛ وسأمضى عنك حتى تعودى كما كنت فلا أراك من بعد إلا ظلالى ونبعاً وسنداً .

وخرج من الحجرة كأنه يسير فى حلم على رأس جبل يرى من حوله فضاء ومن تحته فضاء ، أنى رمى ببصره لم ير قراراً . رأى أن حياته كانت قائمة على هوة انكشفت فجأة بعد أن زال عنها غطاؤها فرآها تفغر فاها مظلمة ليس يدرى ما ينطوى فى جوفها . وبدأت له الحقائق التى كان يطمئن إليها زائفة ، والمعانى التى كان يستقر عليها ولا يخطر بباله أن يجادل فيها لا تزيد على مسارب ظنون يحيط بها الشك . عرف آخر الأمر أنه ليس ابن أبرهة . أليس هذا ما كان يود أن يعرفه ؟ ولكنه عندما عرف الحقيقة أدرك أنه كان يهيم فى الخيال . بل أدرك أنه كان يخدع نفسه بغير أن يحس ، وأنه كان فى قرارة قلبه يود لو بقى على نسبه . فعندما خرج من عند أمه أول مرة وقد سخرت من وساوسه ، عاد إليه هدوؤه ورضى عن نفسه شاعراً كأنه نجا من مأزق خطر . ألم يكن ذلك لأنه كان يضمّر أمنية خفية أن يبقى ولد أبرهة ؟ وما هو ذا قد عرف الحقيقة فماذا يجنى منها ؟ كيف يكون موضعه من يكسوم من

بعد ، وكيف يكون موضعه من خيلاء ؟ أهي الأخرى لا تعباً إلا بابن أبرهة ؟ ونزل بغير أن يقصد إلى البستان وسار في المماشي التي كان يسير في ظلها مع خيلاء ؛ وعادت إليه نبرات صوته وهي تحدثه عن المساكين الذين كانت تراهم في ضوء القمر يساقون إلى ناحية الحب العميق . كانت تهيم معه في الخيال مع أمانها تقول له : « سندهب يا سيف إلى أبيك إذا عاد لتخرج هؤلاء إلى ضوء الشمس » . وسار يدفعه دافع نحو بناء كالح في زاوية القصر مما يلي مرابط الحيل . هناك كان يتسلل مع خيلاء إذا هما طفلان فيتعلقان بالقضبان الحديدية التي تعترض النوافذ الضيقة القريبة من الأرض ، ويتدسسان بنظرهما في ظلمة الفراغ الذي وراء النافذة ويخيل إليهما أن أصوات الجن تنبعث خافتة من أعماق الحب العميق ، تشبه صيحات بومة مخنوقة أو عويل قطرة حبيسة . فيصبحان فزعاً ويجريان مبتعدين عن البناء الغامض ، حتى إذا ما صارا منه على مسافة مأمونة وقفا يضحجان ضحكاً ويصفقان ويقفزان . هذا هو الحب الذي حدثه عنه خيلاء منذ أسابيع قليلة ، وكانت تحدثه بحزن عميق عن المساكين من أهل صنعاء الذين كان الأحباش يسوقونهم إليه في غلظة تحت الظلام . كان عند ذلك يحسب أن هؤلاء المساكين من رعاياه ورعايا أبيه وأنه سيشفع لهم من أجل خيلاء . ووقف عند النافذة القريبة من الأرض وخيل إليه أنه كان يسمع من وراء قضبانها الحديدية الصدئة أنيناً بعيداً . إذن فهؤلاء هم قومه الذين يتعذبون ويفقدون أبصارهم إذ يقضون أيامهم ولياليهم في

غيابة الظلام . هم هناك يقضون أيامهم أنة بعد أنة أو لحظة معذبة بعد لحظة . وثار قلبه غيظاً من أجلهم ومن أجل نفسه ، لأنه قد صار منذ ساعة أحدهم بعد أن كانوا رعاياه .

وانصرف مسرعاً يحس كراهة تتزايد في قلبه ، فلما بعد عن البناء الكالح التفت وراءه كأنه ينظر إلى الأنين الخافت يلحق به . وحمد الأقدار التي مهدت لأبيه ذى يزن سبيل الخلاص ليضرب في الأرض شريداً .
 ذو يزن ! أبو مرة ذو يزن ! اسم له رنين ولا غرو أن يكون صاحبه فارساً يستطيع أن يتحامل على نفسه في الليل وهو مشخن بالجراح ليهرب من العبودية . ولكنه لم يره يوماً يبتسم له كما يبتسم الآباء إلى أبنائهم ، ولم يشعر يوماً بحمايته له ولا بمشاركته في عاطفة . لم يكن ذو يزن عنده سوى اسم لا شخص له ولا صورة ، ولو كان ابناً لأحد المساكين من الرعاة الذين يتواثبون على صخور الجبال وراء قطعان الماعز لكان أحب إليه من أن يكون ابناً لخيال ، فإنه كان يعرف ذلك الأب ويعيش كما يعيش ويشقى كما يشقى لا يعرف وراء حياته أمنية جوفاء تقلق نفسه .
 ومر بمرباط الخيل فلمح من بعيد أحد السواس من الأحباش يركب مهره الأبيض وهو يصهل في غضب ويقفز من تحته يريد أن يقذف به عن ظهره ، ورفع السائس سوطه فأهوى به على رأسه . فصاح سيف صيحة مكتومة وأسرع يجرى نحوه حتى أدركه وقد رمى به المهر عن ظهره . وعرف المهر صاحبه فوقف حياله رافعاً رأسه فاتحاً خياشيمه وفي عينيه دعر وغضب . وأقبل الحبشى بسوطه يريد أن يهوى به على

رأس المهر فبادر سيف إليه ونزع السوط من يده فأهوى به على وجهه بضربة حانقة ، ولم يفهم شيئاً مما صرخ به الحبشى وهو ينظر إليه نظرة وحشية ثم ينصرف عنه مزجراً . وأقبل سيف على مهره يمسح وجهه ورقبته حتى هدأ وذهبت عنه رجفته ، وأخذ يشم كتفيه ويصهل صهيلاً خافتاً ، ثم قاده إلى مربطه وأوصى به كبير السواس وقال فى نفسه وهو ذاهب نحو القصر : « ماذا يكون من هذا الرجل لو عرف أننى لأزيد على ابن ذى يزن ؟ » ولما دخل من باب القصر كان يتخيل فى نفسه أن ذلك السوط الذى أهوى به على السائس قد نزل على وجهه يكسوم . أيستطيع يوماً أن يرد عليه إهانته ؟

وزاد به الضيق عندما آوى إلى حجرته وأسلم نفسه للأمواج الصاخبة التى تدافعت إليه من شتى الآفاق . كيف يلتقى الذين كان يلقاهم وهو ابن أبرهة ؟ كيف يكون خطابه لهم وكيف يكون خطابهم له ؟ أيزهد إلى أمه آسفاً يقول لها إنه يود أن يبقى أمام الناس كما كان ولا يكشف لهم عن حقيقة نسبه ؟ كم من صلوات قديمة تنقطع عنه بعد يومه ذاك ! وكم من صلوات جديدة لا يعرفها سوف تصله بأقوام لم يلقهم من قبل ؟ ! سوف تكون صلته الوثقى بهؤلاء الأشقياء الذين تلقى إليهم الفضلات ويسخر الأحباش من شقائهم . سوف يغضب لهم ويتلبس بمشاعرهم وينظر إلى الأشياء من ناحيتهم . وسوف يلقاه هؤلاء السادة الأذلاء الذين يحتشدون بباب القصر يتزلفون لآل أبرهة فينظرون إليه شزراً ويتبرأون منه علانية كما كان يسمعهم من قبل يتبرأون من أبيه وهو

لا يعرفه ، وسوف تقع أقوالهم على أذن أخرى تحس في كل لفظ من ألفاظهم وخزة . ثم خيلاء . أكانت حقاً . . . ؟ لا ! لم تكن خيلاء لتنظر نظرة أحد غيرها من الناس .

وسار في حجرته يحدث نفسه بألفاظ متقطعة تتخللها ضحكات تشبه أن تكون مأفونة : « إلى أين ؟ من أين ؟ ظلام فوق ظلام . أهذه هي الحقيقة ؟ اسم جديد لخيال جديد ؟ أهذه قصارى الحقيقة التي كنت أنشدتها وأعذب نفسي من أجلها ؟ أم هو حلم من الأحلام المفزعة التي طالما اعتادتني ؟ أم هي صحوة من حلم طويل ؟ أحقاً رأيت الشمس طالعة في هذا الصباح ترسل أول شعاعها من وراء الأفق كأنه موكب قدسي ؟ وهل كنت في الصباح حقاً في موكب يكسوم وذهبت إلى القليس واستمعت إلى ترانيم القسوس ؟ وهل دفعني يكسوم قائلاً : ” ابن أبرهة أولى ؟ “ أهاتان هما عيناه أم هما العينان اللتان أفرعتا أحلامي ؟ » .

وضحك ضحكة أخرى جوفاء أفرعته فأسرع خارجاً من الغرفة إلى حيث لا يدري ، وكأنه يهرب من نفسه .

وسمع صوتاً في البهو يناديه :

— إلى أين يا سيف ؟

فالتفت إلى خيلاء وكانت تنتظر الشيخ أبا عاصم كعادتها ساعة

الدرس ، وقالت في لهجة الاعتذار :

— أراك مسرعاً .

وكانت إلى جانب الوعاء المرمى ونظراتها تم على ارتباك ودهشة ،

وصدرها يتحرك في موجة رفيقة . وخيل إليه عندما رآها أنه كان غريباً
فعثرت يده بجانب صخرة . وملاً عينيه منها ثم تردد كالحالم إذا بدأ يستيقظ
وتعجب كيف لم يرها من قبل في مثل هذا الرواء .

كانت خيلاء في تلك اللحظة مثل دمية صورها أحد البارعين الذين
يخلدون اللحظات المسحورة بفهمهم ، ولو وضعت في الكنيسة لكانت أيقونة
العدراء . أهى خيال آخر في حلم متصل ؟ واقرب منها كالمأخوذ ومد يده
نحوها ولم يدر ما يقول لها . ومرت لحظة طويلة وهي رافعة بصرها إليه
مرتدة وكست وجهها بسمة خاشعة حزينة ، وزادت موجة صدرها شدة .
ونزع سيف ألفاظه مرتبكاً :

— خيلاء ! معذرة لما ترين منى . لم أذكر أنك هنا بل ما عرفت أنني
أت إلى هنا . تعالى أستمع إلى صوتك فإن قلبي ممتلئ وهو مغلق وكأن نبأ
حاراً قد انبثق في أعماقي أحسه يتدفق كامناً مكبوتاً فواراً .

وجلس معها على المقعد في جوار الوعاء المرمرى ، وكانت نظرتها
على هدوئها تصبح سائلة . فقال سيف :

— لا تعجبي لما ترين . فأني اليوم غير من تعرفين ، وغير من
أعرف أنا . إنني أشك في نفسي في هذه الساعة وأشك في كل ما حولي ،
ويخيل إلى أنني في عالم أجوف لا حقيقة فيه ، وكل ما أرى منه لا يزيد
على صور يخلقها لي وهمي وأحسبها حقائق . أسمعني صوتك لأنني
لا أستطيع أن أشك فيه إذا سمعته . أعينني على العودة إلى حسي حتى
لا أنفض يدي من الحياة يائساً .

فتحركت خيلاء في قلق لا يخلو من الذعر ، ولم يخف ذلك عندما قالت :

— تثبت يا سيف وهدئ من روعك وحدثني بما يزعجك ، حدثني عما تحس أو ما يحزنك لعل أحمل معك حملك . كنت اليوم في القليس ؟ — فقال سيف في ضحكة نائرة :

— نعم ذهبت إليه في الصباح — ذهبت إليها شخصاً وخرجت منها شخصاً آخر . إنني في هذه الساعة مثل طفل يسير في الظلام ويرى فيه أشباحاً فينطق ولا يدري ما يقول ، وينادي وليس يعرف من ينادي لعله يأنس بسماع صوت نفسه . فكلمني يا خيلاء فإني أفرع من صوتي . فقالت خيلاء :

— أما من سبب لكل هذا ؟

فقال : إنني أبدأ حياة جديدة منذ اليوم ، ولست أدري أين أتجه فيها . على أن أرتادها وأن أفهمها بعقل غير عقلي الذي اعتدت أن أزن به أموري ، وأن أتعرف أهلها وأحوالها بعين غير عيني الأولى . قلت لك إنني مثل طفل فلا تدعيني أتكلم . لا تسأليني بل تحدثني إلى . قولي أي شيء . حدثيني عن هذا الوعاء وعن اللحظات المسحورة فقد كان حديثاً جميلاً . حدثيني عما صنعت منذ الصباح أو عما قلت في صلاتك للعدراء ، لعل ذلك يدخل إلى قلبي شيئاً من إيمانك . لو كنت أومن بشيء لآمنت بنفسي ، ولكني أسبح في فراغ .

فأمسكت خيلاء بذراعه في حزن وأطرفت تبكي صامته .

فقال سيف :

— معذرة يا خيلاء فقد قسوت في ثورتى العمياء . لا تظنى بى الحبل وإن كنت لا ألومك إذا ظننت ذلك . ولكنى أحاول أن أتماسك . دخلت هذا الصباح إلى الكنيسة وأنا سيف بن أبرهة وخرجت منها وأنا سيف ابن ذى يزن ، أتفهمين قولى ؟

فرفعت رأسها في دهشة ولهفة ولكنها لم تتكلم فمضى سيف قائلاً :
— كنت أعيش كل هذه السنين فى نسيج من الأكاذيب . كانوا يسمونى ابن أبرهة وهم يعلمون أننى ابن رجل شريد ذهب على وجهه فى الأرض منذ كنت طفلاً . وأخذ يعيد عليها قصة أمه .

وكانت خيلاء تعلق فيه بصرها وهو يتحدث ووجهها ينطق قائلاً :
« ما أسعدنى ! »

ولما فرغ سيف من القصة قال كأنه يحدث نفسه :
— سيف بن ذى يزن . اسم جديد لو سمعته بالأمس لما استرعى سمعى إلا كما يسترعيه اسم فى أسطورة . ولكنه اليوم هو السبب الذى يصلنى بالحياة . سيف بن ذى يزن ! سيف بن ذى يزن .
وكان فى ترديده يتمهل كأنه يريد أن يملأ منه سمعه ويتبين جرسه ويقدر رنينه .

وارتفع صوت من ورائهما يقول فى حماسة :
— ما أعذبه اسماً ، كأنه خلق هكذا وكتب هكذا فى سجل الأزل .
ولمعه وجه الشيخ أبى عاصم وهو يتقدم قائلاً لسيف :

— من علمك هذا ؟
 فقال سيف في ارتباك :
 — كأنك كنت تعرفه يا سيدى الجليل .
 فقال الشيخ هادئاً :
 — أعرفه ؟ أسؤالا بسؤال ؟
 وجلس أمامهما على مقعد وطين وأعاد سيف قصة القليس .

٩

قال الراوى :

فرغ الشيخ من درسه وكان خفيف النفس متدفق الخاطر ، فبينما هو يتحدث عن يوم من أيام الحروب إذا هو يورد ما قال الشعراء فيه إذ يصورون هزات نفوسهم ، ثم إذا هو يسبح فى معانى الخير والشر ومقاييس الفضل والنقص .

وقام سيف وخيلاء يشيعانه وهو يسير بخطواته الهادئة يتكىء على عصاه الطويلة حتى خرج من البهو وأخفته الأروقة عنهما . والتفت سيف إلى خيلاء آخذاً بيدها قائلاً :

— كنت كمن صدمته صخرة فزلزله حيناً ، ولكنى أعود إلى نفسى .
 وما كنت أحسب أن جنائى يعود فى مثل هذه الساعة القصيرة . أرى

الغشاوات تزول عن عيني وأبصر الأشياء كما ينبغي لي أن أراها . ليست الأشياء كما خيل إلى منذ ساعة صوراً مجردة يخلقها لنا الوهم فتبدو لنا في هباء تخذعنا وتضللنا . هذه أنت يا خيلاء إلى جنبي تستمعين إلى وهذه يدك في يدي وهذه هي السعادة ترف علينا حقيقة لا خيالاً . أكاد الآن أومن بنفسى .

فقلت خيلاء باسمه :

— وعرفت الإيمان ؟

فضغط سيف على يدها قائلاً :

— ما أسرع العقول في تبديلها وما أسرع تبدل الرؤى في أعيننا .

أليست هذه الحواس تخذعنا ؟ إنها تخيل إلينا أن الشمس تجرى بين السحاب إذا هبت عاصفة ، وأن القمر يسير معنا في الليلة الصافية .

فقلت خيلاء :

— وتملاً قلوبنا بذلك شعراً . أليس كذلك يا سيف ؟

فقال سيف :

— ولكنك تسأليني عن الإيمان .

فقلت خيلاء :

— وهل نؤمن بعقولنا ؟ الإيمان لا يدخل إلينا من العقل لأنه أسمى

من عقولنا . وأنى لنا أن ندرك بعقولنا المحدودة ما يتعدى الحدود المباحة

للحواس ؟ نحن نلمس المادة الكثيفة ونرى ما يستطيع بصرنا الكليل أن

يبلغه ونسمع ما يقرع آذاننا . ولكننا لا نستطيع أن نكابر في الحق ونقول

إن هذا كل شيء . فإن وراء ما نلمس عالماً لا يدركه اللمس ، ووراء ما نرى عالماً لا يبلغه البصر ، ووراء ما نسمع عالماً لا يكشفه السمع . لو قنعنا في الإيمان بما تدركه الحواس لما زدنا شيئاً على النملة التي لا تستطيع أن تطير في الجوّ أو السمكة التي لا تعيش إلا في الماء أو الحية الصماء التي لا تدرك إلا ما في الرمال التي تدب عليها . لا نستطيع يا سيف أن نبليغ الإيمان عن طريق عقولنا ، لأنها لا تعرف إلا ما تمليه عليها الحواس التي تستعبدنا . لسنا ملائكة .

فقال سيف هامساً :

— ألا يكون البشر ملائكة ؟

فقلت :

— لا بأس علينا إذا لم نكن ملائكة ، إذا كنا نتواضع ولا يحملنا الغرور إلى أبعد مما ينبغي لنا . فالبشرية ضعيفة محدودة ولكنها لم تخل من جمالها . وهذا الضعف الذي فينا قد يكون مبعث سعادة لنا إذا نحن آمنّا . بل إن هذا الضعف يحملنا على التعلق بالإيمان لأنه وسيلتنا إلى السلام وإلى الرحمة وإلى المحبة .

فقال سيف في حماسة :

— لو تكلم الملائكة لما قالوا خيراً من هذا يا خيلاء . فإن كلماتك تبعث في قلبي من الإيمان أكثر مما يستطيع عقلي : السلام والرحمة والمحبة . سأؤمن يا خيلاء وسينلي إلى الإيمان هو أنت . أنت السلام والرحمة والمحبة فأنت هو أنت الإيمان .

وأخذ يدها بين يديه ناظراً إلى عينيها . وتحركت تقبض يدها فتمسك
بها قائلاً :

— ما كان لى أن أذهب حتى أقول كلمة ما زالت تشتعل فى
صدرى .

فأغضت وسحبت يدها فى رفق ومضى سيف قائلاً :
— نحن هنا وحيدان فى غمدان يا خيلاء . لم أكن أعرف ذلك إلا بعد
أن عرفت أنى وحيد هنا . كأننى لم أسأل نفسى عنك إلا فى هذه اللحظة .
نحن هنا وحيدان معا والدنيا أمامنا فسيحة تدعونا لنتمسك فيها السعادة .
وبقيت خيلاء مطرقة صامته .

ومضى سيف فقال :

— ألا تجدني فى قلبك جواباً ؟ أليست القلوب تتحدث ؟ ألا
تحسين ما أريد أن أقول ؟ لست أجده لفظاً يقوى على نقل ما فى نفسى ،
فأبحثى فى قلبك عن الجواب عن سؤال لم أنطق به بلسانى .

فقلت بصوت متهدج :

— أنت تعرفه يا سيف .

فقال فى حماسة :

— أعرف الأصداء التى تتردد فى قلبى . ولكنى أتوق إلى سماع صوتك
لأننى أتوق إلى أن أستشرف السعادة منذ لحظة هذه . انطقى بلفظة
أخذها زاداً حتى نلتقى مرة أخرى . لم أكن من قبل أعرف حقيقة هذا
الذى أحسه . أنت رفيقة طفولتى وصاحبة صباى وصديقة شبابى ، ولكن

هذا كله يتضاءل إلى جانب الحقيقة التي لم أكشف عنها إلا عندما
ترعزعت وانكشف لي شقائي . لو قلت إنه الحب لكان أقل مما يصور
الحقيقة التي أقصدها : أعرف أنني أحبك حباً ينتظم كل حياتي . ولكن
الحب الذي عندي ، الحب الذي استمددته منك ، يأبى أن يتلبس في
الثوب الذي اتخذه الناس على قدودهم . إنه شيء آخر أسمى من الحب
الذي عرفه البشر منذ خلقوا له لفظاً . أقول هو . . . ماذا أسميه ؟ ولكن
ماذا يبكيك أيتها الحبيبة ؟

وكانت خيلاء قد انفجرت في نشيج واضعة وجهها بين كفيها .

فقالت خيلاء وهي تتحرك منصرفة :

— دعني يا سيف أمضي الآن .

فقال سيف في لهفة :

— إلى أين يا خيلاء ؟ دعيني أكلمك وأستمع إليك . إنني لم أسمع

بعد جواباً .

فقالت :

— هذه السعادة تطلع عليّ فجأة فتذهل الألفاظ عن لساني وتنفجر

بدموعي . دعني أذهب الآن إلى حجرتي . دعني أذهب فإني أحس

حاجتي إلى الصلاة يا سيف .

فقال سيف متمسكاً بها :

— بل قولي إننا سنخرج معاً . نخرج من هذا القصر الذي لا تربطنا

به غير ذكرياتنا . فلنخرج بها ولنذهب إلى ركن من الأركان البعيدة

على شط من شطوط الأودية أو في براح من الصحراء الفسيحة . هناك تكون دارنا لنا وحدنا .

فقلت خيلاء في صوت خافت :

— قلبي يفيض ولا أقوى على أن أفكر في شيء . دعني أذهب الآن لعل إذا لقيتك بعد كنت أهدى إلى سبيلي .

واختطف سيف يديها فقبلهما ، وكان صدر خيلاء يضطرب وعيناها تدمعان عندما تركها سيف عند باب مخدعها .

وما كادت تدخل حتى ألقت بنفسها إلى جنب تمثال العذراء تصلي صامته متجهة بقلبها الواجف إلى مورد الحب الأعلى تدعوه أن يحمي حبها خالصاً نقيّاً ، وتودع عنده عهداً على الوفاء لسيف حتى يجتمعا معاً عند كرسیه الأقدس .

وأما سيف فإنه لم يطق البقاء في مكان . كان يجد الفضاء نفسه أضيق من أن يحتويه ، ولم يعرف أين يتجه ، وخيل إليه أن الكون كله لا يهب له إلا ملجأً واحداً وهو خيلاء . فنزل إلى البستان ووجد الربيع فيه يتوهج بالأنوار ، ولكن أين يستقر فيه ؟ لم تكن أزهاره ولا طيوره تستطيع أن تستمع إليه إذا أراد أن يتدفق في الحديث ، وما كانت ظلاله الحاملة توائم سعادته الواثبة التي تنفر به من الاستقرار . يذهب إلى أمه ؟ ولكن أمه المسكينة كانت لا تقوى على التجرد من هزتها العنيفة لتؤنس بمشاركتها . وهل كان يجرؤ على أن يتحدث إليها عن أمنيته في ترك غمدان مع خيلاء ؟

وخرج من الباب الخلفى إلى الأرباض القريبة ، وكانت الأكواخ الصغيرة التى فى أطراف الربض تلوح له من بعيد هادئة قانعة راضية ، كأنها تظل تحتمل قلوباً سعيدة . وأى سعادة تنطوى تحت أحدها إذا كان يأوى إليه مع خيلاء . وخيل إليه أن يذهب إلى تلك الأكواخ واحداً بعد آخر فيحيط من هناك من المساكين قائلًا لهم : أنا ابن ذى وزن ، ويصافح الأيدى القحلة التى تمتد إليه مرحبة .

وتمثلت له صورة شعب بعيد فيه منزل منزل تطلع إليه طريق صخرية يحف بها من الجانبين صفان من شجر الطلح أو السمر ، ويمتد فناؤه الفسيح مسرحاً للعين ، وفيه أركان ظليلة تتشابك فوقها فروع الأعناب وتستر جوانبها أعواد الياسمين ، يشرف عليه القمر إذا طلع وتلمع فوقه النجوم فى الليالى المظلمة وتكون فيه خيلاء . ألا يزرى ذلك المنزل المتواضع بعظمة غمدان ؟ وود لو لم يطل مقامه بعد فى ذلك القصر الأجنبي ليلة واحدة . فهو قصر أبرهة وأبناء أبرهة ثم هو قصر يكسوم . وعادت إليه صورة يكسوم وهو يدفعه قائلًا : « ابن أبرهة أولى » . فما مقامه فى غمدان وما مقام خيلاء هناك ؟ فهى الأخرى . . .

وتذكر فى تلك اللحظة أنه لم يفكر فيما تحسه خيلاء ولا فيما تحبه خيلاء . فإنه لم يسمع منها لفظاً واحداً يدل على أنها كانت تكره الإقامة فى غمدان ، أو أنها تؤثر الإقامة معه فى أحد الأكواخ المتواضعة أو فى شعب منزل فى الجبال . وكان يرى فى سيره أشباحاً تخرج من كوخ أو توقد النار أمام خيمة قائمة ، ترغو إلى جانبها ناقة هزيلة . أفى مثل

هذه تقيم خيلاء؟ وهل يحمله غضبه على مثل هذا التفكير الذى لا يزيد على هذيان الحمى؟ وهى مع كل هذا لم تقل له سوى أن قلبها يفيض وأنها تريد أن تذهب إلى حجرتها لعلها تهدأ حتى إذا لقيته مرة أخرى كانت أهدى إلى سبيلها. لم تقل له إنها تؤثر العيش معه فى الخيمة المنعزلة أو فى ركن بعيد من شطوط الأودية. إنه هو كذلك يحتاج إلى أن يهدأ حتى يكون أهدى إلى سبيله. فأين يذهب إذا خرج من غمدان؟ ولو خرج وحده يوماً ليهم على وجهه فى الأرض كما خرج أبوه من قبل لكان أمره هيناً. فهو يستطيع أن ينام حيث يدركه الليل وأن يتحمل الجوع والعطش إذا لم يجد طعاماً أو شرباً. ولكن ما بال خيلاء؟ وفى أية غاية يجر خيلاء معه إلى عالم مجهول غير محدود المعالم؟

من أجل أية غاية؟ الحياة؟ السعادة؟ الكرامة؟

وَعَاد أدراجه بقلب ثقيل يسير نحو غمدان الذى خرج منه منذ ساعة بقلب يفيض سعادة ولا يتسع له مكان. ولما باغ القصر ذهب إلى حجرة الشيخ أبى عاصم لعله يجد فى حديثه ما يضىء له غيابة الظلام الذى خيم على نفسه.

قال الراوى :

كان نسيم الجنوب يشيع الراكبين مترفقاً وهما يسيران بين الربى
الحضراء الممتدة إلى الأفق كأنها أمواج فى بحر هادئ . وكان سيف
يسير صامتاً يناجى الصورة التى ودعته عند باب حجرتها فى الصباح
وتقول له فى صوت خافت :

— لقاء قريباً !

والتفت نحو المدينة المتباعدة تتضاءل بين نغم وعيبان ، وثبت بصره
عند قصر غمدان الباسق يسمو بقبته المرمرية التى تلمع تحت شمس
الصباح كأنها منارة فى رأس علم . لقد عرف طبقاته السبع ركناً ركناً
وحجرة حجرة ، وهما هو ذا ينظر إليه متحرك الشجن بعد أن كان
يحسب أنه لن يحس نحوه حينئذ . فهل يقف أحد وراء شرفة من شرفاته
المرمرية يرسل بصره فى آثاره خافق القلب كما كان قلبه يخفق وهو
يلتفت إليه ؟ وخطرت له خاطرة من الندم لأنه أسرع بالخروج قبل أن
يفضى إلى خيلاء ببقية الحديث الذى كان يجيش فى صدره . فهلا
تمسك بيديها وهى تسلهما من يديه فى رفق ؟ وهلا تجرأ فضمها إلى
صدره حيناً ليهدي من عنف خفقان قلبه ؟ وهلا أطال ضم بناتها إلى شفثيه

ليطفىء من حرهما قبل أن يغادر موقفه منها ؟ فقد ذهب فى الصباح
ليودعها قبل أن يسير إلى وادى زهر وليقول لها إنه سيغيب بضعة أيام فى
صحبة شيخه ثم يعود إليها ليخرجها معاً من غمدان آخر الدهر . ولم تكن
خيلاء أهدأ نفساً ولا أهدى سبيلاً بل كانت عيناها مبللتين ووجهها
يشبه الزهرة الذابلة . أأمضت ليلتها ساهدة كما كان يقضى ليلاته ساهداً ؟
ألم تكن مثله سعيدة قانعة به من الحياة كلها ؟ وتنبه على صوت الشيخ
يقول له :

— أما ملأت عينيك من غمدان ؟

فأجاب فى تأثر :

— بل أملأ منه قلبى . وأجدنى أتشبث به وأنا أبعد عنه ، وأحن إليه
وأنا أضيق به .

فقال الشيخ :

— هكذا نحن يا سيف . نضيق بالحياة حتى نملأها فنندفعها بإحدى
يدينا ونتمسك بها بالأخرى .

فقال سيف :

— ما كنت أحسب منذ ساعة أننى أعبأ بغمدان ولا بصنعاء كلها ،
ولا أننى أجد مثل هذه اللوعة التى أجدها وأنا ألتفت من بعيد إلى الوراء .
ومع هذا فإنى أحس كأن فى الجو غناء مشجياً ، ليس كله طرباً
ولا كله سعادة بل هو مزيج من الطرب والكآبة .

فقال الشيخ باسماء :

— هو الشباب يا سيف . سوف تلتفت إلى أيامك هذه بعد حين
كما تلتفت في هذه الساعة نحو غمدان . سوف تحن إلى شبابك
وأشجانه ، وتراها من بعيد زاهية زاهرة . سوف تأسى على أحزانه كأنما
هى أمنية وتود لو تعود إليها كرة أخرى .

قال سيف فأنت تحن إلى ما قاسيت في الشباب ؟

فقال الشيخ هى أحلام الشيوخ دائماً .

فقال سيف وتود لو عدت إليه ؟

فقال الشيخ أمنية جوفاء .

فقال سيف ولكنك تتمناها ؟

فقال الشيخ لا أملك أحياناً إلا أن أرحل إليها في خيالى .

فقال سيف بنى سؤال أيها الحال الكريم فغفواً إن كان فيه جرأة .

فقال الشيخ باسماء : أجيئك قبل أن تسأل .

فقال سيف باسماء : القلوب تتحدث ؟

فقال الشيخ فى عطف نعم تتحدث . تسألنى هل أنا بشر ؟

تسألنى أما عرفت الحب ؟ بلى يا ولدى .

فقال سيف أنت ؟

فقال الشيخ ومن أنا حتى لا أعرفه ؟ بل مالى لا أعرفه وهو

ما تهديه الحياة لنا ؟ ولو خلت الحياة منه لكانت قطعة من الملال

والسأم . بل لقد ارتطمت على صخور الأيام وانزلقت في مزلق الأهواء ،

وذقت أمر المرارة حيناً وأحلى الحلاوة حيناً . ولست أدري إن كانت

هذه الشيخوخة قد أخلت صدرى من ضعف البشر . نعم فأنا كما ترانى
مثل جذع نخلة تقادم عهدها كما وصفت لك نفسى ، وقد تساقطت
عنها سعفاتها وانثى عودها وجفت عصارتها . ومع هذا فليست أكذبك .
إن قلب الإنسان لا يفارقه ضعفه أو إذا شئت لا تفارقه قوته .

فقال سيف فى رنة شكر :

— أهى مواساة منك يا سيدى المبجل ؟

فقال الشيخ بل هو الحق يا ولدى . ليتنى أجروء على أن
أكشف لك نفسى . إذن لما وجدت فى نفسك شيئاً تحس فيه حرجاً
إذا كشفته . نحن نغلق أنفسنا على أنفسنا وكل منا يحسب الآخرين
أقل منه ضعفاً . ولكن أى ضعف فى سنن الطبيعة ؟ إننا نحن نفسد
هذه الطبيعة بأن نلقى عليها الأستار كأننا نخجل منها . إنه كذب
لا يقل فى بشاعته عن التدنيس . نحن ندنس الحب إذا تبرأنا منه كما
ندنسه إذا لهونا به . إنه كالميلاد والموت لا محل فيه للخجل أو الحفاء .
بل إن الذين يخفونه إنما يخفون شيئاً آخر غير الحب ، لأنه صريح
بطبيعته السليمة . وأما الذين يخجلون منه أو يسدلون عليه الأستار
المظلمة فإنما يهربون من جريمة تدنيسه أو الإسفاف به . يهربون لأنهم
يخونون سنته الواضحة ويسخرون من رسالته العليا — رسالة الحياة
نفسها .

وكان سيف يستمع إلى الشيخ فى دهشة وأنس .

ولم يلاحظ أحدهما أن السماء قد تلبدت بالغيم وأن الهواء قد استدار

إلى الغرب ، حتى لمعت لمعة من البرق فجأة وفرقع في أعقابها الرعد عنيفاً ، وأحسا قطرات من المطر تتوالى . فقال الشيخ :

— ألا نميل إلى هذا الشعب قليلاً ؟ إنه جبل ينور .

وكان سيف يعرفه ويحس رهبة كلما مر به . ودخلا في كهف فسيح به فجوات داخلية في الصخر من جانبيه كأنها حجرات حول ردهة . وكان الظلام في جوف الكهف دامساً يكاد يسمع فيه خفق أشباح خفية . وكانت بين الفجوات في ردهة الكهف مصاطب ضخمة على جدرانها نقوش وصور عجيبة ، بعضها ظاهر كأنما رفع الصانع يده عنها منذ ليلة ، وبعضها مطموس تجرى من بينه أخاديد مصقولة لأن الماء كان يتحلب عليها من شقوق في سقف الكهف . فقال سيف في صوت حالم :

— لو اتخذت الجن قصوراً لما اختارت خيراً من هذا .

ورنت كلماته بين الجدران عميقة مدوية . ثم أضاءت لمعة من البرق فتوهج الكهف لحظة فأنكشف باطنه بعيداً رهيباً ، وانطلق صوت الرعد مجلجلا فيه كأنه صوت شياطين غضبي . وكانت الريح تزف فيه بما يشبه زئير السباع .

فقال سيف كأن السماء غاضبة .

وأحس في نفسه قبضة . لم أرعدت السماء هكذا وأبرقت؟ وما الذى

قذف هذا الكهف المظلم في سبيلهما في تلك الساعة ؟

وعاد إليه شيء من الأنس عندما سمع صوت الشيخ يقول له :

— حقاً إنه مقر جدير بالجن إن أرادت مقرّاً . فمن هنا يستطيعون أن ينفذوا من ظلمات باطن الأرض فيسرقوا منها فنون السحر الأسود ، ومن هنا يستطيعون أن ينطلقوا إلى فضاء السموات ليسرقوا أسرار الغيب وطلاسم الكنوز المغلقة .

فقال سيف وماذا تصنع الجن بالغيب والكنوز ؟
فقال الشيخ باسمّاً : إنه الإنسان الذي يتطلع إليها في حماقته .
هكذا تقول القصة .

فقال سيف في حماسة : أية قصة ؟
ورحب في نفسه بأن يسمع قصة تقطع تلك العاصفة حتى تسفر السماء ويخرجنا إلى الفضاء الطلق .

فأخذ الشيخ يقص عليه قصة حسان بن تبع .
كان تبع الأكبر ملكاً عظيماً ولكنه كان فانياً . ولما أحس اقتراب الأجل بعث بولده حسان إلى كهف ينور ليستطلع له أخبار الغيب ، وكان يؤمن بمن في هذا الكهف من الجن . فلما جاء حسان إلى الكهف لقّيته جنية في صورة ساحرة عجوز شوهاء . وقدمت له وسادة يجلس عليها ، وكانت محشوة بالعقارب والأفاعي . فأبى حسان أن يجلس . ثم قدمت له صفحة من عظام وكأساً من دماء ليطعم منها ويشرب . فعافهما كارهاً . ثم قالت له : إذن فاقتل أول من تلقى إذا عدت إلى قصر أبيك .

فصاح بها حسان : إنه هراء .

فقال : أأنت واث الملك ؟ أنت تطلب ملكاً ؟

فأجابها في جفاء : بلى !

فقال : هذا سبيلك إليه . هذا سبيلك إلى الملك ، فافهم عني .

فقال لها في اشمزاز : كفاك هذراً .

والتفت منها منصرفاً .

فصاحت في أثره من لا تقتله يقتلك .

ثم رنت منها ضحكة مخيفة قف لها شعر رأسه وأسرع كالهارب .

ومضى حتى بلغ قصر أبيه فلقية أخوه عمرو عند الباب ، فضحك

في نفسه قائلاً :

— أأقتل أخي ؟ إنها عجوز مشنومة .

وسكت الشيخ لحظة ثم قال :

— أتدرى كيف تمت القصة يا سيف ؟

فقال سيف أحس قشعريرة ها هنا . وكأنني ألمح الساحرة

هناك تبص بعينها . كيف تمت القصة ياسيدي ؟

فقال الشيخ تقول القصة إن حسان لم يقتل أخاه ، ولكن أخاه

قتله . قتله عمرو بن تبع .

فقال سيف وهو يسير نحو فم الكهف

— ولكن ما العقارب والأفاعي ، وما العظام والدماء ؟

فقال الشيخ هذا سبيل الملك يا ولدي . هكذا تقول القصة .

هكذا قالت الساحرة العجوز أو جنية ينور . هذا سبيل الملك :

تحطيم العظام والولوغ في الدماء ، ولسع الشدائد كما تلسع العقارب والأفاعى .

وساد الصمت وكان سيف يحس كأن برداً يتمشى في فقار ظهره ، وصورة الساحرة العجوز تتخايل له ولا يستطيع أن يطردها . وتنفس مرتاحاً عندما تكشففت السماء شيئاً وهدأت الريح كما بدأت فجأة إلا قطرات من المطر ما زالت ترسم حلقات صغيرة على وجه المياه المتجمعة في فجوات الصخر .

وجلسا على صخرة أمام الكهف وشرد كل منهما في عالمه ، وكان سيف يعيد في نفسه قصة ينور ويتمثل النقوش التي على مصاطبه ويسأل أهى من صنع البشر أم هى من صنع الجن الذين يسكنونه . وخيل إليه أن صوتاً يشبه صوت الرياح العاصفة يتعالى في الكهف وينادى قائلاً : أأست تطلب ملكاً ؟

والتفت إلى الشيخ قائلاً : أما قلت إنك تعرف أبى ؟

فهز الشيخ رأسه فى هدوء وقال : دع الأرواح فى مراقدها . فقال سيف ولكنى أسألك عن أبى .

فقال الشيخ لا تثر الأرواح يا سيف إن كنت تريد سلاماً .

فقال سيف صفه لى صورته التى لم أرها ، فما أعجب أن يكون

أبى ولا أعرف عنه شيئاً . صفه لى حتى كأنى أراه فهذا آنس لقلبى .

صفه لى كيف كان إذا سار وإذا ركب وكيف كان صوته إذا تحدث

وما كان لونه وهيئته . ماذا كانت حاله إذا طرب وإذا غضب وإذا

صادق أو عادى . صفه لى أيها السيد المبجل فأنى أحس فى هذه الساعة شوقاً إلى أن أملأ منه الفراغ الذى خلا منذ أن عرفت أن أبرهة لم يكن أبى .

فقال الشيخ هادئاً : إن الصور حقائق يا سيف ، فلا تسرع إلى إثارتها . ها قد أسفرت السماء فهل بنا قبل أن تدركنا عاصفة أخرى .
وسارا على الهضبة الصخرية تبدو لهما الربى فى زينتها وقد زادها المطر اخضراراً ، وهب النسيم كأن لم تكن قبله زوبعة بارقة اراعدة .
وأرسلت الشمس شعاعها الخافت من خلال فلول السحاب المتناثرة فما لبثا أن صرفا بصريهما إلى الآفاق الباسمة وسارا يتأملان مناظرها فى صمت . ثم لاحت لهما جوانب وادى ضهر من بعيد وماء النهر يبرق بينها متعرجاً ، وبدا قصر ذى جدن مشرفاً فوق رايته عابساً مسيطراً على الوادى .

وبلغا الطريق الصخرى الصاعد إلى القصر فوثب الجوادان فوقه تحف بهما هوتان عميقتان عن يمين وشمال .

ولما خلا الشيخ فى مخدعه تلك الليلة تذكر صاحبه أبا مرة وهو يودعه فى ليلة النكبة من بين جثث القتلى ذلك الوداع الذى لم يلقه بعده ، ويوصيه بامراته ريحانة وولده سيف . أما ريحانة فهى هناك فى غمدان ، وما جدوى الأسف ؟ وأما سيف فهل آن له . . . ؟

وسبح فى ذكريات تلك الأيام البعيدة التى مرت منذ عشرين عاماً كأنها دهر طويل .

قال الراوى :

تأنق الربيع فى شطآن وادى زهر وتفننت به الحياة فى إبداعها ،
فكانت أزهاره تتبرج فى ألوانها ، وأعشابه تمتد فى نضرتها ، والسماء تبسم
فوقه بزرقها ، والطير يسبح فى جوه المعطر ، والظلال تنتشر تحت خمائله
وتنحسر عن بطاحه ، فكان منظره يشغل البصر والحواس معاً .

وكان سيف يخرج فيه من طى نفسه إلى عالم الحس فيجد فيه راحة
لم يذوقها منذ حين . وكانت صورة خيلاء تلازمه فى كل ركن ظليل
وكل مرج نضير ، وكلما وقع بصره على القرى المطمئنة التى تستند على
جوانبه وترسل صورها على جداوله تمنى لو كانت خيلاء معه فى إحداها
يعيشان معاً بعيدين عن ضيق غمدان الفسيح وعن بذخه الفقير ، وينعمان
وحدهما بحياة وادعة يقنع فيها كل منهما بصاحبه ويتخذة صومعته
ويتنسكان معاً فى حبهما .

كان لا يمر عليه يوم بغير أن يخرج إلى الوادى يسرح فيه وحده
أو مع صاحبه الشيخ ، ثم يعود إلى قصر جده يستزير طيف خيلاء .

ولكنه ما كاد يقضى هناك أياماً حتى جاءت إليه وفود تسعى من
مواطن شتى لم يسبق له عهد بها . بل لم يسمع يوماً بذكرها . وكانوا

يأتون إليه في أول الأمر في سر الليل ، ويجتمعون به حيناً فرادى ومثنى وثلاث ، يسمون أنفسهم له ويسمون له القبائل التي ينتسبون إليها ، ويدكرون له طرفاً من صلتهم القديمة بأبائهم من جهتي أبيه وأمه . وكان يجد في لقائهم أنساً وفي أحاديثهم متعة كأنه يطلع منهم على عالم جديد كان محجوباً عنه . فكان ينصت إليهم في شغف ويحفظ الأسماء التي يرددونها ويسألهم عن صلوات العشائر والقبائل وعن تشابك الأنساب ومجامع الأصلاب ، فإذا ما انصرفوا عنه أعاد ما قالوه في نفسه كأنه درس يحفظه . وتكاثر الوفود شيئاً بعد شيء وتجرأت حتى كانت تلم بالقصر في ساعات النهار ، وكثيراً ما كان يعود من نزته فيجد بعضها في انتظاره منذ الصباح . وقد تردد اسم ذي يزن في فجاج اليمن كأن الرياح حملته معها ، فكانت قبيلة تسمع أن أبا مرة عاد من مهربه وأقام في قصر صهره ذي جدن مهادناً لأبرهة ، وتسمع أخرى أنه عاد خفية يدبر قتالاً جديداً . وتسمع قرية أنه سيف بن ذي يزن الذي كان أبرهة يدعيه ويخلع عليه اسمه عرف حقيقة نسبه وهاجر من صنعاء ليجمع قومه حوله ويهب معهم مطالباً بالثأر لأبيه .

وكان سيف يستمع إلى هذه الأنباء في دهشة لا تخلو من ارتياح وبهجة ، فإنه إن انقطع عن نسبة أبرهة قد وجد عوضاً عنها في هذه الألف التي تفتح له صدرها وتهتف باسمه وأسماء آبائه في اعتزاز . وكان أحياناً يحس في نفسه حرجاً أو نفوراً من الأعراب الجفاة الذين كانوا يلتفون به في غير تجميل ويحيونه في غير تكلف ويقحمون عليه قرابة لا يعرفها .

فكان يقلق في مجلسه ويود لو قاموا عنه وخلوا بينه وبين الوحدة التي جاء ينشدها .

على أنه اعتاد كل يوم أن يعقد مجلسه في فناء القصر يتلقف من ضيوفه أخبار أبيه وجده وقومه ، حتى انتزع من أحاديثهم صورة أبيه وصار يراها من وراء ضبابها أكثر وضوحاً وأقل شحوباً ، وصار كلما سكن في خلوته يتمثلها ويسأل نفسه أين يكون أبوه في تلك الساعة ؟ وكان أحياناً يشرد مسحوراً بها كأنه يراها تشير إليه أن يتبعها . أيستطيع في يوم من الأيام أن يرى ذلك الأب وأن يسند كتفه إليه . ولكنه كان كلما أجهده السبح وراء تلك الصورة اختفت عنه فجأة كأنها كانت تسخر منه ، فيذكر قول الشيخ أبي عاصم عندما قال له : « دع الصور في مراقدها ولا تقلقها » ، فما جدوى ذلك الخيال العقيم الذي يضل معه وراء أمنية مجدبة ، وتقطع ما بينه وبين الحقيقة الماثلة التي تملأ حياته : خيلاء . أخرج من أرضه ويتركها وراءه ويهدر السعادة التي تثوى عندها في طلب خيال ؟

وعاد ليلة من مجلسه بعد أن مضى أكثر الليل ، وكان مجهداً ضيق الصدر فأراد أن يذهب عنه الضيق بذكر خيلاء . ولكنه كلما تمثلها عادت إليه أصداء المجلس الذي كان فيه فيشرد عنها ويستغرق في أمواج من الهم . وكأنه سمع هاتفاً يهتف به في صوت يشبه الصوت الذي سمعه في كهف ينور قائلًا : « أأنت تطلب ملكاً ؟ » وتمثلت له صور العقارب والأفاعي والعظام والدماء وأخيه « مسروق » كأنه

يراه عند باب غمدان . ألا يكون ذلك الذى يراه عند الباب هو يكسوم الغليظ القلب ؟ إذن لجرد سيفه وأغمده فى صدره بغير أن يحس أسفاً .

أهو يطلب الملك حقاً ؟ إن هذه الجموع التى تلتف حوله فى كل ليلة لا تكاد تدع له سلاماً ، وكأنها تصبح به هاتفة بصوت ساحرة الكهف قائلة : « أأنت تطلب الملك ؟ » .

وطلع عليه الصباح ولم تغمض عيناه ، فعزم على أن يخرج مبكراً إلى نزهته حتى لا يلتقى أحداً من هؤلاء الذين يكادوا يجعلون مقامه هناك حملاً ثقيلاً . ووجد الشيخ أبا عاصم حيث تركه مضطجعا فى مجلسه كأنه لم يذق هو كذلك نوماً . فتبسم له الشيخ قائلاً : « لا أراك ذقت النوم فى ليلتك » ، فقال له سيف :

— أحب أن أرى مطلع الشمس فى الوادى .

فهب الشيخ ولف رداءه قائلاً :

— كدت أسبقك إلى هناك .

وخرجا معاً إلى الهضبة المقفرة التى فى ظهر القصر وكان الوادى ينحدر من هناك تحتها عميقاً فى أخدود قائم الجدران ، يتعرج فى ثنيات متوالية . وكان قاعه يبدو فى النور الخافت فى ألوان مختلفة بين بياض الماء وشبهة الرمل وسواد النبات كأنه ظهر حية تتلوى هاربة . وأشرفا بعد حين على طنف بارز من جانب الوادى فيه أطلال بالية تصف بقاياها رسم معبد قديم لم يبق منه إلا أركان شاحبة لوحتها الشمس ، وبرتها

الأمطار ونخرتها الرمال السافية مع الرياح . وكانت بقايا البناء قطعاً ضخمة ما تزال راسخة على أساسها كأنها عماليق أدركتها الهزيمة وهي تتعثر في أعقاب معركة هائلة . كانت الأحجار تحمل آثار جراحها والأعمدة المحطمة ملقاة على الرمال معفرة مثل أشلاء الصرعى ، هنا قطعة من عمود مرمرى ما زالت صفحتها الصقيلة تلمع في شعاع الشمس المشرقة ، وفتات الحصى متعلق بأصلها وأعواد خضراء من الحشائش والأعشاب تنشب جذورها في شقوقها ، وهناك لوحة من صخور داكنة أو وردية أو بيضاء عليها نقوش وصور لا يدرى أحد ماذا تصف من شئون الذين بنوها وعاشروها حيناً ثم خلفوها . وفيما بين تلك قطع مهشمة من تماثيل لم يبق من ملامحها إلا ما يبق من هيكل جثة محنطة ، من تلك التي كان الأعراب يعثرون عليها في المقابر ويمزقون عنها لفائفها في طلب ما قد يكون عليها من الذهب أو الجواهر . كان منظرًا حزيناً جليلاً زاده روعة منظر الرمال المتموجة الصفراء التي كانت تمتد إلى الأفق من وراء الحطام حتى الأفق الشرقي ، لا يقطع صمتها صوت سوى طنين الحشرات المتطايرة ، أو صدى صوت عصفور يزقزق من بعيد ثم يختفي سريعاً كأنه يسخر ممن يدب على الأرض بطيئاً .

وذهب الشيخ إلى أقصى الطلل فاعتمد على أصل عمود قائم ، ينظر نحور بوة تكللها قطع رقيقة من السحاب الأبيض ، وشعاع شمس الصباح يقع عليها في ألوان ذهبية وردية ، وتنفس نفساً عميقاً عندما سمع صوت سيف يناديه :

— أشاعر على طلل ؟

فقال الشيخ باسمًا :

— ومن ذا الذى يقف هنا ولا يشعر ؟

فقال سيف :

— أى قوم ملأوا الأرض بهذه البقايا ؟

فقال الشيخ :

— هذا ما كنت أقوله لنفسى . كانوا أجيالا من الملوك يا سيف .

لكأننى أرى هذا البناء المتهدم عند ما فرغ الصناع من صقله ونقشه ،
وكأننى أرى الملك الذى أحدثه ينظر إليه معجباً ويقول : « ها أنذا قد
خلدت ذكرى » .

فقال سيف :

— أتذكر اسم أحد من هؤلاء ؟

فقال الشيخ :

— نسى اسمه كما تهدم بناؤه . ولكنه كان ملكاً عظيماً .

وماذا عليه أننا لا نعرف اليوم اسمه ، وهبك سميته تبع أو مرثد
أو وائل ، فماذا كان اسمه يزيدك به علماً ؟ لقد كان ملكاً عظيماً
وكفى .

فقال سيف :

— ولكن هذا الفناء يملأ نفسى حزناً . كل شيء هنا ينادى قائلاً « كنا » ،

أو يقول : « ما هذه الحياة سوى باطل وغرور » .

فقال الشيخ باسمًا :

— ولكنى أسمع لغة أخرى . كأن هذه الأطلال تقول إن الألوف كانوا يحجون إلى هنا يملأون الفضاء الذى تراه اليوم مقفرًا ، وكانوا ينظرون إلى هذه الأعمدة ويتأملون جمالها ويعجبون بها خاشعين . وكانوا يدخلون إلى المعبد ويستمعون إلى أناشيده تردد بين جنبات المحراب جليلة فتمتلئ قلوبهم تقديسًا ، ويخرجون بعد ذلك إلى الصحراء ويطلقون أنفاسهم فى جوها وهم يحسون أنهم ألقوا عن كواهلهم أثقالها . فالتوبة للآثم والعزاء للحزين والأمل للبائس .

وصمت هنيهة وسيف ينظر إليه مستغرقًا . وكانت الشمس تخطر فى موكبها فقال الشيخ :

— لا يلهينا الحديث عن جلال الصباح يا سيف . إن موكب الشمس مشرقة أعظم بهاء من موكبها غاربة . هذا أجدر أن يكون تنمة حديثنا .

فقال سيف باسمًا وهو ينظر إلى الشمس :

— إنك تنطق الأشياء كما تحب يا سيدى المبجل . حقًا ما أبدع الشمس فى إشراقها على طلل مثل هذا . الحياة والفناء معًا .

فقال الشيخ كأنه يحدث نفسه :

— حكمة أبدية تنطق بها الأشياء جميعًا . غروب وشروق . حياة وفناء . شباب وشيخوخة ، وكلها تتعاقب فى دورات متوالية . الحياة بعد الفناء ، والشروق بعد الغروب ، والشباب بعد الشيخوخة . لا عبرة هنا

بالأفراد فإن سنة الحياة لا تقف عند حدود حياتنا الفانية ، الحياة في إبانها والفناء في إبانه وكلها تخضع لحكمة أزلية ، تدبرها يد عليا .
فقال سيف :

— أتؤمن بيد عليا يا سيدى الشيخ ؟

فقال الشيخ باسمًا :

— لست أدري يا ولدى . بل كأنى لا أفهم ما أقول . [هى لحظة تقع فى النفس غامضة] ، فإذا حاولت أن أفصح عنها تعثرت الألفاظ وناءت بحملها . ولو فتح الناس قلوبهم لأدركوا بها فوق ما يدركون من هذه الألفاظ التى ندعى أنها وسيلتنا إلى البيان . كل ما فى الكون ينطق لمن يستطيع أن يدرك كلماته . كل حركة بميزان وكل شىء لحكمة . حتى الأمم فى حياتها وفنائها تتكلم .

فقال سيف : قائله ؟

فقال الشيخ : تقول إن الأمم تفتى عندما يحق عليها الفناء وتحيا إذا استحقت الحياة .

•

فقال سيف ولا تملك شيئاً من أمرها ؟

فقال الشيخ بل تملك كل أمرها . ليتنى أستطيع يا سيف أن أبين لك ما أريد ، فإنى كلما نطقت بشىء سمعته فى أذنى غامضاً فاتراً لا يصور الحقيقة التى أحسها .

فقال سيف بعد صمت لحظة :

— كأنى أفهم طرفاً مما تقول ياسيدى المبجل . وأسأل نفسى

كيف ذهب قومي .

فقال الشيخ صدقت يا ولدي ، فإن المعاني لا تتجسد إلا في
حادثة .

وصمت لحظة ثم قال

— لك أن تعجب إذا قلت لك إن هذه أول مرة ينصرف فيها
فكرى إلى سؤالك هذا . كيف ذهب قومنا ؟ أهى غضبة من الأقدار ؟
هكذا يقول بعض الذين يخادعون أنفسهم ويريدون أن يلقوا ذنبهم على
وهم غامض لا يستطيع أن يقول لهم كذبتهم . إن للأقدار حكمة ولكنها حكمة
نستوحىها نحن من الحوادث . أما الأقدار نفسها فليست تغضب فتعصف
بالناس أو ترضى فتحابيهم . الأقدار لا تغضب على أحد ولا تحابي أحداً
وهى مثل الدهر الذى يمر علينا فهرم ونفئ ، ومثل الفلك الذى يدور
في دوراته فيطلع النجوم في أوانها ويغيبها في أوانها .
ومع ذلك فإننا نستطيع أن نستوحى حكمتها من الحوادث ، أو من
أنفسنا .

فقال سيف أنفسنا ؟

فقال الشيخ نعم يا ولدي . إن في أنفسنا عالماً كبيراً لو تمكنا من
إدراكه لكان ذلك حسبنا . فينا كل عناصر الضعف وعناصر القوة ،
فينا الحيوان والحكيم وفينا الشيطان والملك أو هو الشر والخير ، ولنا أن
نختار في سلوكنا ما نشاء في نفوسنا .

فقال سيف والناس يختارون دائماً . لأنهم يطيعون طبيعتهم .

فقال الشيخ : وهذه هي التي أسميها حكمة الأقدار . فإذا اختار الناس ما فيهم من ضعف ومن حيوان ومن شيطان حق عليهم الفناء .
فقال سيف : أهكذا اختار ذو جدن ؟ أهكذا اختار ذو وزن ؟
فقال الشيخ من يكون ذو وزن وذو جدن ؟ لن يستطيع فرد أن يقاوم سنة الخليفة .

فقال سيف إذن فلا حيلة لنا ؟ فما معنى اختيارنا ؟
فتبسم الشيخ قائلاً : مرحى يا سيف ! حجة قوية . نعم يا ولدى لن يستطيع فرد أن يختار لأمة . لن يستطيع فرد أن يرد تيار أمة . ولكنه يقدر على أن يضرب المثل الأعلى .

فقال سيف لمن ؟ لقوم يختارون لأنفسهم الضعف ؟
فأجاب الشيخ : صدقت مرة أخرى يا سيف . الناس يختارون لأنفسهم حقاً . ولكن الإنسان على ما فيه من أخلاط الضعف ينطوى على ضمير . نعم للإنسان ضمير يتعلق دائماً بالمثل الأعلى .

فقال سيف كأنه يحدث نفسه : المثل الأعلى !
فقال الشيخ في حماسة نعم يا ولدى . هو الذى يمس ضمير الإنسانية دائماً . هو الذى تتعلق به الأمم دائماً حتى فى أشقى حالاتها . لن تجد أمة تنطق بلسانها العام إلا رددت مثلاً أعلى . هى لا تنتظر إلا من ينطق لها أولاً . هذا هو المنبع .

فقال سيف هذا هو المنبع ؟

فقال الشيخ نعم يا سيف ؟ هذا المنبع الذى تستمد الأمم منه

حياتها . لسان صادق يهتف أولاً بالمثل الأعلى .

فقال سيف : ولم لا ينطق به الناس . لم لا تنطق به أنت مثلاً ؟
فقال الشيخ : تسألني لم يا ولدي ؟ لست أدري . ولكنه قد كان .
من السهل أن نتحدث هكذا ، فإنه لا يكلفنا إلا أن نتكلم . ولكن
الصعوبة هي أن نفعل وأن نستطيع .

فقال سيف إذن فلا جدوى من كل هذا . إنها أحجية
يا سيدى ، وعفواً إذا قلت هذا . إنه لغز . تقول إننا نستطيع أن نختار
وأن ننطق بالمثل الأعلى وأن هذا هو المنبع ، ثم تقول إننا لا نستطيع
أن نفعل .

فقال الشيخ هادئاً : مرحى مرة أخرى يا سيف . حجة قوية .
نعم يا ولدي صدقت فإننا نستطيع أن نفعل إذا كان لنا القلب الذى يؤمن
والحنان الذى يقوى ، ثم . . .

وضمت قليلاً وسيف ينظر إليه فى لهفة . واستأنف قائلاً فى تمهل :
— ثم التوفيق يا سيف . التوفيق إلى أن يستمع الناس ويؤمنوا .
وأطرق سيف حيناً طويلاً ثم قال فى صوت خافت :
— حدود وقيود لا يكاد يلوح فيها أمل .

فقال الشيخ : بل فيها الأمل يا سيف . القلب المؤمن والحنان
القوى واسم ذى يزن .

فقال سيف فى صيحة ذو يزن ؟

فقال الشيخ نعم يا سيف بن ذى يزن . كأنى أرى مشرق

الشمس غداً إذا كان لك القلب المؤمن والحنان القوى .

فقال سيف كالحالم : القلب المؤمن !

فقال الشيخ فى حماسة : نعم يا ولدى . القلب الذى يحس أن الحياة لا تستحق شيئاً إذا لم تكن فى ظل الكرامة والحرية ، والذى يؤمن بأن الحياة تكون دنسة كريهة فى ظل العبودية ، والذى يمتلىء اعتقاداً أن الذى خلق الإنسان يغضب عند ما يراه لا يسمو إلى إنسانيته . ثم رفع بصره إلى سيف باسماء وكان الفتى يعلق بصره فى وجهه مستغرقاً :

ومضى الشيخ قائلاً انظر إلى الشرق يا سيف ، ولا تضع ما خرجنا من أجله . هذه هى الشمس المشرقة التى غابت تحت الأفق بالأمس .

وكانت شطآن الوادى تتفتح للصباح وتتضح فيها الحدود بين الماء والمروج الخضراء ، وخرجت الطيور إلى غصونها ، ورف النسيم على الصحراء الصامتة . وسارا يصعدان حيناً ويهبطان حيناً نحو القصر فى صمت ، وكان فى الفناء جمع كبير من الوفود فاتجه سيف إليهم بقلب يفيض أملاً . إنهم قومه الذين يستطيع أن يصبح فيهم بقلب مؤمن وحنان قوى وأن يرى معهم شروق الحياة مرة أخرى على اليمن السعيدة .

ومر به اليوم وصدر من الليل لم يحس ضيقاً ولم يفتر نشاطه ، حتى خلا إلى نفسه مرة أخرى فى الليل ، وكان القمر الناقص يرمق النجوم فاتراً والهواء البارد يحمل أريج الزهر من الوادى . وعاد إلى

سبحه في أصداء أحاديث الوفود المثيرة ، وكان طلل المعبد يبرق له في شمس الصباح وصوت الشيخ يرن في سمعه يقول له : « إن موكب الشمس مشرقة أعظم بهاء من موكبها غاربة » . وخيل إليه أن الصوت الذي كان يهتف به قائلاً : « أأست تطلب ملكاً ؟ » قد صار عالياً يشبه هدير الرياح في كهف ينور . أحقاً يفتح المعامع التي تذيقه لسع الأفاعي والعقارب وتطعمه العظام والدماء . وتجعله يقتل أول من يلقاه وإن كان أخاه ؟ وأين إذن خيلاء ؟ أين الآفاق العلى التي يسمو إليها إذا استمع إلى نجواها ؟ أهذا بعض الثمن الذي تتقاضاه الأقدار إذا شاء أن يسير بقومه نحو الشروق ؟ وخيل إليه أن الفضاء الأغيش الذي يترامى تحت عينيه قد امتلأ عظاماً رميمات تسيل من بينها الدماء الحمراء . وقام مسرعاً من مجلسه يهرب من المنظر المرعب يلتمس السلام في صورة خيلاء عازماً على أن يستعيد أحاديثها إلى جانب الوعاء المرمى .

وعزم على أن يجعل الليلة خاتمة تردده ، وأن يعود من الغد إلى صنعاء ليلقي خيلاء ويتم معها حديثه الذي لم يبلغ بعد منه المدى . سيذهب إليها فاتحاً لها ذراعيه مؤثراً معها السلام والأمن ، مؤثراً إياها على كل المطامح النافهة التي أخذت تراوده عن سعادته . وسيخرج بها من غمدان إلى قصر جده ويصد عنه تلك الجموع التي تريد أن تلوى به إلى تيه بعيد الأغوار معقد الشباب . ولما واثاه النوم بعد حين ألم به طيف خيلاء وكانت باهرة الحسن ، لم يرها يوماً في مثل ذلك البهاء .

ولكنها كانت دامعة العين تمد إليه يديها في ضراعة كأنها تعاتبه على هجرانه . وقال لها :

— فديتك يا خيلاء لم تبكين ؟

فقالت تعتذر :

— أكننا نسير في صحراء ؟ أكننا نتجّه إلى سراب ؟

فناداها في لهفة :

— لم تتكلمين هكذا ؟ ما تلك الصحراء التي تذكرينها وما ذلك

السراب ؟ كأنك تنطقين ببعض ما كنت أنطق به في سورة جنوني ويأسى . تعالى نذهب معاً إلى حيث نجد السعادة ، فليس هناك صحراء ولا سراب . هناك سلام وحقيقة . ألا تعرفين أنني وجدت قومك وقومي ؟ فلنذهب إليهم . ولننس كل شيء هنا .

وذهب إليها ليضمها بين ذراعيه ولكنها لم تكن سوى خيال ، فاخفت عنه وهو يفتح عينيه ويحس في قلبه حسرة وضيقاً . وكان قلبه يخفق تأثراً وقطرات من الدمع تبلل عينيه . وكان القمر الناقص ما زال يخوض في السحب هابطاً في السماء نحو الغرب شاحب اللون مثل طعين منهزم يتوارى في جثث القتلى — مثل أبيه . وقام من مرقدّه يحاول أن يعيد إلى نفسه هدوءها ولكن الحلم كان في نفسه كالحقيقة .

وطلع عليه الفجر مثل الطفولة البريئة تطلع على الشيخ الفاني ، فتبعث إلى قلبه شيئاً من الدفء والبهجة ، وبدأ الطير يتناجى ويسبح بتحية الإشراق ، ثم تزايد النور شيئاً بعد شيء حتى لمعت من الأفق

خيوط ذهبية تصبغ السحب . إنه موكب الشمس المشرقة مرة أخرى .
ثم سمع صوت طارق يدق باب مخدعه فأجفل وداخله شعور غامض
بأنه أمر خطير ؛ ورأى أمامه الشيخ أبا عاصم ، وكانت نظراته تنم
عن حديث .

فبادره سيف قائلاً :

— عم صباحاً يا خال .

فقال الشيخ :

— عمت صباحاً يا ولدى .

ووقف ينظر إليه صامتاً .

فقال سيف في لهفة :

— نظرتك تتحدث يا سيدى .

فقال الشيخ وفي صوته رنة من الأسى :

— أبرهة !

فصاح سيف في فزع : ما لأبرهة ؟

فقال الشيخ لك طول البقاء .

ثم دخل وأخذ يحدثه بما سمعه من وفود أتت في الليل تحمل ما سمعته

من أنباء تطايرت إليهم مع الركبان العابرة .

قال الراوى :

« إننا نتحرك معاشر البشر كما تريد لنا الطبائع المركبة فينا ولا نملك من مصائرنا شيئاً سوى ما يخيّل إلينا أننا نملكه منها . الحب والكراهة والأمانى والأوهام تدفعنا وتأخذ بزمامنا قسراً ، ونحن نحسب أننا نسعى إلى غاية مقدورة دبرناها بأنفسنا ، ونخدع فيملئ علينا الغرور أننا نختار كل أمورنا بعقولنا وإرادتنا . نحن كالمسافر في غابة كثيفة لا نرى منها إلا الخطوة التى نؤشك أن نخطوها ، ثم إذا خطوناها لم نزد على طاعة الحدود والقيود التى تحتتمها الطبيعة علينا . قد نتجه يمينا أو شمالا ، وقد ينتهى بنا السير إلى بقعة مكشوفة تسطع عليها أشعة الشمس ، فيملؤنا الإعجاب بأنفسنا ونقول ما كان أحسن اختيارنا . وقد ينتهى بنا الطريق إلى هاوية عميقة أو سد قائم أو وجار وحش ضار فنقف حائرين ونتهم عند ذلك صروف القضاء ونندب حظنا . ولو تأملنا حياة من سبقنا لأدركنا طرفاً من الحقيقة التى نضل عنها ، وهى أن لها حكمة وخطة أعلى من حكمتنا وأصرم من خطتنا . »

هكذا كان الشيخ أبو عاصم يتحدث إلى سيف عندما حمل إليه أنباء الفاجعة التى حلت بأبرهة ونجيشه فى الهضبة المطلة على مكة . فلنرجع

إلى أبرهة بعد أن سار من صنعاء تملؤه أمانى المجد والسيطرة وتحذوه الثقة بتحقيق الحطة التى دبرها .

كانت الأمانى الفسيحة تنداح أمام عينيه . سيكون حامى النصرانية فى الجنوب كما كان قيصر حاميا فى الشمال ، وسيبقى ملكه أخلد من ملك يوسن ويوسنيان ، فإن الله وهب له ما لم يهب لهما : ثلاثة أبناء من زوجته - نعم ثلاثة أبناء لأنه وعد ربحانة ألا يتخلى عن ولدها . ولن يضيره أن يجعل ولدها ملكاً على الحجاز بدلا من ذلك الدعى قيس بن خزاعى الذى يطمع فى أن يكون خليفته هناك . ولا شك أن أهل مكة يرضون عن ملك سيف أكثر من رضائهم عن ملك رجل من العامة . لكن أحلام أبرهة لم تدم طويلا ولم يكن سيره إلى أرض الحجاز نزهة خريف ولا موكب مجد ، بل كان قتالا عنيفاً مع أعداء اجتمعوا له من فجاج الأرض يحاربونه فى صرامة .

ونخشى أبرهة أن يضيع وقته وجهده فى شعاب ضئيلة تعوقه عن تحقيق غايته الكبرى . فترفق ولجأ إلى حيلته وبذل لأعدائه الوعود واستمال رؤساء العشائر بالهدايا حتى اضطر أعنف الزعماء إلى الاستسلام ، وكان نفيل بن حبيب وذو نفر ممن خضعوا له وتعهدوا أن يكونا دليلين لجيشه فى أرض الحجاز يسندانه بالنصح ويفاوضان له زعماء قریش .

فلما لاحت له مكة آخر الأمر كان الحريف قد تصرم وجاء الشتاء يزحف سريعا . ووقف بجيشه على الهضبة يشرف على وادى المحصب ، وظهرت مكة من تحته صاعدة على جانب جبلها الأغبر

وهابطة إلى البطحاء الفسيحة الجرداء ، وكانت الكعبة مطمئنة على
ساحتها الرملية وأشعة الشمس تغمرها لا يعترضها شيء يلتقى تحته ظلاً .
وهبطت طلائع الجيش إلى الوادى فسأقت ما فيه من الإبل غنيمة ،
ولكنها لم تجد به أحداً سوى بعض العجائز والصبية ، لأن حماة المدينة
أحسوا اقتراب الجيش وعرفوا ما يريد أبرهة منهم فأجمعوا على أن يصعدوا
في شعاب الجبال ليتربصوا هناك بعدوهم كلما وجدوا منه غرة .
وأشار نفيل بن حبيب على أبرهة أن يتزل فى فضاء الهضبة
المشرفة على الوادى لعل أهل مكة يعودون إلى أنفسهم ويتزلون على
حكمه بغير قتال . وتردد أبرهة حيناً وهو ينظر إلى الصحراء الجرداء
التي تمتد إلى دائرة الأفق ، فماذا يجد هناك ليمد به جنده وخيله وفيلته ؟
ولكنه مع ذلك أمر بإقامة معسكره راجياً أن تبعث إليه قريش رسلها
تسأله السلام . « وهل كانت قريش لتصبر على الحرب وهي أمة من
تجار ؟ إنهم لا يحرصون على شيء سوى المال والسلام » . هكذا قال
نفيل وصدقه ذو نفر .

وبالغ نفيل فى النصيحة فعرض أن يذهب إلى مكة ليدعو سادة
المدينة إلى الاستسلام ضارباً لهم المثل بنفسه وبصاحبه .
وعاد نفيل بعد يوم ومعه شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم .
فكان ذلك عند أبرهة أول الفوز . فاستقبل الشيخ فى قبته الكبرى
ونظر إلى نفيل شاكراً ، ودعاهما إلى الجلوس معه فطرح لهما فراشاً على
الأرض وأبى إلا أن يكون مجلسه إلى جنبهما .

وقال مرحباً بالشيخ :

— إني سعيد بأن أراك يا أبا عبد الله .

ولكن عبد المطلب لم يحبه ونظر إليه متجهماً .

وقال أبرهة متسائلاً :

— ما بعثت إليك يا أبا عبد الله إلا رغبة في السلام . فبا لك لا ترد

على تحيتي ؟

فقال عبد المطلب بصوته العميق :

— عفواً أيها الملك فإنك رجل سمعنا بحلمه قبل أن نراه .

فنظر أبرهة إلى نفيل نظرة عاطفة ، وأنصت إلى الشيخ في اهتمام .

ومضى عبد المطلب قائلاً :

— عرفنا رجاحة عقلك وتجاوزك عن ذنوب أعدائك ، ثم جئت

إليك فأوسعت لي وأكرمت مجلسي بجلوسك معي .

وصمت قليلاً ثم قال :

— واتجهت إلى بتحيتك الكريمة قائلاً إنك سعيد بأن تراني . ولكني

أكذب عليك إذا رددت بتحيتي قائلاً إني سعيد بأن أراك هنا .

ثم التفت إلى الحيام التي تملأ فضاء الهضبة .

وكان أبرهة يجيل بصره في وجهه المجدد الذي تلمع فيه عينان واسعتان

مضيئتان لم تطفئ الشيخوخة شيئاً من وهجهما . وقال بعد صمت

لحظة :

— لعل أبا حبيب لم يقل لك إني لم أجيء إليكم غازياً .

فتبسم الشيخ حتى علا اللون في وجهه وقال : بل قال لنا ذلك وأدى أمانتك على وجهها أيها الملك .

فقال أبرهة وإذن ؟

فقال الشيخ في صوت خافت :

— إذن لقد تكلفت شططاً أيها الملك .

فقال أبرهة وقد أحس صدمة :

— ماذا تعني ؟

فقال الشيخ : أعني أنك تأتي بهذا الجيش الكبير وهذه الفيلة الضخمة التي لم يطأ أرضنا مثلها من قبل ، وتملاً فضاء الهضبة بخيلك ورواحلك وأنت تعلم أن صحراءنا تضيق عن سرحنا نحن ، ومع هذا تقول إنك لم تأت غازياً . فإذا لم تجئ غازياً فهل جئت مع هؤلاء حاججاً . وكانت نبرات صوته الهادئ تفيض سخرية .

فجمع أبرهة أطراف ثوبه وفي نفسه دفعة من الغيظ ، ولكنه ملك نفسه وقال هادئاً :

— ماذا قلت يا أبا عبد الله ؟

فقال الشيخ هادئاً :

— أسألك هل جئت حاججاً . هل جئت تحج إلى هذا البيت العتيق

الذي يحج إليه الناس جميعاً ؟

ولمعت عيناه ببريق فيه لون من السرور المكبوت .

فقال أبرهة متحدياً :

— بل جئت لأهدمه . أمثلى يحج إلى هذه الكعبة الشوها ويصلى إلى هذه الأوثان ؟ ما جئت إلا لأهدمها ، وما بعثت إليكم إلا رحمة منى أن أسفك الدماء فى قتال من أجل كومة حجارة . فكيف ترضى وأنت شيخ حكيم كما علمت أن تعبد هذه الدمى وأن تقول إننى جئت لأحج إليها ؟ هذه الدمى الحجرية الرخيصة .

فقال عبد المطلب وزادت عيناه التماعاً :

— نتخذها لك من ذهب إذا شئت أيها الملك .

فقال أبرهة غاضباً :

— أشيب وسخرية ؟

فقال الشيخ جاداً : عفواً أيها الملك فما قصدت سخرية . ولكنى

عجبت لقولك إن آلهتنا دى حجرية رخيصة ، وإن كعبتنا كومة من حجارة ، فما نعبد الدمى ولا نطوف بكومة الحجارة إلا كما تعبد إلهك فى القليس . نحن نتسلم عندها ونتصافى ، ونظهر نفوسنا بالتعبد فى جوارها ، كما يتعبد الناس فى أركان الأرض كل على طريقته .

فقال أبرهة فى جفاء : لم أبعث إليك لتتحدث فى هذا .

فقال الشيخ : فأنا سامع لما بعثت إلى من أجله . فيم بعثت إلينا

رسولك أيها الملك ؟ أبعثت إلينا لننزل على حكمك ؟

فقال أبرهة أما عندك قول تفضى به فيما قلت آنفاً ؟ ما بعثت

إليك إلا لكى أمد إليكم يد صديق يريد السلام . سلى أيها الشيخ

ما شئت تجدنى سريعاً إلى الاستجابة . أما عندك قول ؟

فقال الشيخ بعد لحظة صمت :

— إذن فاردد ما أخذت من أموالى . هذا سؤالى إن كان لى

سؤال .

فنظر إليه أبرهة فى دهشة ، ولم تخف عنه حركته عندما رفع حاجبيه

الكثيفين يلحظه من جانب عينيه . وقال كأنه يتحضر لمنازلة :

— والكعبة ؟ ماذا عندك فى شأنها ؟ ألا تراها جديرة بأن تحدثنى

فيها ؟

فقال الشيخ قلت لى أن أسألك ما أريد . وما كان لى أن أتحدث

إلا عما أملك . ليست الكعبة ملكاً لى ولا ملكاً لأحد من قومى . إنها بيت

الله لا بيت أحد منا . وما بيوتنا إلا هذه التى تراها هناك صاعدة فى

الجبل أو هابطة إلى البطحاء .

وأشار بيده إشارة عامة بغير أن ينظر نحو المدينة ، ثم واجه أبرهة

قائلاً :

— ومع ذلك فقد هجرنا هذه البيوت التى نملكها ، ولا نعبأ بما

يصيبها ، ولا نقيم اليوم إلا فى شقوق الصخر وشعاب الأودية الوعرة .

وأحس أبرهة أنه حيال رجل عنيف يجمع ما فى نفسه . وقال وهو

يحاول أن يملك غضبه :

— أهذا كل ما عندك ؟

فقال الشيخ بنبرات تنم عن تأثر :

— وما أملك أن أقول أيها الملك ؟ سننتظر الغد وما يسوقه إلينا .

فاذهب إلى الكعبة واهدمها كما تقول . وإذا شئت فاهدم هذه البيوت حجراً حجراً . لن تجد هناك من يلقاك لأننا لا نقوى على أن ننازلك في معركة . لك القوة والسطوة وليس لنا سوى قلوبنا . لن نكون عبيداً لسلطان وإن عجزنا عن لقاء قوته . قد هربنا بحريتنا وكرامتنا وأعراضنا وهذه هي كل ما نحرص عليه في حياتنا . ومسيحكم القضاء حكمه فيما بيننا .

فقال أبرهة وكأنه تأثر بقوله :

— أهكذا يقول من أمد يدي إليه بالسلام ؟

فقال الشيخ عفواً أيها الملك لما تسمع من قولي ، فإنني لا أقصد التناول ولا التحدى . ولكني لم أجيئ إليك أقصد خداعاً . إنني شيخ كما ترى ، وقد عركت الأيام وعركتني منذ كنت طفلاً يتيماً ، فلم أجد في الحياة ما هو أجدر بي من أن أقول الحق صريحاً ، فلا تنتظر مني كلمة كذب ولا رياء . لا أحب أن تكون كلمتي وديعة وقلبي يضمرك لك حرباً ، ولا تحسب أنني أحب الصدق في نفسي ثم أرضى بغير الصدق في فهمي . فماذا تقصد بقولك إنك تمد إلينا يدك بالسلام ؟ إنما سبيل السلام واضحة .

فقال أبرهة متحفظاً :

— وما تلك ؟

فقال الشيخ : انصرف بجيشك عائداً إلى صنعاء . فإذا فعلت هذا

لحقنا بك منذ الغد نحمل إليك شكرنا وصادقتنا .

فقال أبرهة ساخرًا :

— عجباً منك أيها الشيخ .

فقال عبد المطلب هادئاً :

— وما وجه العجب أيها الملك ؟

فقال أبرهة في دفعة :

— عجبت منك غير مرة وإن كنت صبرت عليك نفسي

ومددت إليك يدي مسالماً ، فما ذلك إلا أني لا أدع فرصة في السلام تنفلت من يدي ، ولكنك تأبى إلا أن تردني ساخرًا . سألتني أجئت حاجباً وأنت تعرف أنني أدعوكم إلى الحج إلى قليسي . وقلت لك سلني ما شئت فنسيت كعبتك وآلهتك وقومك وحدثتني عن إيلك . ثم تريدني آخر الأمر على أن أعود أدراجي حتى تلحق بي لتشكرني . أجاداً تنطق أم هازلاً ؟ أليس في كل ذلك ما يدعو إلى العجب الأعجب ؟

فتبسم الشيخ قائلاً : ألم تسمع قبلي رجلاً صدقك ؟

فثار أبرهة قائلاً : أشيخ قريش أم سوقة ؟

واتجه إلى نفيل قائلاً : من ذلك الذي جئت به يا نفيل ؟ أهو

أبو عبد الله حقاً ؟

فقال عبد المطلب مبادراً : أتسأل عني يا أبا يكسوم وأنا أسمعك ؟

أسمعت مني سفهاً ؟

ففقهه أبرهة قائلاً :

— بل سمعت عجباً .

فقال الشيخ هادئاً :

— ما هكذا نقهقه في نواديننا إذا تحدثنا في الجدل . وما هكذا نقهقه

إذا طالبنا أحد بحقه . إننا نعرف الحق ونقدره وننصر المظلوم ونتعاون على رد المعتدى .

فقال أبرهة في جفاء :

— ما أشد خيبتى فيك يا ابن هاشم .

فثار الشيخ أول مرة قائلاً : لعلها أول الحية ؟

فصاح أبرهة : ماذا قلت ؟ وهل تأمن أن أعاقبك أيها الشيخ على

سوء أدبك ؟

فقال الشيخ باسمًا في سخرية :

— لو كنت سوقة لقهقهت ضاحكاً . أتعاقبنى وأنا في منزلك ؟

أتعاقب رسولاً بعثت تطلبه وجاء إلى جوارك آمناً يعرف أنه يلقي ملكاً ؟

أتعاقب رجلاً جاء ليخاطبك ويرد على قولك بما يليق به ؟ أتغضب من

رجل جئت تغزو بلده فيقول لك : « لعلها أول الحية ؟ » ماذا كنت

تتوقع مني أن أقول لك جواباً على قولك : « ما أشد خيبتى » ؟ أكنت

تحسب أن أجيبك متمنياً لك النجاح ؟ ماذا يغضبك مني وأنا أتمنى لك

الحية في إذلال قومي وانتهاك حرماننا ودك حرماننا وتحطيم آلهتنا ؟ أما تعلم

أننى أرجوها لك حقاً ؟ ثم ما هى تلك الحية التى وقعت في قلبك منذ

سمعت قولى ؟

فقال أبرهة وهو يحاول أن يمسك نفسه :

— إنك منذ اليوم تثيرنى كأنك ما جئت إلا لتحرضنى على القتال .
لم أبعث إليك لتبارزنى بحد لسانك ، فإنى أشهد أنك لصاحب لسان
حديد . ولكن هذه الأقوال لا ترد قضاء ولا تغنى فيما نحن فيه شيئاً .
لقد هبتك أيها الشيخ عندما وقعت عيني عليك ، ورأيت من شبك
ومن هيئتك أنك زعيم نبيل حكيم ، وحسبت أننى أستقبل داهية
القوم .

فقال الشيخ باسمًا :

— ثم رأيت . . . ؟

فقال أبرهة :

— رأيت رجلاً . . .

وسكت لحظة كأنه يريد أن يختار لفظاً ملائماً ؛ ثم قال :

— ولكن ما جدوى المضى فى هذا الحديث ؟ قل لى يا أبا عبد الله أما

من سبيل سوى القتال ؟

فقال عبد المطلب فى هدوء :

— نحن فى قبضة القضاء جميعاً ، مثل قوم فى بحر يتقاذف بهم

الموج ، وقد هب عليهم إعصار حجب عنهم منظر الأرض والسماء .

فماذا نستطيع أن نفعل لأنفسنا سوى أن نتماسك حتى تنجلى عنا غمة

العاصفة ؟ لا حيلة لنا إلا أن نتماسك ونجاهد حتى تنجلى عنا ، فإما

غيبتنا الأعماق فى ظلامها وإما خرجنا إلى البر فى سلام .

ثم تحفز للقيام قائلاً :

— ومع هذا فلست أيها الملك بأول من نظر فأخطأ .

وكان صوته العميق يرن هادئاً كأنه يلتقي تحية .

فقال أبرهة إلى أين يا أبا عبد الله ؟

فقال عبد المطلب : هذا آخر ما عندي .

فقال أبرهة ألك في رأى آخر ؟ اجلس يا أبا عبد الله حتى

نتم حديثنا .

فجلس عبد المطلب قائلاً : إني سامع لما تقول أيها الملك .

فقال أبرهة ألا تذهب إلى قومك فتحدثهم عنى ؟

فقال الشيخ ما كنت لك رسولا أيها الملك ، ابعث معى من

شئت يكن في جوارى لا يمد إليه أحد يده إلا من بعد هلاكى وهلاك

عشيرتى .

فقال أبرهة ألم تسمع ما قلت ؟

فقال الشيخ : بل قد سمعته . فهل تريدنى على أن أذهب إلى

قومى قائلاً لهم : « أسلموا قبل أن يحطمكم أبرهة ؟ » أم تريد أن أقوم

فيهم قائلاً : « أنكروا آلهتكم وانظروا إليه وهو يهدم كعبتكم » ؟

فقال أبرهة بل قل لهم هو يطلب مودتكم وسيعود عنكم وهو

حليف لكم لا يريد إلا أن نكون معاً يداً واحدة ، فتسودوا على الناس

جميعاً وتتدفق الخيرات إلى وادىكم الأجرد . وأما الكعبة فسأبدلكم

خيراً منها .

فقال الشيخ هذا قولك أيها الملك ، فأبعث به إن شئت رسولا ينطق بلسانك .

فقال أبرهة متلطفاً : وأين تكون أنت ؟

فأجاب الشيخ : أكون واحداً من قومي ، أدلى إليهم برأى .

فقال أبرهة أأنت كبيرهم ؟

فأجاب : ولكني أحدهم .

وكان وجه أبرهة ينطق بما ينطوي تحته من الحق ولكنه قال لمن حوله :

— ردوا على الشيخ إبله .

ثم قال للشيخ : سأبعث معك رسولي . امض معه يا نفيل . وكان نفيل جالساً يتأمل حركة الشيخ ويحفظ أقواله مستغرقاً فيها .

فأجاب في تردد : وماذا أقول يا مولاي ؟

فقال أبرهة أما سمعت ما كان بيننا ؟

فأجاب : بل حفظته .

فقال أبرهة كن عندهم رسولي .

ولما قام عبد المطلب منصرفاً مال أبرهة على نفيل قائلاً :

— هذه ساعة الوفاء يا نفيل .

فقال نفيل هامساً سأحاول ما استطعت يا مولاي .

وركب الرجلان متجهين نحو مكة وأبرهة ينظر في أثرهما صامتاً ،

فلما التفت إلى من حوله رأى عدوة ينظر إليه عابساً .

فقال له فى شىء من الضمجر : ما بك يا عدوة ؟

فقال فى هدوء : أحس شرًّا يا مولاي .

فانصرف أبرهة عنه وهو يغتم بكلمات حانقة حتى خرج من خيمته وسار على الهضبة وحركته تم عن قلقة .

ومضى يومان ولم يعد نفيل بن حبيب . وكان أبرهة يشرف بين كل حين وآخر من قبه العالية ينظر نحو المدينة الحالية ويقلب بصره فى الأفق ثم يحيله بين الخيام المتراحة ويستمع إلى ضجيج الجيش ويناجى نفسه قائلاً : « لم يعد نفيل » .

وظهرت على أفق الجنوب سحابة سوداء تلتمع فى حواشيها بروق تعقبها رعود تتدهدى من بعيد كأنها صخور هائلة تنهاوى فى باطن الأرض . وكانت الشمس تتكبد السماء وسكنت الريح فكأن الفضاء يتقد فى أتون .

وكانت الرمال ترسل وهجاً ثقيلاً تكاد الأنفاس تحترق فيه . وكان عدوة واقفاً أمام خيمة الملك وفى يده حربة طويلة ، وهو بين آن وآخر يسير فى خطوات بطيئة واسعة ويتطلع فى الآفاق عابساً . وكان فى قوامه الفارع الدقيق ووجهه الجاهم ورأسه المرفوع ما يدل على أنه محارب حانق .

وبدأت الريح تشتد وتسفو الرمال فى وجهه ، وهزيم الرعد يكاد يصم أذنيه . وناداه أبرهة مراراً حتى بلغه الصوت بعد حين فسار فى خطاه الواسعة إلى داخل الخيمة وحياه ثابتاً .

فقال أبرهة في حلق : أما تسمع ؟

فأجاب : معذرة يا مولاي . . .

وانطلق الرعد مرة أخرى فأغرق تنمة قوله .

وقال أبرهة حانقاً : ويل لهذه السماء ؛ كأنها تتعمد إثارة غضبها

الآن . لم يعد نفيل يا عدوة .

فوقف الجندى الشيخ صامتاً .

وصاح أبرهة : ألم تعد إليك الطليعة التي بعثتها إلى أعلى وادي

المحصب ؟

وانطلقت فرقة من الرعد فانتظر عدوة حتى هدأت ثم قال :

— وبعثت من بعدها أخرى .

فاندفع أبرهة ساخطاً : أوقعت في كمين آخر ؟ إنهم يرصدون لنا

في ثنايا الأودية كالفهود أو بنات آوى ، ويخرجون على جنودنا كلما

وجدوا فرصة ، ثم يختفون في شقوق الأرض كأنهم من الحشر . أنسينا

القتال يا عدوة ؟

فقال الشيخ لم ننس القتال يا مولاي ، ولكنك ترى من نحارب .

هم يعرفون كل صخرة وكل شق فيها ولا يبالون أن يتواثبوا على أضراس

السفوح كأنهم وعول .

فقال أبرهة في ضجر : كأنك تشيد بحمدهم . والآن يا عدوة ؟

فقال عدوة : أنت تعرف رأيي يا مولاي .

فقام في وثبة وقال : نعم أعرف رأيك . أعرف أنك لا ترى

ما أرى ، ولا تحب ما أحب . أعرف أنك تتكهن بالشر أبداً
وتريد أن . تخلع قلبي .

فقال عدوة عابساً : ما سمعتك قبل اليوم يا مولاي تقول هذا . إن
الغضب يحملك إلى حيث لا تريد .

فقال أبرهة ذاهباً مع حنقه : بل أعرف أنك تبدلت وتباعدت ،
فما أمرتك أمراً إلا قلت لي : « ولكن » . . .

فأجاب : إذا رأيت يا مولاي أن أمسك لساني فلا أراجعك في
قول فعلت .

فعاد أبرهة إلى مجلسه صامتاً يدمدم ، وخرج عدوة إلى موقفه في العراء وكان
المطر يتساقط رذاذاً . ولبت أبرهة قليلاً ثم قام خارجاً ونادى عدوة قائلاً :
— ابعث إلى أنيس صاحب الفيلة .

فقال عدوة : هو مع الفيلة يا مولاي .

فصاح أبرهة : لست أزعم لك أنه يرقص حول النار أو أنه يقيم
عرساً لابنته . أعرف أنه مع الفيلة .

فقال عدوة . وهو يحاول تهديتها .

فصاح أبرهة في دعر : أهى الأخرى ؟

فقال عدوة كلما تقدم أحد إليها ثارت غاضبة تريد أن
تبطش به .

فقال أبرهة ماذا أصابها ؟ !

فقال عدوة جائعة عطشى لا تجد ما يكفيها من الطعام والماء ،

وأنيس يحتال أن يصيب لها شيئاً من ذلك حتى أشركها في مياه الجنود.
فقال أبرهة : مرحى أيها الأصدقاء ؛ ألا تقدرّون على حمل الماء
من الوادى ؟

فقال عدوة : غوروا المياه وطموا الآبار فى الليل .
فصاح أبرهة : يا شياطين الجحيم ؛ لا أسمع إلا ما يملؤنى غيظاً .
كل شىء يخوننى .
وانطلقت فرقة أخرى من الرعد وهطل المطر فى عنف ؛ وارتد أبرهة
يحتمى بالحيمة .

وقال : كل شىء يخوننى حتى السماء . وأنتم جميعاً تخونوننى .
فقال عدوة ثابِتاً : عفواً يا مولاي . إن الحائن يتستر ويتلطف
ولكنى أثير غضبك ، لأن ولائى أكبر عندى من سلامتى .
فقال أبرهة : ماذا تقصد ؟

فأجاب عدوة : أقصد أنك أمنت إلى الذين خدعوك واستخونت
الذين يفدونك بأنفسهم .

فأجاب أبرهة غاضباً : نعم أعرف ما تريد . ليس هذا القول جديداً
عندى فإنك تكره هذا الرجل وما زلت تفرغ حقدك عليه فى أنا . وماذا
تريد بعد ؟

فقال عدوة : أعيد عليك نصيحتى .

فصاح أبرهة : نعد إلى صنعاء ؟

فقال الرجل ثابِتاً : اليوم قبل الغد والساعة قبل الساعة التى بعدها .

فصاح في عنف : هراء وسخف . بل جنون .
 فقال عدوة ليست هذه الأرض مقاماً لك .
 فقال أبرهة عابساً : نصيحة معادة . كأننى أرضى أن أتردد في هذه
 اللحظة وأنا أنتظر عودة الرسول . سنتحرك إلى مكة غداً وإن لم يعد نفيل .
 ابعث طليعة أخرى لترى ما فعل نفيل .
 وازم عدوة الصمت ووقف جامداً كأنه لم يسمع .
 فقال أبرهة أما سمعت قولى ؟
 فقال عدوة ألوذ بالصمت يا مولاي لأننى ألع اللهب في
 عينيك .

فقال أبرهة بل انطق .
 فقال عدوة أحس ريح نكبة .
 ففقهه أبرهة بضحكته المزعزعة قائلاً :
 — عرفت من قبل أنك تتكهن . أهكذا أخافتك ريح النكبة التى
 تحسها فى جو السماء ؟ اذهب أيها الرجل فأنفذ أمرى .
 فقال عدوة بعد لحظة صمت :

— سمعاً يا مولاي وسأكون أنا الطليعة .
 ورفع حربته وانحنى ثم مضى صامتاً .
 وبقى أبرهة حيناً ينظر فى أعقابهِ ، ثم هرول داخلاً فى الحيمة بنجسه
 الضخم وارتمى على مقعد فى الصدر ، وكان وجهه متقلصاً من الغيظ .
 وتدفق المطر كأنه ينصب من ميازيب ، ولجأ الجنود إلى الجيام ، وأطرقت

الإبل والحيول برؤوسها خاشعة ، وانسابت في الجوضجة رهيبة . ولكن عدوة مضى في سيره تحت السماء الغامضة وقلبه أشد منها غضباً ، وإن كان يكتبه في صرامة . وكان جواده يتكفأ به في الأرض الزلقة ، والريح العاصفة تطوحه في هباتها ، والفضاء الأغبر يحجب عينيه فلا يرى أمامه إلا كتلة من ماء صبيب .

وبلغ آخر الهضبة ولم يستطع أن يهبط إلى الوادي الذي كان يتدفق مثل نهر فائض ، تتوالى فيه أمواج السيل واحدة بعد أخرى في فرقة تزلزل الأرض . وكانت جذوع النخل تطفو على وجه الماء أحياناً وتغوص أحياناً . تتخللها أجسام الإبل تتقلب مع التيار فتعلو بأسنانها حيناً وبأخفافها حيناً .

ثم لاح على البعد جمع يتحرك نحو معسكر الجيش فظنه عدوة جمعاً من العرب ، يريدون على عادتهم أن يهبطوا على أطراف الجيش يقتلون من تصل إليه أيديهم ، ثم يتسللون كالأشباح الخفية قبل أن يفتن أحد إلى وجودهم . فاستروا الآكام والكثبان حتى اقتربوا منه وبلغت أذنيه كلمات من حديثهم ، وما كان أشد عجبه إذ سمع حديثاً حبشياً . ولما لقيهم عرف أنهم بقية السرية التي بعثها إلى مكة في الصباح تستطلع أخبار نفيل بن حبيب . واستمع إلى القصة كأنه يعرفها . كان نفيل يقود السرية العربية التي هبطت عليهم من الجبل كأنها صخرة تنهدى وتحطم وترك أثرها من خلفها . وما كادت فلول السرية الحبشية تنجو من المفاجأة حتى أدركها السيل في الوادي فكان جهدها

فى تسلق الجوانب الصخرية أشق عليها من جهد القتال وعنق السيل .
وهكذا اتجه عدوة فى حسرة مع تلك الفاول المسكينة عائدين إلى أبرهة .
وفكر كيف يلتقى ذلك الرجل الذى كان منذ ساعة يصيح به غاضباً
معنفاً وبيتهمة بأنه يخونه ؟ سوف يلقاه فى أغلب الظن صائحاً به :
« أهكذا تعود ؟ » كأنه هو الذى أثار العاصفة . أترى يصدق أن نفيل
ابن حبيب خانه وقاد السرية التى مزقت رجاله ؟ وأحس جسمه يتحرق
كأن فيه لسع جمر . ولما اقترب من المعسكر طلع عليه منظر عجيب لم
يشهد له مثيلاً من قبل حتى خيل إليه أنه فى حلم مزعج . وكان وجهه
المتقد حراً يحس خيوط المطر تغسله فيجد راحة من حرارته حيناً ثم تشتعل
فيه الوقدة كأنه كان يحترق فى لبيب . ورأى فوقه سحابة لم ير سحابة
مثلاً فى حياته ، تسبح من فوق رأسه نحو خيام الجيش كأنها دخان
حريق يتطاير الشرر خلاله . وسمع منها زفيراً يشبه عزيف الجنب فى الليلة
المظلمة ، وتساقطت منها قطع من حمم كلما أصابت موضعاً من جسمه
أشعلت فيه ناراً . ورفع إليها رأسه فى رعب وتجلد حتى لا يصرخ من
الألم . فلما ثنى عنقه أحس كأن سنان حربى ينفذ فيه . وغامت عيناه
وبدا له فى السحابة خفق أجنحة متوهجة . وكانت صيحات الذين
معه تتعالى من حوله وهم يتفرقون فى فزع ويصيحون : « الحمم !
النيران ! » .

وتماسك عدوة وهو يحس رعدة من برد متقد . ولكنه لم يقو على
الثبات فكان يرتج برداً ، ولسع الحمم يشتعل بجسده . ولما بلغ المعسكر

رأى مازاده هولاً فكان السيل يتدفق مثل بحر مائج فى بطيحة فسيحة ،
وبقايا الخيام وجثث الجنود والحيل تنجرف مع التيار إلى حافة الهضبة نحو
فم المسيل ثم تهوى نحو الوادى . وكان أبرهة يسير ذاهلاً بين حطام
المعسكر يحاول أن يجمع فى بصره هول النكبة ، وأن يعيد بصراخه جنان
الجنود اليائسة . ورأى السحابة السوداء ذات الحواشى المتوهجة تقترب منه
رفافة بطيئة ، تخفق فى غبش المساء بشعاع وردى داكن . وسمع
الصيحات تتوالى : « الحمم ! النيران ! » .

وتجلد ما استطاع حتى أظلم الليل وهو يحاول الإغاثة على ضوء
المشاعل . ثم جاء إليه بعض الجنود يحملون عدوة . فنظر فى وجهه
المنتفخ وإلى عينيه الزائغتين وإلى جسده الملهب ، واستمع ممن يقوى على
الكلام إلى قصة السرية البائسة . وكان جائئاً فى أثناء ذلك إلى جنب
عدوة يصبح به : « عدوة : أيها الصديق ؛ أما تسمعى ؟ »
وانتفض الجندى الشيخ وتقلصت أعضاؤه ، وصاح فى هذيان
الحمى :

« الطير ! الحمم ! النيران ! » .
ثم خفت صوته .

وطلع الفجر بطيئاً يطل فى نوره الخافت على الأفق ، وازدان الشرق
لموكب الشمس الساطعة كأن لم تكن فى الليل عاصفة دمرت جيش أبرهة .
وسار الملك المسكين بمن بقى معه يجرر أذيال الحسرة نحو الجنوب
فى طريق صنعاء .

قال الراوى :

خرج يكسوم يستقبل أباه ولكنه استقبل جثة ممزقة . وأما جيشه المتدفق الذى سالت به رحبة صنعاء ، والفيلة التى خرجت تهر الأرض كأنها حصون ، والحيل ذات الحيلاء والجند العابس الذى كان يثير الغبار سحباً ، وحرابه تلمع من خلاله كأنها بروق ، فقد اختفت جميعاً كما يختفى طيف الخيال .

وتلفت أهل صنعاء فى دهشة يتساءلون : أحقاً ما يرون وما يسمعون ؟ أتلك هى الفلول التى نجت من الموت تجرر أقدامها خائرة القوى ، وتتسلل فى ظلام الليل إلى بيوتها مخافة أن تقع عليها العيون من وراء شرفات المنازل المغلقة ؟ وأصبحت المدينة مناحة على صرعى القتال الباطل الذى كان مثل فقاعة ارتجفت حيناً على سطح غدیر .

ولكن الهزيمة والحياة لم تزيدا يكسوم إلا عنفاً وقسوة ، فكان مثل فهد جريح فى غابة لا يكاد يسمع همسة حتى يثب غاضباً مفترساً . وكانت المفاجأة العجيبة مثل صدمة شديدة أذهلت أهل صنعاء فلزموا بيوتهم فى حيرة وذعر . فالوباء ينتشر فى المدينة لا يعلم أحد كيف يتدسس إلى الأصحاء ؛ أيدخل إليهم مع الأنفاس أم يثب إليهم مع

أشعة الأبصار ؟ ويكسوم يسلط عليهم جنوده وأعوانه فلا يجرؤ أحد أن يظهر شيئاً ينم عن الفرحة المكبوتة لهلاك جيش الحبشة . وكانت الكارثة طاحنة مثل زلزال من الأرض أو صاعقة من السماء ، لا يكاد الحس يدركها حتى تشله صدمتها . وتلفتوا حولهم لعلمهم يرون رجلاً يجتمعون إليه أو يجدون في رأيه عصمة ، فلم يجدوا من السادة إلا هذه الأذنان التي تتمسح في أذيال يكسوم وهم أشد عليهم من الأحباش وطأة . فكانت صنعاء مدينة ليس فيها سوى بيوت مفردة بعضها يخشى بعضاً ، ويحسب كل منها أن جاره يسعى به عند الطاغية . وعاد سيف إلى القصر الحزين وكان قلبه أشد حزناً . لم يكن يحسب أن هلاك أبرهة يقع منه ذلك الموقع الذي كان أبلغ من حزن الولد على أبيه . فلو هلك أبرهة قبل سيره إلى قريش إذ كان سيف موزعاً بين الشك واليقين لا يدرى أهو أبوه حقاً أم هو أجنبي عنه لوقف على جنازته حائراً مضطرباً لا يذرف دمعة . ولكنه منذ عرف بموته ارتدت عليه موجة من حزن يشوبه الأسف والندم على ما خطر بقلبه من التنكر له وجحود فضله عليه . ولم يذكر في أثناء سيره إلى صنعاء سوى ما كان يلتقي من بره وعطفه ورحمته . تذكر كيف كان يداعبه صغيراً ويحمل إليه الطرف من الهدايا ، وتذكر كيف كان يعابشه ويقهقهه بضحكته العالية المزغردة في معابشته . طالما أركبه على ركبته كما لو كانت مهراً ولقنه صيحات الحرب كما كان الأحباش ينطقون بها . وطالما سمعه يقول لمن حوله : « هذا أول أبنائي العرب » . وإذا كان الشك في أبوته

قد أفسد عليه حكمه حيناً فلم يكن ذلك من ذنب أبرهة المسكين
ولا من قصور في مودته . بل لقد بدت رحمته لسيف في ذلك الحين
أعظم نبلا وأجدر بالشكر من رحمة الأب لابنه ، لأنه لم يكن أباه .
وأسرع سيف إلى أمه وعجب إذ رأى في جناحها حبشين كأنهما
تمثالان من نحاس يقفان عند باب البهو وينظران نحوه جامدين . ولما رآته
ريحانة هبت تستقبله فاتحة ذراعها متهاتفة بالبكاء وقالت :

— أهكذا تغيب عني ؟

وجلسا حيناً في صمت لا تقطعه إلا شهقات الأم الحزينة . وقال
سيف مواسياً :

— تجملني بالصبر يا أماه .

فنظرت إليه نظرة طويلة ثم قالت :

— لست أدري يا ولدي أينما أكثر شقاء .

فقال : لم أعرف اليتيم إلا في هذا اليوم يا أماه . عرفته اليوم
جديداً .

فقالت في حزن : عافنا معاً كل ما تستطيع الأيام أن تمد به يديها .
كنت أحملك على يدي طفلاً وأبكي كما أبكي في هذه الساعة ، وأسأل
نفسى ماذا يحمل الدهر لنا ، وهأنذا أراك شاباً وما زلت أسأل نفسى
ماذا يحمل الدهر في الغد ؟

فقال سيف : لا يذهب بك الحزن إلى كل هذا أيتها الأم
العزيزة ، فإني كنت لا أزال محتمياً بظلك أعرف كيف أواجه

الحياة ، وليس حزني من أجل نفسي بل هو خالص لفقد قلب كريم .

فقلت : ما أكرم قلبك يا سيف ! كأن قولك يؤنبني . لست أحب أن أكذبك يا ولدي كما كذبتك كثيراً . إنما أحزن من أجل نفسي ومن أجلك . ألم تر الحبشين الواقفين عند بابي ؟ هذا ولم يمض إلا أيام على السيد الحديد ، يكسوم ! ألا تعرف أنني لم أستطع أن أبعث إليك رسولا ؟ أبي يكسوم أن يبعث إليك رسولي . أنا التي كنت بالأمس ملكة اليمن :

فقال سيف متمسكاً : سلمت يا أماه ولا حمل لك الدهر إلا الكرامة . وإن كان أبرهة قد هلك فإنك أمي ، وأنت بعد هذا أم مسروق بن أبرهة . فلا تجعلى هذه الأفكار تضاعف أحزانك . فمدت يدها إليه قائلة :

— اقرب مني يا سيف ودعني أبكي ساعة وأنت هنا . دعني أفتح لك صدري وأنفض ما فيه لعله يلقي سمومه التي توقده . اقرب مني حتى لا يسمع هؤلاء الذين أقامهم يكسوم يحصون على خطواتي ويحفظون همساتي .

فأمسك سيف بيدها قائلاً :

— لا يذهب بك الحزن والهم إلى كل هذا ، والجزع لا يغني شيئاً من القضاء الواقع .

فقلت في أنة : ليس الحزن عتي وليس الهم ما يحرقني . إنه قلبي

الذى يخوننى . إنه قلبى الذى يعصف بى . إن حياتى تجتمع فى هذه الساعة تحت عيني كأنها صفحة أقرأها وكل سطر فيها يزيدنى حيرة وعذاباً تقول إنك عرفت اليتيم جديداً ؟ ولكنى أقول إننى عرفت عارى جديداً . لا تنتفض هكذا كأنك تؤنبى . قلت إننى لن أكذبك مرة أخرى . تتمثل لى فى هذه الساعة فداحة مصابى عندما دخلت إلى هذا القصر كأننى أمة . فلم أبقيت على حياتى ؟ أقول مرة أخرى من أجلك أنت ؟ كذبة أخرى ؟ بل هو الخوف من الموت الذى حجزنى عن الخطوة التى كانت واجبة على . نعم هو الخوف على الحياة الحقيرة التى طال فيها هوانى . فبقيت هنا أحس البغضاء تملأ قلبى . اقرب منى يا سيف فإن صوتى يعلو برغمنى . كأن نظرتك تلومنى .

فقال سيف فى رقة : ليس بى إلا المواساة والرحمة .

فقالت : دعنى أنفـس عن صدرى . لطالما كتمت ما فى قلبى عنك فدعنى أنفضه مرة واحدة وإن ضاق به صدرك أنت . فلو ملكـت أن أقـطع نفسى أسفاً لكان أروح لها .

فقال فى نغمة عتاب :

— لا تخلق من ذلك الماضى أوهاماً تعذبك ، واسدلى عليه الستـر

الذى أسدلتـه عليه السنوات .

فقالت فى شىء يشبه الحق : هيهات ! هيهات أن يدعنى ذلك

الماضى وإن حاولت أن أدعه . فذلك الستار الذى تسدله الأيام ما هو

إلا الوهم الذى نخدع به أنفسنا . ذلك الماضى مستقر بأعماقى لا يفارقنى .
 دعنى أكشف عنه كأنك كاهن فى المحراب أكشف له عن مكنون
 سرى . ماذا قلت ؟ أقول كأنك كاهن ؟ وهل آمنت بشىء من هذا
 الدين الذى ألحقنى به أبرهة ؟ لا تحمل لى ضغناً يا ولدى إذا أقررت
 لك أننى لا أومن بشىء . لا أومن بآلهة آبائى التى لم تستطع حمايتى ،
 ولا أومن بإله أبرهة الذى لم يمنعه من إذلالى . إننى أمقت الكهنة ومحاريبهم
 فلتكن صديقاً مواسياً أو لتكن ابن أبى مرة .

فقال سيف فى حزن : مولاتى !

فقالت : لا تتبرأ منى يا سيف . قل يا أمى . قل أيتها الأم البائسة .
 قل أيتها صاحبة التى لا وفاء لها لم رضيت أن تكونى زوجاً لغير أبى ؟
 ما أشد ما ألقى من كبت حنقى واضطرارى أن ألقى بكسوم وأنا أدارى
 كراهتى ، ثم أنطق له قائلة :

« لك الغزاء أيها الملك ! » .

أقد صار يكسوم ملكاً ؟ أنذهب بعد أيام لنصلى له فى القليس
 ونلبسه تاج اليمين ؟ لن تكون هذه الصلاة إلا لعنات أصبها على حظى
 وعلى قضائى وعلى الذى تحسبنى أحزن عليه .

فرفع سيف عينيه فى لفطة جافلة وقال : أمى !

فقالت فى عنف : لا تتجه إلى بهذه النظرة فإنها تريدنى حنقاً
 وحقداً على نفسى وعلى الأحياء جميعاً . قلبى يفور كالمرجل وعقلي يهيم
 فى جحيم .

فقال عاطفاً : ما قصدت سوى أن تترقى بنفسك ، وأن تذكرى
خير ما تبعته الذكرى . كان أبرهة بنا رحباً ، فلنرحم عليه ولنذكره
بالسلام فهذا أبعث للسلام فى قلبينا .

فحولت ريحانة عنه عينها قائلة : كأننى أسمع صوت خيلاء .
كأننى أفزعتك يا سيف .

فقال : ليس فى قلبى سوى المواساة والرحمة .
فقالت وهى أهدأ :

— أسألك العفو يا ولدى ... إن ضعف المرأة ينطق على لسانى ...
هكذا كنت دائماً أثور بأبرهة كلما غضبت فلا أدرى ماذا يثيرنى .
ثم أهدأ وأذكر أقوالى فأزداد ثورة على نفسى ... عفوك يا ولدى
فما أشقانى !

فوضع سيف يده على رأسها ونظر فى وجهها قائلاً :
— بل ما أكبر قلبك !
فقالت فى رنة الشكر :

— إننى كالريشة فى مهب الهواء لا أعرف لنفسى وجهة . أقلت
لك إننى لا أحس حزناً من أجل أبرهة ؟ لقد كنت أكرم منى وأنبل
قلباً عندما قلت إنك عرفت اليتيم جديداً . وإلا فما الذى حرك كل
أشجانى ؟ كأننى يا ولدى أعنف عليه ميتاً كما كانت أعنف عليه
حياً ، وألقى عليه اللوم كأنه هو الذى اختار أن يهلك ويدعنى تحت
رحمة يكسوم . وما كان أجدرنى أن أرحمه وأحس فقده . كان بى وبك

رحيماً ؛ وما زال منذ دخلت هذا القصر يوسع لى من صدره ويصبر على
بؤادر غضبي . وقد طالما عنفت عليه وثرث به ورميته فى وجهه بأنه
عدوى وعدو قومى ، وطالما أنكرت إلهه فى سمعه ولكنه لم يثر بى مرة ولم
يوجه إلى لفظاً قاسياً . وما هو ذا يموت عندما كان عازماً على أن يهب
لك شطراً من ملكه . ها هو ذا يموت ويتركنا . أعد على كلماتك
يا سيف وعلمنى كيف يكون القلب نبيلًا . أنت رجل وما أنا إلا
امرأة .

وكان سيف ينظر نحو الباب فى لهفة يتوقع بين دقيقة وأخرى أن
يرى وجه خيلاء .

فلما سكنت أمه شيئاً قال لها :

— مالى لا أرى خيلاء إلى جنبك ؟

فنظرت إليه أمه فى شىء يشبه الوجمل ولم تجب .

فأعاد سؤاله فى لهفة : مالى لا أرى خيلاء هنا ؟ ألا أذهب إليها

فأرى ما عاقها عنك ؟

فتحركت الأم حركة سريعة فيها زعر لم تملك أن تخفيه وقالت :

— دع خيلاء حيث هى يا سيف .

فقال :

— أهناك شىء ؟

فقلت متداركة :

— خير لى أن أبقي معك وحدنا فى هذه الساعة .

فقال :

— إذن سأذهب لأراها .

ولم يبق ليستمع إلى قول ريحانة وهي تحاول أن تمنعه ، وذهب مسرعاً وقلبه يتوجس . أتقول : دع خيلاء حيث هي ؟ لمة ؟ وكانت خيلاء في حجرتها إلى جانب تمثال العذراء ، فسمعت طرقاتاً على بابها وقامت فاترة تجفف عينيها ، وكان على وجهها ظل من فرع تملكه قسراً . وفتحت الباب وقالت في صيحة مكتومة :

— سيف !

ثم ردت بصرها مسرعة واكتسى خداهما حمرة . واندفع سيف نحوها ماداً يديه قائلاً :

— أحمد الله إذ أراك سالمة .

وتبسمت بسمه ضئيلة ومدت يدها قائلة :

— ما علمت أنك هنا .

وسارت أمامه إلى أريكة فجلست على طرفها ، وجلس على قيد ذراع وهو يعجب من فتورها . ما الذي ذهب بنضرتها وأذبل عينيها ؟ أبلغ بها الحزن على أبرهة أن تغمرها مثل هذه الكآبة البائسة ؟ وأحس شيئاً من الحيرة في لقاءها الساهم الجامد . أهكذا تلقاه فلا ترتدى بين ذراعيه وترسل دموعها الحزينة على عنقه وتلمس من وجودها عند صدره ظل الأمن والطمأنينة والعزاء ؟ وشردت عنه الألفاظ فلم يدر كيف يفتح الحديث معها . كان يحسب أنها تطالعه بوجه فيه الحزن وفيه اللهفة

وفيه إشراقة من سرور . وكان يحسب أنه يتدفق في الحديث ليقول لها إنه هناك وإنه يبذل نفسه في سبيل حمايتها وإسعادها . ولكنها تستقبله بعين كليلة وبوجه ساهم متردد ينم عن انكماش وانطواء عنه . فماذا يجول في أعماق ضميرها ويقيم ذلك الستار بينه وبينها ؟
وانتزعت خيلاء كلمة بعد لحظة صمت فقالت :
— لك الغزاء يا سيف .

وزادت خيبته عندما سمع كلمتها . أتقول لك الغزاء كما يقول الألوف من المواسين الذين لا تزيد مواساتهم على لفظة ؟ لم تفض إليه بحزنها ولا بجزعها ولم تلجأ إليه هو ، ولم تقل له : « ذهب من كان يظنني برحمته ولم يبق لي غيرك » .

وقال في ارتباك : حق لنا أن نحزن على أبرهة يا خيلاء . ولكن لا تدعى الحزن يبلغ منك ما أرى . أرى عليك أثراً لا أدرى ماذا أسميه . ألا تحدثيني عما بك ؟

فقالت : ليس بي شيء سوى أنني كنت أصلى . كنت أصلى من أجل روح أبرهة المسكين الذي تعذب وتألّم .
فقال سيف مواسياً :

— لن يرد الحزن أبرهة إلينا . ولو كنت أعرف كيف أصلى لحنوت إلى جانبك أشاركك في الدعاء . ولكن لا مفر لك ولا لي من أن نفكر معاً ، فيما ينبغي لنا أن نفعل بعد هذا . فلنفكر معاً يا خيلاء منذ الساعة فإن الوقت أضيق من أن نقطعه في حزن عقيم لا يقدم

ولا يؤخر شيئاً . متى تغادر غمدان ؟

فأطرقت خيلاء وهي تعبت بالصليب الفضى المعلق فى عنقها .

ومضى سيف فقال :

— لقد آن لنا أن نفارق هذه الأبهاء المظلمة التى تحجبها الأستار

الحريرية عن ضوء الشمس . آن لنا أن نبعد عن هذه الأجحار المغلقة
التي يقف الأحباش عند أبوابها .

ولكن خيلاء لم تنطق بحرف وخيل إلى سيف أنها كانت بعيدة عنه

مغلقة دونه . ماذا ؟ أهذه خيلاء التى وقفت تودعه منذ أيام عند باب

حجرتها وتقول له : « لقاء قريباً » وهى تغمره بعينها ؟ كانت أجفانها

الوطفاء تطرف فى شىء يشبه الوجمل كأنها منصرفة إلى حديث مفرع

بينها وبين نفسها . ماذا تقول فى سرها ؟ أهى تحاول أن تخفى عنه سرّاً

لا تجرؤ على الإفضاء به ؟ أباها لها شىء جديد منذ ذهبت حماسه الصدمة

الأولى بعد أن عرفت أنه ابن ذى يزن ؟

وقال فى شىء من القلق :

— معذرة يا خيلاء إذا قلت لك إننى ألمح عندك شيئاً غامضاً لست

أفهمه . لست أدرى كيف أتكلم . فخبرنى أنت عما يضطرب تحت

صمتك وإطراقك . أنت بغير شك تجاهدين ألا ينم لسانك عما

عندك ، ولكن وجهك ينطق ويعصيك . لم تحولين بصرك عني هكذا ؟

ولم تردى الألفاظ التى تتبادر إلى لسانك ؟ ليس يزعجنى بكأؤك ولا

جزعك ولكن يزعجنى إطراقك وحركة وجهك ونظرة عينيك . فارفعى

ذلك الستر الجامد الذى يحجب عنى خيلاء التى أعرفها .

فقلت خيلاء فى صوت خافت وهى تحاول النظر إليه :

— إنه المصاب الذى حل بنا يا سيف . هو وقع الكارثة التى لم يكن أحدنا يحلم بها . وإن موت أبرهة لم يكن كموت الناس ، فيه لوعة الفراق وحدها . كان موته

ثم ترددت وحولت عينيها ومنعت اللفظ الذى كادت تنطق به فى تمة حديثها .

فقال سيف افتحى صدرك يا خيلاء . وانثرى ما فيه ولا تردى من قولك حرفاً . لست أفهم من قولك إلا أن الحزن قد غلبك فخيّل إليك أن الكارثة فوق الاحتمال . ولكنى هنا فلا تجعلى الجزع يحملك إلى أبعد مما ينبغى له .

واقترب منها ماداً يده إلى يدها ، ولكنها تخلصت منه فى رفق قائلة :

— دعنى يا سيف ! بحقك دعنى الآن ، فلست أدرى ماذا أقول لك . إننى لا أملك أنفاسى ولا أقوى على الحديث . وكان فى صوتها فزع ظاهر .

فوقف سيف وقال فى لهفة : أباك عتب علىّ يا خيلاء ؟ ! إن كان شىء من ذلك فلا تخفيه عنى حتى أبادر فأجثو إليك معتذراً . كم غبت عنك حتى يعتريك كل هذا التغير . أم أنت تخفين عنى سرا رهيباً ؟

فقال في حزن : ما غبت عني ولن تغيب عني .

ووقفت مرتدة إلى الوراء كأنها تريد أن تهرب من موقفها .

فقال سيف إذن فما هذا الجفاء الذي تطالعيني به ؟ أسمعيني

صوتك الذي عرفته ، وانظري إلى ببسمة تعودتها وإن كانت حزينة .

قولي ما في نفسك فإن هذا الصمت يفرغني ، بل يكاد الشك يتسرب

إلى عقلي . لست أجزؤ أن أقول إن قلبي يشك في مودتك فإن قلبي

نفسه يكذبني . قولي إنك ما زلت على عهدي لم يداخلك شك في حبي .

قولي هذا وهو يكفي .

فقالت والعبرات تغالبها :

— ليس بي جفاء ولا شك يا سيف ، وهذا صوتي الذي عرفته

يقول لك إنني ما زلت على عهدي كأقوى ما كنت مودة ، وما زلت

على حبي كأصفي ما كنت حبًّا . بل أقول لك إنني كنت في هذه

الساعة أصلي لك كما كنت أصلي لروح أبرهة . كنت أفزع إلى العذراء

بما في قرارة نفسي وأقول لك ما قلته في اعترافي لها : إن حبي لك أبقي من

الحياة وأقوى من الموت .

فصاح سيف :

— إذن فما أسعدني ! ما أسعدني أن أجتو عند العذراء أكرر لها

مثل هذا القول فإني الآن أومن بها وأحبها .

ومد يده إلى يدها مرة أخرى وتباعدت عنه في رفق مرة أخرى وقالت :

— لم أتم لك حديثي بعد يا سيف .

فقال سيف إن اشتياقي إلى حديثك أشد من حرصى على بث ما فى نفسى . قولى وأفيضى حتى أروى سمعى وأطمئن قلبى وأجلو عنى المخاوف التى ساورتنى . مالى أراك تباعدى يدك كلما مددت إليك يدى . هاتى يدك حتى أعرف أنك حقاً أمامى . تكاد الوسوس تعاودنى فأتوهم أننى فى حلم مضطرب .
فقلت بعد تردد :

— لا تسيء بى الظن والتمس لى المَعذرة إذا وجدت قولى مضطرباً .
أعيد عليك أن حبى مقيم على الدهر ، عميق عمق البحر الزاخر ، مشرق إشراق الصباح الزاهر . هو غذائى الذى يغذينى وهو عزائى الذى يعزىنى فلنَجعله خالداً صافياً عميقاً أبد الدهر .

فقال سيف

— حسبى هذا يا خيلاء فلا تقولى بعد ذلك كلمة كأننى أحسن رهبة من كلمة أخرى .

فقلت خيلاء : اسمع يا سيف تنمة قولى . فإن الحب الذى بيننا أنصع من أن يداخله الرياء أو الخوف . هو مودة الأرواح فلنَجعل مناجاتنا فيه مثل مناجاة الملائكة ، ولا نسلم أنفسنا إلى غرور السراب .
فصاح سيف :

— ماذا قلت يا خيلاء ؟ ألسنا هنا حقيقة والعالم الفسيح من حولنا حقيقة ؟ أهى الأحزان التى استولت عليك فجعلتك تنطقين بهذه الكلمة ؟ السراب ؟ ما لنا والسراب ؟ ألسنت أنت أمامى وأنا هنا

معك ؟ تعالى نغادر ذلك القصر الحزين الذى يشيع فى القلب ظلامه .
تعالى نبدأ حياتنا جديدة فى موطن آخر نكون فيه وحدنا مجردين من
كل شىء سوى نفسينا . فلنذهب إلى قصر ذى جدن لنعيش فيه
وحدنا — خيلاء وسيف ، ثم نضرب بيننا وبين هذا العالم كله حجاباً .

فقلت خيلاء :

— تمهل يا سيف فلا مفر لى من أن أكشف لك مأساة كنت
أحاول أن أوجل كشفها .

فصاح فى زعر : مأساة ؟ حماك الله يا خيلاء أن تكون لك مأساة .
أفصحى عنها أو أبقى عليها حتى تجدى نفسك أكثر هدوءاً فليس بى
لهفة على سماع خيال ووهم . بغير شك ، إنه خيال ووهم . نفسى
فداؤك من كل مأساة . ومن ذا يستطيع أن يسوق إليك الأسى ؟

فقلت فى صرامة :

— بل استمع إلى تنمة الحديد يا سيف . لست أملك نفسى ،
لست أملك نفسى . هذه هى المأساة .

فقال سيف فى دهشة : لست أفهم . ماذا تقولين يا خيلاء ؟
لست تملكين نفسك ؟ ومن ذا يملكها ؟

فقلت : يملكها الذى لا أستطيع أن أعصيه .

فصاح فى حنق : من ذا الذى لا يستطيع أن تعصيه ؟ لا أكاد
أصدق أذننى .

فقلت فى هدوء : بل هو الحق .

فقال كالحالم : فأين إذن أحلامنا ؟ أين أحاديثنا الطوال وأين آمالنا الحلوة ؟ بل أين قولك إنك ما زلت على عهدي ؟ لا تملكين نفسك ؟ يملكها من لا تستطيعين أن تعصيه ؟ بل أعصيه أنا وأرده عنك بسيفى . من ذا الذى . . .

ف قالت خيلاء : لا تخطئ ياسيف . قد وهبت نفسى . قد وهبتها راضية .

فقال فى دفعة :

— بل قولها كلمة صريحة . قولى إنك آثرت غيرى وإنك قد تبدلت ، ولا تموهى الحقيقة بكلمات لا غناء فيها . ما هذا الحب العميق القوي الذى تحدثت عنه إن كنت قد بعت نفسك لغيرى . وتقولين لى : « لا تخطئ » إذا قلت إنى أردته عنك بسيفى ؟ من ذا الذى قد وهبت له قلبك ؟ كان أحق لو أعدت ما قات أولاً : « يملكه الذى لا يستطيعين أن تعصيه » . أمة تتكلم ؟

ومضى فى قوله يهيم فى شكوك غامضة ويهدر بأقوال كأن فيه شيطاناً هائجاً . وكانت خيلاء تنظر إليه فى حزن وذعر ، وكلما نطق بكلمة اضطربت أهدابها الوطفاء كمن يحس وخزة . ووجد سيف فى دفعته شيئاً يشبه الراحة ، وفى أثر كلماته العنيفة شيئاً يشبه الرضى . ووقف لحظة ينظر إلى وجهها الصافى الحزين وضميره يصيح به قائلاً : « ماذا فعلت ؟ ماذا تقول لخيلاء » ؟

فانشئ يقول :

— خيلاء ! ماذا قلت لك ، وماذا اعتراني حتى جرؤت على كل هذا ؟ أحققاً صدقي سمعى أم هو وهم خيلته لى شقاوتى ، أقلت لك إنك آثرت غيرى ورجعت عن عهدي ؟ بل أنت لى كما أننى لك ولن نستطيع إلا أن نكون هكذا . أنت الحياة التى أتعلق بها وأطرح كل شىء عداها . فإن كان أساءك شىء منى فأنى أعتذر منه . لم أذهب إلى قصر جدى إلا لكى أفكر فى أيامنا المقبلة . لم أغب عنك هذه الأيام إلا لأننى كنت مع قومى وقومك الذين سندهب إليهم . قولى إنك كنت تمنحنين حبي . أو قولى إنك كنت تعبين بى فهذا أرفق بى . قولى شيئاً آخر غير ما قلت فأنى أنتظر فى كلمتك قضائى .

فقال خاشعة :

— عفا الله عنك يا سيف فما بى ألم من شىء تقوله . بل إنى أرحمك كما أرحم نفسى . ما كنت لأتخذ منك بديلاً وكل ما سمعته منك وإن كان قاسياً لا يؤلمنى .

وتحدرت الدموع من عينيها .

فقال سيف فى صوت مهدهج :

— ليتنى أملك هذه الكلمات الحانقة التى خرجت من بين شفتى أو أستطيع أن أردّها من الهواء إلى حيث كانت فى ظلمة النسيان . لم أفهم ما قلت ، فإن عقلى وقلبى يكذبان هذه الألفاظ التى قلتها . بل قلبك لى يا خيلاء ولا يمكن أن يكون لغيرى . لن يملكه سوى ولن

تهيبه إلى أحد غيرى . انطقي يا خيلاء بما يعيد السلام إلى قلبي . أقول لك بحق حبي ؟ أم نسيت ذلك ؟ أحقاً قلت هذا ؟
وكانت خيلاء تستمع في صمت ودموعها تبلل وجنتيها الصفراوين ،
وقالت :

— أقول لك مرة أخرى عفا الله عنك ، وإن كنت حزينة .

فجثا سيف إلى جنبها قائلاً :

— دعيني أتوسل إليك بحبي أن تعفى عني وأن تكشفني هذه الغمة

التي تحير لي .

فقالت في عطف : قم يا سيف فلست أنكر حبك ولا أنكر حبي .

كنت أحسبك تفهم قولي منذ بدأت . إنني لم أخجل أن أقول لك إن

حبي أبقي من الحياة وأقوي من الموت . ولكنك تتصور أنني وهبت

قلبي لبشر . ما كان لبشر أن يملكه وما كان لي أن أهبه لأحد من

الأحياء غيرك . ولكن غضبك لا يجعلك تفهم . ما وهبته إلا للذي يملك

قلوبنا جميعاً ومن نجد فيه سلوتنا ومن نستمد منه سلامنا . وهبته للسيد

المسيح !

فقال سيف في نشوة :

— فلم لم تقولي ذلك من أول كلمة . السيد المسيح ؛ فليكن ذلك . بل

هلم نهب له نفسينا معاً ، أنا وأنت . وإني أعاهدك أن أومن به إيماناً

لا شك فيه . سأخذ له عندي صورة أجثو عندها ، أو نتخذ له

صورة عندنا . نحن معا أصوم له معك وأصلي صباحاً ومساءً :

وأحارب باسمه أعداءه حتى يؤمن به الناس جميعاً . أذهب من فوري
إلى القليس أقبل يد القس ونذهب معاً إلى قسطنطينية لنرى خليفته .
وسأخدمه وأضرب بسيفه حتى يؤمن أهل الأرض . أهذا يرضيك ياخيلاء .
فلنهب نفسينا له .

فقلت خيلاء في حزن :

— لست تفهم يا سيف . من تهب للمسيح نفسها لا تعرف رجلاً .
فقال في حنق : أى خيال يسيطر عليك . ماذا يفعل المسيح بقلبك
إذ يسلبه مني ؟ لو كان رجلاً لذهبت إليه أجالده عنك . ولكن أين
هو ؟ خيال ؟ صورة ؟ سراب ؟ أليس هذا هو السراب ؟

فقلت خيلاء : لا تتحدث هكذا فإنه قول عظيم . سوف أستغفرك
لك ولن يحمل لك غضباً فهو قلب رحيم .

فمد يده نحوها قائلاً : دعى هذه الأوهام يا خيلاء . تعالى أحدثك
حتى تهدأ نفسك فلا شك أن الحزن زعزعها . ماذا بعث إليك هذا
الوهم الذي يكاد يكون مضحكاً . كنت في أثناء غيبتى لا أفارقك في
ساعة من ليل ولا من نهار . كنت أمامي في الزهرة والطير وفي الجدول
الصافي والمرج الأخضر . كنت في السماء والنجم وفي الرمال الممتدة
والنسيم الطلق . فلنذهب من هنا .

فقلت بصوت متهرج :

— بحقك يا سيف لا تمض في هذا القول فإنه يدمى فؤادى .

فاستمر سيف :

— لنذهب من هنا إلى حيث نعيش وحدنا لا نعرف سيداً . هناك تشرق الشمس فلا تشرق إلا لنا ، وتطلع النجوم لتزين سماءنا وتؤنس مجلسنا ، ويضيء القمر لكى يحلو تحته حديثنا . هناك كل ما يقع تحت بصرنا ملك لنا . هناك نستمع إلى نجوى الليل وأنغام الكون دون حجاب من سمعنا ، ونقف وجهاً لوجه أمام الحياة دون حجاب من نظرنا . هلم نهرب بحبنا .

فقلت خيلاء فى رقة :

— هو حبي الذى أريد أن أهرب به . سوف أحمله فى قلبي لا يعتريه سأم ولا ملل . سوف يكون هو القربان المقدس الذى أتقرب به إلى مورد الحب الأسمى . أتذكر إذ كنا نقف إلى جانب الوعاء المرمى ونتأمل صورته ؟ أما تذكر إذ قلت لى إن تلك الصورة تتحدى الزمان وستبقى إلى الأبد نابضة حية فتية ؟ هكذا تبقى صورة حبنا منقوشة على قلبي .

فتزع سيف يديها وتمسك بهما قائلاً :

— ما هذه النقوش التى نتخذها بديلاً من وجودنا ؟ نحن هنا حقائق فلا تجعلى هذه الألفاظ تضل بنا . دعى الأسماء . ولا تسيرى بنا أنت نحو السراب .

فقلت فى صوت خافت :

— الحزن يغمرنى يا سيف . ماذا أقول لك ؟ لا تجعل حزن الساعة يطفىء القبس الذى أتعلل بنوره . دع لى صورتى . ماذا أقول لك ؟

سأهرب إلى الدير — دير نجران . لن يصل أحد إلى هناك . سوف يعصمني الدير وأعيش فيه حرة محتفظة لك بحبي . لم أقل لك كلمة أخجل أن أقولها . لست إلا أمة . لست إلا أمة مملوكة .

وتغيرت لهجتها الودية إلى حنق ثائر . ومضت قائلة :

— نعم أمة مملوكة يستطيع مالكي أن يجبرني قسراً إلى حيث أكون له متعة . وقد يقتلني إذا شاء أو يجعلني أمثلة للذل والهوان . ما أنا إلا أمة مملوكة مثل الإبل والضأن ومثل أثاث البيت أو . . .

فصاح سيف :

— ماذا تقولين يا خيلاء ؟ من ذا يجرو أن يقول هذا ؟ من ذا يجرو أن يمد إليك يداً .

فقالت في حنق :

— يكسوم . . . ! الطاغية يكسوم . كنت أمة لأبرهة وورثي . ألم أقل إنني مثل الشاة أو الناقة ؟ أسيرة صغيرة قتل قومها في الحرب فصارت أمة . أليس هذا هو شرع الناس يا سيف ؟ لو لم يكن يكسوم سوى أحد العامة لاستطاع أن يجبرني حيث شاء قسراً . ولكنه يكسوم الذي ورثي .

وبلغ بها الحنق أن جف دمعها ولمعت عيناها بكأنها لم تكن خيلاء الودية .

وأنصت سيف إليها متكئاً على سيفه والدهشة تعقل لسانه .

ومضت قائلة : سأذهب إلى نجران حيث لا يستطيع أن يمد

يده إلى . هناك يعجز أن يكون سيدى . هكذا أشار على الناصح المشفق ، فذهبت إلى القس وعرضت عليه أن أكون راهبة .

فقال سيف أى ناصح !

فقال : الملكة ! الملكة التى تعرف حبنا ويزدوب قلبها شفقة علينا ، ولولاها لكنت اليوم فى بيت الطاغية .

فتمسك سيف بها فى ضراعة وقال :

— بل نخرج الليلة من صنعاء .

فقالت خيلاء :

— لا يخذلك السراب .

وكان صوتها صارماً كصوت الفضاء . وأطرق سيف كسيفاً وعادت إليه رؤياه فى قصر ذى جدن .

وخرج آخر الأمر صامتاً يجرر قدميه حتى صار فى مخدع أمه فقامت إليه فى لهفة وقالت :

— تجلد يا سيف .

فقال لها :

— قلبى يتمزق . الحياة تسخر منى ، ولا أكاد أصدق أننى لست

فى خيال الأحلام .

فقالت ريحانة :

— تجلد يا سيف فما هى سوى الحقيقة .

فقال فى دفعة :

— أية حقيقة يا أمى ! أأرضى أن أضيع خيلاء هكذا ؟

فقلت :

— إذا شئت أن تبقى لك .

فقال : وما بقاؤها لى هناك فى نجران ؟

فقلت : ستبقى لك بتولا حتى تلتقيا فى السماء . نعم فى السماء

يا سيف . ما أشقى الذين لا يجدون فى أنفسهم إيماناً !

ثم انتفضت بعد لحظة صمت وقالت :

— ماذا قلت لك يا سيف ؟ السماء ؟ ما هى سوى أكاذيب أدارى

بها عداوتى وحقدى . لن يصل إليها يكسوم وهذا كل عزائى . لن

يحرمك منها لكى يجعلها فى قصر غمدان أمة أخرى . لن تكون خيلاء

أمة ثانية أو ملكة ثانية فى مثل شقائى وهذا كل شىء .

فقال سيف : لن تكون له . سأقف دونها بهيئى أدفع عنها . بل

سنخرج الليلة من صنعاء وننجو معا من العبودية واليأس .

فقلت : أنت تلقى بها إليه إذا فعلت . استمع إلى أمك يا ولدى ،

أو استمع إلى صديقة عرفت الحياة فى أبشع صورها مكشوفة كالحلة

لا تدارى قبحها . ليتنى وجدت ديراً يعصمنى .

فصاح فى غضب : خيلاء أمة ؟

فقلت : ليست بأول أمة فى هذا القصر . دعها تخرج إلى نجران ،

فهناك تكون حرة حقاً . كم من الحرائر يبعن حريتهن من أجل فقاعة .

ولا عيب على امرأة تكون فى أعين الناس أمة وهى فى حقيقتها صافية

الحرية . دع يكسوم يزدرد . غيظه وهو يراها تنجو من مخالفه .

فقال سيف في حزن :

— وأما أنا !

فقالت ريحانة في عطف : تجلد يا ولدى ودع الأيام تداوى جرحك . وعزاؤك أنها لم تصبح أمة .

فقال في غضبة : وأبقى . أنا عبداً ؟ أماه ! لا بقاء لي هنا .

فقالت ريحانة في ذعر : سيف ! ماذا قلت يا سيف ؟

فأجاب : لن أبقى هنا !

فقالت : بل ابق إلى جنبي . لا تتركني يا سيف لوحدي وشقائي .

فقال : لقد حرصت على حرية خيلاء فلا تكوني أقل حرصاً على

حريتي . لن أبقى هنا لأكون عبداً ليكسوم . بل إن دماء أجدادي

تناديني أن أذهب إلى قومي وأدعوهم إلى استرداد إنسانيتهم وحريتهم . هذا

فرض توجبه على الدماء المنحدرة إلى من آبائي .

فقالت ريحانة في حزن : وأملك يا سيف .

فقال : أنت أولى بأن تدفعيني إلى أداء هذا الفرض يا أمي ، وألا

ترضى عن ولدك إن كان يقنع بحياة تدنسها العبودية . إنها حياة مثل

شجرة بغير جذور ولا ثمر ، وفي عصارتها سم نافع . إنها تدنيس لإرادة

الخالق الذي جعل الإنسان حراً عندما خلقه . لقد كنت موزعاً بين

خيلاء وبين هذا الفرض الذي لم يبق لي غيره . كانت خيلاء تعدني

بالسعادة ، وكنت أطمع أن نعزل الحياة وحدنا ونتعبد في صومعة حبنا .

ولكنها ذهبت تتعبد وحدها في نجران فلاذهب أنا إلى واجبي .
وكانت ريحانة تنصت في لهفة وصدرها يضطرب وعيناها تنطقان
عطفاً ثم قالت :

— ولدى ! كأني أسمع صوت أبي مرة . اذهب يا ولدى كما شئت
فقد امتحنك القضاء في هذه الساعة واختار سبيله . صدقت يا ولدى
فلست أرضي لك أن تكون عبداً ، فاهرب كما هربت خيلاء . أنت
ابن ذى وزن وقومك هناك في أودية الجبال وسواحل البحر ينتظرون
قيادتك . اذهب وقم بالفرض الذى توجهه عليك دماء أجدادك كما
تقول . وأما أنا . . . فيعز على أن تفارقنى ، ولكنى فارقت أباك من
قبل مكرهة ، فلافارقك أنت راضية . سأتجرع الغصص كل يوم
وكل ليلة وأنت بعيد عني لا أدري أين ولا كيف أمسيت . هكذا كنت
أتجرع الغصص من أجل أبيك .

وألقت رأسها بين يديها وجعلت تنشج نشيجاً مرّاً ، ووقف سيف
حياها في صمت مضطرباً بين الحيرة والحنق ، ثم انصرف مسرعاً
لا يدري أين يتجه ولا يعرف ما يريد في ساعته . وتقدم له الحارس
الحبشى عند الباب فقال له :

— الملك في انتظارك .

ولكنه مضى في سيره حتى أدركه الحارس فأعاد عليه القول أكثر
غلظة وهو يمسك بكتفه :
— الملك يدعوك .

فهرز نفسه من يده وخرج إلى فناء القصر فاعترضته ثلة من الأحباش بحرابها الطويلة . ولمس مقبض سيفه ثم أرسله وذهب صامتاً في وسط الحلقة الجاهمة إلى حيث كان يكسوم . وكانت كلمات أمه ترن في سمعه : « لست أرضى لك أن تكون عبداً ، فاهرب كما هربت خيلاء » .

١٤

قال الراوى :

عندما وقع بصر سيف على يكسوم في صدر الإيوان اعترته هزة كأن صوتاً صاح به في تلك اللحظة قائلاً : « قد مات أبرهة » ، وأحس في أعماقه كأن صوتاً آخر يصيح « أيها الطاغية الغاصب » .

وتقدم نحوه يسير بطيئاً ويحس الثورة المكبوتة في نفسه تضطرب في عنف . لم يخطر له من قبل أنه سيجد نفسه واقفاً أمام يكسوم يحس في قلبه المقت والغضب ولا يستطيع أن بنفس عنه بكلمة ، فكان صوت ضميره يزداد حنقاً ويقول : « أيها الطاغية الفظ الذي سلب مني سعادتي » . ولكن لسانه لم يتحرك إلا بتحية خافتة عندما صار أمام العرش فقال :

— عمت صباحاً أيها الملك .

وما كاد يقولها حتى انكشف واقشعر بدنه كأنه ارتكب خزيًا على
ملاً من الوقوف والجالسين . وعلا الدم إلى رأسه ووقف جامداً ينتظر
صوت يكسوم . ولكنه لم ينطق برد التحية بل نظر إليه بعينين تبصان
ببريق بارد خاطف ، ثم انصرف عنه متجهاً إلى القائد العربي الذي كان
واقفاً بين يديه فقال له :

— أحسنت يا حناطة إذ أشعرتهم غصة السيف .

ورن صوته الغليظ رنين النحاس .

وقال حناطة :

— كانت يا مولاي وقعة حاسمة . أخذناهم جميعاً في الشعب كما
تؤخذ الفيران في مصيدة ، فلم ينج منهم إلا من كان واقفاً عند فم الوادي
مردداً .

وخفق قلب سيف وهو يحس بوادى العاصفة . فمن هؤلاء الذين أوقع

بهم حناطة في الشعب الضيق ؟ أهم بعض قومه ؟

ومضى حناطة الحميرى قائلاً :

— وجاس الرجال خلال الوادي كله ، فلم يبقوا على شيء ،

قتلوا الرجال ، وغنموا النساء والأطفال ، وأحرقوا المزارع والقرى . وقد

اخترت لك يا مولاي أبرع فتياتهن حسناً ، وبعثت بهن إلى قصرك

بشرى الانتصار .

وابتسم ابتسامة خفيفة .

فقال يكسوم :

— أحسنت يا حناطة . ليعلم الجميع أن العقاب قريب وأن الفناء جزاء من يعين أعداء الملك . ولك أن تصنع ما تشاء بالأسيرات فوزعهن أو احتفظ بهن ، وأما الأطفال فاصنع بهم كما تريد .

وكان سيف يقول في نفسه : إنها قصة معادة ، ولكن حناطة الحميرى هذه المرة هو الذى يقتل الرجال ويغنم النساء والأطفال ويبعث بأبرعهن حسناً إلى يكسوم . أهكذا وقعت خيلاء يوماً من الأيام في يد رجل مثل حناطة ؟

وقال حناطة وإن أسفت على شيء فقد أسفت على إفلات ذلك الثعلب نفيل .

وصاح سيف في سره : نفيل ؟

وقال يكسوم : إلى الجحيم أفلت سوف تقع عليه يدي يوماً وسوف يعرف جزاء الخائن كيف يكون . سأذهب إليه بنفسى وأستوفى منه دينه عضواً عضواً وأقتطع من لحمه قطعة بعد قطعة . امض يا حناطة حتى لا تبقى ولا تذر . امض حتى لا تدع منهم باقياً أو هارباً . لقد جرأهم أبرهة بالعفو فحسبوا كل بارقة ذهباً .

ونظر بعد حين إلى سيف متجهماً ، فقال له :

— أقد عدت إلى صنعاء ؟

وكانت نظرتة تصف حقه .

وأجاب سيف ثابتاً :

— عدت إذ جاءنى النبأ الفاجع .

فقال يكسوم في ضحكة :

— أكان فاجعاً حقاً ؟

فقال سيف :

— إنما أتحدث عن نفسي .

فقال يكسوم في غيظ :

— حسبتك استغنيت عنه منذ حين .

فقال سيف :

— كان برّاً رحيماً وقلباً كريماً . ألهذا القول جئت بي إلى هنا ؟

فقال يكسوم :

— ليس لهذا دعوتك ولكني عجبت لقولك .

فقال سيف :

— ألم تسمع من قبل رجلاً حزن على صديق ؟

فقال يكسوم ساخراً :

— صديق ؟ مرحى لك ! ما أبرهة سوى صديق ؟ ومن هذا الذي

تملأ الأرض بذكره ؟ من هذا الأب الذي استحدثته ؟

فقال سيف ساخراً :

— أنتحدث عن أنسابنا ؟

فقال يكسوم جامداً : لا حاجة بنا إلى هذا ولكنها خاطرة طارئة .

أتتبرأ ممن أحسن إليك ومن تقول إنه كان برّاً رحيماً ؟ ألم يكن أبرهة سوى صديق ؟

فقال سيف :

— لو عرفت معنى الصديق عندي لعرفت بأى فضل أصفه .

فقال يكسوم :

— ومن هذا الذى تنادى الناس باسمه ، وتتوافد عليك الوفود لتحدث

عن مفاخره ؟ أتريدها ثورة جديدة ؟ ما هذا الاسم الجديد ؟ أهو
ذو يزن ؟

فانتفض سيف قائلاً : ليس ذلك الاسم جديداً ، وهل تجهله حتى

أذكرك به . نعم هو ذو يزن . هو أبى ذو يزن ، وهو أولى أن أسمى باسمه ،
ولست أبغى منه بديلاً . أهذا كل ما أردت أن تقوله ؟

فقال يكسوم متمهلاً :

— لا . لا . كل هذه خواطر تخطر لى فى ثنايا حديثك . وما جئت

بك إلى هنا إلا لكى أقول لك كلمة . لقد آن لك أن تطرح ما تعودته من
تدليل أبرهة . ليس لك اليوم إلا الجحد والحذر أو عداوة سافرة .

فقال سيف هادئاً :

— عرفت ذلك قبل أن تقوله .

فقال يكسوم غاضباً :

— بل أرهف أذنيك فى أنذر وأحذر . لست أنطق إلا جداً مرّاً .

فتضاحك سيف قائلاً :

— علمت أننى لم أجدى لأهوى .

فقال فى صيحة :

— حسبك أيها الفتى ؛ لقد عرفت غرورك وبطرك وعنادك .
ولكنك لن تعرف الجلد حتى ترى الرؤوس تطيح عن أعناقها . سوف
تعرف الجلد متى علمت مصير أصحابك وأعوانك ومن تسميهم قومك .
ثم صفق بيديه في عنف .

وسكت سيف لا يدرى ماذا يقصد ، حتى سمع ضجة عند باب
الإيوان وصاح يكسوم قائلاً :
— أسرعوا به إلى هنا .

ودفع الجند رجلاً يتعرّ بينهم في القيود ، وكاد سيف يصيح ذعراً :
« أبو عاصم ؟ »

واتجه نحوه بغير وعى يمد يده إليه في مواساة ، ولكن الجنود
جعلوا يدفعون الشيخ في عنف وهم محيطون به حتى أوقفوه أمام يكسوم .
وعجب سيف لابتسامة ضيئلة بدت على وجه الشيخ وأحس في قلبه
شعلة لهب .

وقال يكسوم في سخرية وحقد :

— أما زالت فيك بقية أيها الحيث ؟

وتعلقت الأبصار بوجه الشيخ المجعد وهامته الكبيرة البيضاء التي

وقعت عنها عمامتها . وقال الشيخ من بين ابتسامته :

— تسألني أبقيت في بقية ؟

فصاح به يكسوم :

— سمعت الصواعق أما سمعني ؟

فقال الشيخ :

— عرفت أنك سوف تسألني مثل هذا السؤال وأعددتك لك جوابي . فإن كنت قد دبرت في هلاكى خطة وجدت في قولى عذراً . لقد حاربت أباك عندما كنت أنت صغيراً

فقاطعه يكسوم :

— ولم يزدك عفوه إلا خبثاً .

فقال أبو عاصم : مهلاً ؛ حاربت أباك وكان يعرف أنه ما كان لي إلا أن أحاربه . ولهذا عفا عني . ولو قتلتني ما نفعه قتلى . فصاح يكسوم : كما نفعته حياتك .

فقال الشيخ : صدقت . فإن اعتداله رد السيوف إلى أعمادها سريعاً .

فقال يكسوم : أتهددني ؟

فقال الشيخ : افهم من قولى ما شئت . لقد مضت الأعوام منذ حاربت أباك وكأنها لم تكن ساعة واحدة . وأنت هذا ترانى مشرفاً على قبرى . وسيان عندى أتستعجل هذه البقية الضئيلة أم تدعها . اختر لنفسك ما تحب . ولكن اعلم يا يكسوم أنك تحفر لنفسك هاوية . أنت تستعجل خاتمة طغيانك كلما أوغلت فيه .

فصاح يكسوم : اصمت أيها الأحمق .

ومضى الشيخ كأنه لا يسمع :

— أنت لا تزيد إلا حنقاً بطاعة حنقك ، ولا تزيد إلا عذاباً

بما توقع من العذاب . أنت لا تزيد إلا بعداً عن الطمأنينة كلما ظننت أن عسفك يوقع الخوف في أعدائك ، وتقرب الخلاص إلى المطحونين كلما بالغت في طحنهم . أنت تحطم قيود الأشقياء الذين تقتلهم ، وتضعها في عنقك أنت وفي عنق أمثال هذا الشيطان الذي يغرر بك . وأشار إلى حناطة .

وكانت كلماته هذه تتقذف في وجه يكسوم برغم صرخاته المتوالية :
— اصمت ! اخرس ! كموا فمه !

وكان الحراس الذين حول الرجل يحاولون إسكاته وإغلاق فمه ويتجاذبونه في عنف وهو يقاوم في قوة تشبه قوة شاب ثائر .
ولما سكت آخر الأمر كانت قواه قد خارت . وتخاذلت أعضاؤه تحت ثيابه التي ذهبت قطعاً ممزقة .

وصاح بكسوم لاهثاً : لقد حانت ساعتك أيها الحبيث ، وما كان أولاك بالهلاك منذ أمد بعيد حتى لا تملأ الأرض فساداً . ولكنك ستلقى جزاءك الأوفى . خذوه حتى أمر فيه بأمرى .

وأسرع حناطة ومن معه من الجنود يدفعونه في حنق وقسوة ، وهو يحجل في قيوده ويتكفأ . وكان سيف ينظر مبهوتاً إلى المنظر العاصف ويحكم صيحات حنقه . ولما رأى الشيخ يترنح تحت ضربات الحراس صاح قائلاً :

— أيها الذئاب !

فلكم حناطة الشيخ قائلاً :

— اخسأ أيها الخائن .

ونظر نحو سيف كأنه يخاطبه .

فنظر الشيخ إلى حناطة وقال له هادئاً بصوت خافت :

— لو غيرك قالها ؟

فكان رد حناطة لكمة أخرى ترنح لها الشيخ صامتاً ، ومضى يحجل في قيوده متعثراً .

وصاح سيف متجهاً نحو يكسوم :

— إنها مثلة ! إنها وحشية !

ونظر الشيخ نحوه نظرة أخرى ، وانفرج وجهه البائس عن بسمة خافتة قبل أن يخرج من الباب .

وقال يكسوم في حقد :

— حقاً إنك كنت أولى بهذا . ولكن مهلاً ! مهلاً حتى ترى

بعينيك هلاك فلول الحونة الذين يشاركونك . أتعرف نفيل بن حبيب ؟

ومضى يكسوم قائلاً : سأحمل إليك بعض أنباء لا تعرفها ، وأظنك

تطرب لها . كان نفيل ينتظرك في شعب غيمان مع أصدقائك . وبعث

إليك رجلاً من قومك يستعجلك . بعث إليك هذا الشيخ لتذهب إليهم .

ولكنك كنت في شغل عن مثل هذا العناء . كنت في شغل بأحاديث

أخرى مع النساء .

وضحك ساخراً ضحكة طويلة . وكان سيف يستمع وهو بين

اللهفة والحنق ، وتمنى لو استطاع أن يقذف بحربة إلى صدر ذلك الضبع الذى أمامه .

ومضى يكسوم قائلاً :

— كنت فى شغل عن قومك ومؤامراتهم ومتاعبهم . وما لك أنت وهذا العناء .

وأحس سيف لدعة السخرية التى لاحت على وجوه الجمع الذى حول يكسوم . ومضى يكسوم قائلاً :

— فلما وجدتك لاهياً فى أحاديثك الناعمة بعثت آخر بدلا منك ليأتى إلى بأصحابك .

فقال سيف فى دفعة :

— أبعثت إلى لتسمع هؤلاء كيف تذلى ؟

فقال يكسوم فى هدوء منذر :

— من هؤلاء الذين تشير إليهم بقولك ؟ دع هؤلاء فإننى أنا أخاطبك

وأصبر على حماقتك . دع هؤلاء فهم أعوانى وأصحابى . هؤلاء هم الذين لا يداخلهم شك فى ولائى ولا يداخلنى شك فى ولائهم ؛ انظر إلى نفسك أنت واستمع إلى ما أنذرك به .

فقال سيف وهو يرتجف غضباً :

— بل استمع أنت ، ولا تدخل فى الحديث غيرى . سأهب لك

جوابى مثل ما وهب لك الشيخ الطيب جوابه . سأهب لك عذراً تتخذه تكأة للتنكيل الذى تهفو إليه نفسك . أقول لك إننى ابن ذى يزن سيد حمير ،

وإن لى قوماً لا أبرأ منهم إلا أن يكون فيهم زعيم مثل حناطة هذا ، يستعبد نفسه لك ويلحق قدميك لقاء فضلة من سلطانك ، فيستعبد لك الأحرار ويغتم لك النساء ولا يرحم طفولة ولا شيخوخة
فقاطعه حناطة فى غضب :

— جرأة خائن . وما سمعت بمثلها جرأة فى حضرة ملك .

وكان يكسوم يتقد غيظاً ولكنه قال ضاحكاً فى غل :

— امض فى قولك فأنت لم تتمه .

فقال سيف ضاحكاً :

— هذا أجدر بالضحك يا يكسوم . دع الحيانة يا حناطة فما أنت

إلا عبد أخذت ثمنك طعاماً ونساء بعد أن لم تكن شيئاً .

وهب حناطة غاضباً وهب الأحباش يحيطون بسيف وهو واضع

يده على مقبض سيفه وفى عينيه لمعة من العزم على أن يجعلها موقعة حاسمة .

وعلا صوت يكسوم قائلاً :

— دعوه فإن لى معه شأنًا .

وقام من مجلسه متجهاً إلى سيف بنظرة فيها سخط وفيها وعيد وقال

فى حقد :

— ما زلت تملأ شديقك غروراً وعداوة . ولولا أن يقول الناس إننى

بدأت بأخ لمسروق وبابن لريحانة لما أبقيت عليك ساعة . ولكن مهلا

حتى ترى مصارع أصحابك . لست أدعوك إلى التجميل ولا إلى المواجهة .

اذهب إلى من تسميهم قومك فانظر ما تستطيع أن تصنع بهم ، وابحث

فيهم عن تحمله على غرورك . لن أعيد عليك بعد اليوم لفظاً . وخير لك أن تعود إلى مجالسك حيث كنت مع النساء .

ثم قهقهه ساخراً وسار خارجاً من الإيوان ، وحراسه يسرون وراءه ومن حوله سراعاً ، وبقي سيف واقفاً في مكانه يحس قدميه ثقيلتين كأنه في كابوس . ودار به رأسه فلم يدر أين هو ، وغابت عنه أشخاص القوم وراء الأروقة وسأل نفسه وهو يسير كالمذهول : « أحقاً هذه الحوادث التي أشهدها ؟ أحقاً ودعت خيلاء آخر الدهر ؟ ورأيت صاحبي الشيخ يحجل في قيوده بين الجنود الغلاظ وسمعت يكسوم يسخر مني ويقهقهه متحدياً ؟ » ولمس سيفه فوجد مقبضه بارداً في قبضته المحمومة وجذبه من قرابه فخرج منه مقدار شبر تردد فيه لمعة زرقاء صارمة . وقال في مرارة : « لم يبق لي غير هذا » .

* * *

وخرج في أصيل اليوم التالي يودع خيلاء عند باب صنعاء . فلو وقف رجل على شاطئ بحر هائج في يوم عاصف وحول يديه ورجليه أغلال وقيود ثقيلة من الفولاذ ، ورأى أعز الناس عنده يجاهد الموج المفترس حتى تخور قواه ويغيب تحت الماء بغير أن يستطيع أن يمد إليه يداً أو يخطو نحوه خطوة ، لما كان أشد من سيف يأساً وحنقاً وحرناً في موقفه وهو ينظر إلى ركب الراهبات اللاتي ذهبن بخيلاء على طريق نجران . وهم بالسير وراء الركب فأشارت كبرى الراهبات إليه أن يبقى حيث هو ، وكانت إشارتها هادئة وديعة ولكنها

صارمة . ونظر نحو هودج خيلاء يحاول أن يلاقى نظرة منها يتخذ منها آخر ذخيرة للذكرى ، فرآها مطرقة تضم الصليب إلى جبينها وتميل برأسها في خشوع تصلى ولا ترفع بصرها إلى شيء . وكاد يصبح صارخاً يدعوها دعوة يائسة إلى البقاء ولكن صوته لم يطاوعه . وسارت الإبل تميل بهوادجها على رسلها لا تبالي شيئاً من أمامها ولا من ورائها . وأخذ النسيم يرف بأستار المحامل كأنه يلوح بتحية حائرة مضطربة حتى غاب الركب وراء ثنية الطريق . وبقي سيف في موقفه حيناً ينظر في الفراغ الصامت وفي قلبه حرقه طفل يتزع من بين ذراعي أمه ويعجزه الضعف أن يلحق بها . ولم يدركم مضى عليه من الوقت وهو هناك ثابتاً لا هياً عن كل شيء سوى حزنه . ثم تنبه إلى نفسه يسألها كأنه لا يعرف الحقيقة . فكأن مسالك الفضاء قد سدت دونه ، وكأن نور الأصيل قد خبا فعاد ظلاماً ، وكأن الربيع قد تعطل من محاسنه وشحب لون زهره ، وكأن أشعة الشمس الحابية تقذف شرراً . وتلفت إلى ورائه نحو القصر الكئيب وهمت به دفعة أن يهرب منه كما يهرب المحبول من الأشباح التي تطارده . ولكن إلى أين ؟ واقتلع قدميه يسير على غير هدى فإذا هو يعود إلى القصر ، حتى إذا بلغه ذهب إلى البهو ووقف عند الوعاء المرمرى . ولكنه وجده صامتاً جامداً فاتراً لا يزيد على قطعة من الحجر . وذهب إلى حجرة خيلاء لعله يتنسم من قبلها أنفاساً تبعث إليه شيئاً من السلام ، ولكنها كانت مثل طلل في صحراء مقفرة بعد أن غادرتها خيلاء ، فعاد نحو حجرته . وكان لا يزداد مع

كل خطوة إلا ضيقاً ، حتى أفاق على الحارس الحبشى يعترضه مثل تمثال من نحاس قائلاً :

— لا يؤذن لأحد فى الدخول إلى هنا .

فلم يجبه ولم ينظر إليه ومضى فى سيره كالحالم حتى أعاد عليه الحبشى قوله مرتين ، ثم رآه يسد طريقه بسنان الحربة . فنظر سيف إليه فى سخط ثم سار خارجاً حتى بلغ مرابط الخيل فأخذ مهره الأبيض وخرج من الباب الخلفى إلى طريق الشمال . « إلى أين ؟ » لم يدر سيف إلى أين يتجه بعد أن وجد نفسه فجأة على الطريق الحالية . فإنه كان إلى تلك اللحظة منقطعاً إلى نفسه وأحلامها وخواطرها وأشجانها وأحاديثها المختلفة ، فلم يفكر ساعة واحدة فى خطة حياته ، ولم يصرف ذهنه مرة واحدة إلى الحقائق التى كان لا بد له من مقابلتها . أهكذا يخرج من حياة إلى حياة أخرى كمن يلتقى بنفسه إلى البحر عندما يجد نفسه على شاطئه ؟ وتذكر قول أمه إذ قالت له : « إنك أسلمت نفسك للخيال حتى إذا عدت إلى الحقائق وجدتتها تصدمك وتهزمك وتجرفك » . نعم كانت الحقيقة تجرفه وهو لا يدرى إلى أين .

وجاء الليل على بطء يستصحب مرارة العجز وحر القيظ وضيق الوحشة . وخلف سيف المدينة وراء ظهره يرى من أمامه ظلاماً ومن خلفه ظلاماً وفى قلبه ما هو أشد سواداً من الظلام ، وأخذت النجوم تلمع من فوقه صامته هادئة لا تبالي شيئاً من الهموم التى تثقل قلوب البشر . أهكذا خرج أبو مرة فى ظلام الليل وحيداً لا يعرف قراراً يستقر

فيه ؟ وأين ذهب ؟ أما زال حيًّا أم قضى عليه الهم والأسى ؟
 وكان النسيم يهب من الجنوب يحمل عطر أزهار الربيع كأن ليس
 على الأرض طريد محروم يهيم على وجهه وحيداً . وعاد فكره إلى خيلاء في
 شيء من العتب كأنها قد تخلفت عنه وقطعت ما بينهما عمداً . أكانت
 في تلك الساعة تنظر مثله إلى السماء وترى النجوم البعيدة تومض إليها كما
 تومض إليه غامضة رهيبة ؟ أما يتجه فكرها إليه ، كما يتجه هو بكل
 قلبه إليها ؟ أم هي تصرف عنه فكرها خشية الخطيئة ؟

وكانت الآكام تحف بطريقه من جانبيه ، والطريق يفرج في
 الضوء ، المنبعث من النجوم ، والجوادر يسير على رسله والعنان مرخي
 على كاهله ، وقال في نفسه : « أيها الجوادر سر أين شئت فأنت أهدي
 مني » . ومسح على معرفته في عطف وشكر .

لم يدر كم مضى عليه في سيره ثم أحس بالجواد يصعد في أرض
 صلبة ، وتلفت فإذا عن يمينه وشماله هوتان عميقتان مظلمتان ومن أمامه
 قصر عال يقطع صفحة السماء عابساً . « إنه قصر ذي جدن » .
 ونزل كأنه يتحرك في نومه متجهاً نحو الباب المغلق وطرقه . فجاء إليه
 الحارس بعد حين يطل من كوة صغيرة قائلاً في نغمة جافية :

— من أنت ؟

وأجاب سيف في صوت خافت :

— أنا سيف .

فهز الرجل نفسه في دهشة قائلاً :

— سيدى ؟

وفتح خوخة الباب فى حذر ثم ردها وراءه هامساً :

— الحبشة هنا .

وصمت سيف لحظة فى تردد وزاد انقباضاً . ثم ذهب إلى جواده

قائلاً للحارس : وداعاً يا صبيح ؛ لا تخبر أحداً عنى .

وسمع همهمة الرجل وهو يجيبه بصوته الخافت فى رحمة . ثم سمع خوخة

الباب وهى ترتد وراءه ، وكأن بقية من أمل قد غلبها اليأس فى نفسه .

« حتى بيت جدى ! »

هكذا قال فى نفسه : « حتى بيت جدى الذى كنت أحسب أن

أعيش فيه مع خيلاء ؟ » .

وعاود السير على الطريق تاركاً عنان الجواد على كاهله . ومسح

عنقه يستأنس به شاكراً أن يجد على الأرض صديقاً باقياً لا يسأله إلى

أين تسير . وسار الجواد خفيفاً جريئاً كأنه هو خرج يقصد قصداً .

وظهر القمر بعد حين من وراء الجبل الشرقى مثلما ينهض الليل النحيل

يجاهد أن يقوم والضعف يعجزه ويترنح به ، ولكنه جلا الأرض شيئاً

وكشف له وجه الربى المعشبة ، وعجب إذ أحس شيئاً من الأنس يدب

إلى قلبه كما يتنفس النسيم الفاتر فى أعقاب يوم شديد الحر

وأحس كأن الليل يبش له بعد عبوس فملاً صدره من الهواء ، وزالت

عنه تلك الوحشة التى خيمت عليه منذ خرج من صنعاء . إن

أودية الأرض ما زالت واسعة يستطيع أن يجد فيها جواراً يأمن عنده ودياراً

يحل فيها كريماً . أليس قومه أمامه في تلك الأودية الساكنة ؟ وطال به السير حتى لاح الفجر من المشرق يتنفس هادئاً مثل جواده الفتي ، ورأى إلى يساره ضوء نار تتقد حيناً ثم تخبو حيناً . فلوى عنان الجواد متجهاً نحوها وهو يحدث نفسه حديثاً جديداً . سوف يمضي إلى قومه في شعاب الجبل فهم يملأون الأرض وينتظرون مقدمه . وسوف يجمع شملهم ليستأنف الجهاد الذي بدأه جده وأبوه . سوف يستعذب لسع الأفاعى والعقارب وسوف يستسيغ طعام العظام والدماء ، سوف يُقْتَلُ ويقتل ويُقْتَل . ولاحت له صورة يكسوم إذ ينظر إليه بعينه القاسيتين ورنث ضحكته الساخرة في أذنيه وثار الدم في رأسه . سوف يقتل ويقتل ويُقْتَلُ . وبلغ قريباً من النار فالتفت إليه امرأة شابة تتلفف في خمارها ويبدو شبابها من اعتدال رأسها ولين حركتها . وقالت له مبادرة :

— على الرحب نزلت .

ثم أسرع نحو الخيمة تنادى زوجها .

وترجل سيف في تردد ، حتى رأى صاحب المنزل يخرج إليه وهو يلتقي شملته على كتفيه ويناديه قائلاً :

— مرحباً بك وأهلاً !

وما كادت عين الرجل تتبينه حتى صاح قائلاً :

— سيف بن ذى يزن !

وفتح له ذراعيه . وانقضت هموم الليلة فجأة عن سيف كما تنقشع السحب السوداء في أعقاب زوبعة .

قال الراوى :

كانت المياه الصافية الزرقاء تتموج فى رفق تحت الصخور السمراء العالية المحيطة بالخليج ، وجلس على الشط رجال يتحلقون فى حلقات يتناقلون الأحاديث على الرمال ، والنسيم يرف رهواً دفيئاً من قبل البحر الهادئ . وكانت الشمس تبعث أشعتها المائلة تتوالب على ظهور الموج فى عرض البحر ، وتنبعث منها خيوط من بين فرجات الصخور ، فتقع لامعة على قطع من الخليج الظليل وترسل بسمه مؤنسة فى وحشته . وكان سطح البحر يشف عن شعاب المرجان تتلألأ فى ألوان شتى ، بعضها أبيض ناصع وبعضها أحمر قرمى أو أزرق بنفسجى ، كأن عرائس البحر قد تأنقت فى ذلك الركن المنعزل من شاطئ السودان وأعدته ليكون لها مراحاً . وعلى صخرة ناتئة فى البحر فى الطرف الأقصى من الشاطئ جلس سيف بن ذى يزن فى ثوب من الزرد وسيفه يتدلى من منطقتة ، يمد عينيه إلى الأفق ساهماً وفى نظرتة العابسة ما يئم عن صرامة تكاد تبلغ القسوة . وكان وجهه المعروق تعلوه سمرة والنسيم الهفاف يعبث بأطراف شعره المرسل إلى كتفيه ، لا يكاد الناظر إليه يتبين ملامح الفتى الذى ترك غمدان منذ ثلاث سنوات . لشد

ما تبدل سيف في هذه السنوات التي قضاها في اضطراب بين
أودية اليمن وشواطئها لا يستقر به المقام في مكان حتى تلاحقه جنود يكسوم
قبل أن يجتمع إليه جمع يستطيع أن يثبت به في قتال . فما زالت شعاب اليمن
وشواطئها تتقاذف به حتى انتهى به الوثوب إلى ذلك الملجأ المنعزل من
الشاطئ المقفر عبر البحر . وكان معه فتیان من قومه أبوا أن يتخلوا عنه
وساروا معه يشاركونه حياة لا استقرار فيها . فكانوا يهبطون معه على
سفن الأحباش العابرة بين شاطئ البحر فيغنمون ما فيها من بضاعة
ويوقعون بمن قد يكون فيها من جنود يكسوم ، ثم يعودون إلى مخبئهم
الخفي . ونسى سيف في تلك الحياة الجديدة أو كاد ينسى كل ما مر به
في حياته الأولى ، إلا خطرات كانت تعتاده حيناً بعد حين . لم يبق في
قلبه إلا شيء واحد أصبح كل همه في حياته ، وهو أن يصدّم أعداءه أينما
استطاع وأن يوقع بهم كلما استطاع . وكان في جلسته على الصخرة ينظر
إلى البحر الواسع الممتد تحت عينيه كما ينظر الفهد الذي يتربص بأعداء
يطاردونه من حواليه . هذا البحر الفسيح يفتح له آفاقه باسماء حيناً
وعابساً أحياناً وهو في كل أحواله صديق جبار تعجز يد يكسوم أن
تمتد إليه .

وبرقت أمامه هنة ضئيلة تتحرك عند أفق الجنوب ، فمد بصره إليها
وتقلصت عضلة ساعده وأسرعت أنفاسه وعلق بصره بها كما يعلق
الفهد بصره بفريسة مقبلة . لقد مضت أيام ولم يجد فرصة يشفى بها
غليل قلبه . ولكن الهنة الضئيلة كانت ثابتة عند الأفق لا تكاد تتحرك .

فنزّل إلى الشاطئ الرملّي يسير بخطوات واسعة حتى بلغ آخر منحناه ،
ورأى أصحابه في حلقاتهم الصغيرة يتحدثون . ما لهم يتصاحكون هكذا
كأن قلوبهم خالية . وعاد نحو صخرته مسرعاً في خطاه مؤثراً أن يخلو إلى
خطراته الحانقة . وسأل نفسه ما جدوى تلك الصدمات الصغيرة التي
لا تصيب يكسوم إلا بأيسر الأذى ؟ إنه هناك في غمدان تبلغه الأنباء
أحياناً أو تخفى عنه ، وما يزعجه من سفينة أغار عليها لصوص البحر
فاقتطعوا من بضاعتها غنيمة أو قتلوا ممن عليها بعض الجنود ؟ أهذا كل
ما يستطيع من جهاد يكسوم ؟ وتمنى لو رآه أمامه في جمع من أحبابه
فيقذف نفسه عليه حتى إذا لم يبق له من الحياة إلا ما يمكنه من أن
يتعثر إليه حتى يغمد سيفه في قلبه لمات سعيداً .

وهجمت عليه صور من ذكريات كأنها كانت حبيسة ثم انطلقت
جافلة . كيف أمست خيلاء بعد هذه السنوات ؟ أهى مثله تعاودها
ذكرياتها بين حين وحين ؟ ألا تذكره في ساعة من ليل أو نهار ؟
أم هي لا تفكر إلا في المسيح الذي انقطعت له ؟ لحظات مسحورة ؟
ألا ما أقساها وقعاً إذا ذكرها المحروم منها ! إنما يسعد بذكرياتها
أولئك الذين تغمرهم السعادة دائماً . وأما المحرومون فإنها تزيدهم شقاء .
أيعود يوماً إلى نجران حتى إذا وقعت عينها عليه ألقت بنفسها بين
ذراعيه باكية من فرط السعادة ؟ هيهات هيهات . وعاد ببصره إلى الأفق
فرأى الهنة الصغيرة قد تبينت صورتها . إنها سفينة حقاً ؟ وكان الموج
الهادي يتدافع تحت قدميه كأنه دلافين تتلاعب في مرح . وود

لو ثارت عاصفة فكدفت على الشاطئ بموج فائر يصطدم فى الصخور صاخباً وىطائر عنه الرشاس الأبيض مدوياً عنيفاً ، فإن ذلك أكثر اتساقاً مع خواطره الثائرة .

وشق السكون الشامل صوت منبث من أعلى الشاطئ الصخرى ، يشبه صيحة أنثى العقاب إذا آوت إلى وكرها فى قمة الجبل بعد طول غيبها لتدعو فراخها حاملة إليهم بشرى عودتها إليهم بالفريسة . فاستجمع سيف نفسه ووثب من مجلسه خفياً وقد شردت عنه ذكرياته كأنها سرب من الخفافيش أزغجتها المطاردة فى الظلام ، فتفرقت تطلب ملجأ فى الزوايا البعيدة . وكانت الصيحة مغروفة له ولأصحابه صيحة الربيئة الواقف فى أعلى الصخور يرقب البحر فى انتظار السفن العابرة .

وتسابق الفتيان إلى سفينة قابعة فى ركن من الخليج ترشح فوق الماء الصافى ، وما هى إلا لحظات حتى استقروا فى مواقفهم وقال سيف :

— الجميع هنا ؟

فأجابته أصوات بعضها جاد ، وبعضها ضاحك معابث ، واندفعت السفينة الصغيرة منسابة فى الخليج والمجاديف تضرب فى الماء معاً ثم تعلو معاً كأن يداً واحدة تحركها . ووقف سيف عند صدر السفينة يقلب بصره فى عرض البحر واضعاً يسراه فوق حاجبيه : وصاح قائلاً :

— الشمس تميل إلى الغرب فاجعلوه سباقاً معها .

وتقاربت ضربات المجاديف واندفعت السفينة تشق الماء رشيقه ،
وأمسك الفتيان عن النطق إلا همسات كأنهم يجمعون جهودهم للمعركة
المنتظرة . واقتربت السفينة الضخمة بعد ساعة وكانت تجاهد بطيئة في
سيرها والنسيم الفاتر لا يكاد يملأ أشرعتها الثلاثة . ونظر سيف إلى
سطحها يتأمل من عليه وما عليه وأحس بشيء يشبه خيبة الأمل . لم
تكن من تلك السفن الأنيقة التي تحمل تجارة الحبشة من زبيد أو جزيرة
فرسان ، ولم تكن من السفن السريعة التي تقصد شواطئ مصر —
عذاب أو القلزم أو أيلة وتحمل رسل يكسوم وهداياهم إلى قيصر . كان
يود لو كانت تلك إحدى السفن التي يجد فيها فرصة لشفاء غليله ،
ويرى دماء أعدائه تسيل تحت قدميه ويستمتع إلى أنينهم وهم يعالجون
سكرات الموت .

وجاء بعض ركاب السفينة فوقفوا وراء جوانب السطح ينظرون في
دهشة إلى السفينة الصغيرة التي تقترب منهم بسرعة . وعلا صوت
سيف قائلاً :

— علقوا السلايم .

وهدأت السفينة الصغيرة في سيرها وقام بعض رجالها إلى سلايم
عريضة من خشب لها كالاليب من الحديد في أطرافها ، فألقوها على
السفينة الضخمة وغرزوا الكالاليب في جنبها . واهترت سفينتهم هزة
عظيمة ثم استقرت تسائر السفينة الأخرى . وعقلت الدهشة ألسنة الركاب

فبهتوا حيناً وهم ينظرون إلى الفتیان إذ يتبادرون إلى السلايم وسيوفهم في أيديهم ، ثم انطلقت منهم صرخات الذعر الحبيسة وتفرقوا في اضطراب يلتمس كل منهم ركناً بعيداً يلوذ به . وصعد سيف إلى السفينة أخيراً وهو فاتر حتى إذا بلغ سطحها رأى منظراً جعله يغمد سيفه ويقف مبهوتاً .

كان ركاب السفينة مثل قطيع بائس من الماعز يتراحم ويتخبط في دفعات هوجاء . وذهب الفتیان يبحثون في السفينة فإذا التيار الأعشى يرتد نحو سيف في عنف ، وقد غطى على عيونهم . فوقف ثابتاً حتى اختلط به الجمع كأنه دجاج مذعور يتعثر فيه ويتطاير حوله . وكان فيه فتاة تحاول أن تقاوم صارخة غاضبة والتيار يدفعها معه لا يستمع إلى شيء من ألفاظ الحق التي كانت الفتاة تصبها . واصطدمت في اندفاعها بسيف ومدت يدها تتعلق به فمد يده إليها وانتزعها فإذا هي بين ذراعيه ليسندها ، وتشبثت به حتى تفرق الجمع ومضى في دفعته إلى أقصى السفينة من الناحية الأخرى ، ثم دفعت نفسها عنه في غضب وقالت له :
— تعساً لك !

— فقال لها سيف :

— لا تراعى يا فتاة .

وكانه لمح في وجهها شيئاً استوقف نظره لحظة . ثم التفت نحو أصحابه وكانوا عائدين يتصاحكون في عجب .

وصاحت الفتاة بهم :

— ويلكم ماذا تبغون منا ؟
فقال لها سيف في نظرة عابرة :
— لسنا نبغى شيئاً فاهدئي .
فقال في عنف :

— ما أخيبكم من لصوص جبنا . أتقول لي اهدئي . وهل رأيتني
فزعت حتى أهدأ . إن هؤلاء الحمقى هم الذين جرفوني ، ولو كان
معي سيف لوقفت في وجوهكم جميعاً . أما تخجلون أن تجردوا السيوف
على العجائز والأطفال ؟

وكان وجهها المقلص وعيناها الملهبتان ورأسها المرفوع بالتحدي
تزيد ألقاظها حرارة . واتجه سيف إليها بنظرة فاحصة وهي تقذف
بالفاظها وتبعث مع كل لفظ منها شرارة من غضبها ؛ ولم يملك ابتسامة
شاردة اجتمع فيها إعجابه ودهشته . كان وجهها الأسمر تعلوه نظرة
الشباب وعيناها السوداء الواسعتان تنطقان عنفاً ، على حين كان
حاجباها الدقيقان وأنفها المستوى الدقيق تنطق رقة من وراء ثورتها الوحشية .
وكان رأسها المرفوع يبرز محاسن عنقها وصدرها ، وحركة غضبها تهز
قوامها اللدن المعتدل . كان جماها يبرق من خلال عنفها كما تبرق محاسن
النمرة الشابة إذ تتجمع للوثوب على غريم تعرض لها . ولم تزدها ابتسامة
سيف إلا غضباً فقالت :

— خذ أصحابك وانصرفوا إن بقيت فيكم شهامة ، واستشعر الحجل
بدل أن تبسم هذه الابتسامة المتكبرة .

فقال سيف :

— أزيل أيتها الحسناء هذه السحابة عن وجهك . ممن أنت ؟
وخيل إليه أنها هدأت قليلاً عندما سمعت قوله ، ولكنها همهمت بجواب
ثم مضت بعد أن علقت بصرها لحظة في وجهه . وخيل إليه كذلك
أن بسمة خاطفة مثل لمحة البصر سنحت في عينيها وهي تنصرف
نافرة . ونظر في أعقابها حتى غابت وراء أكداس الطرود الملقاة
على السطح ، ثم رأى رجلاً ضخماً يتدحرج في مشيته البطيئة مقبلاً
نحوه كأنه كان مختفياً يرقب ما يحدث للفتاة . وكان من ورائه بعض
رجال يبدو عليهم الضعف والهزال في ثيابهم الممزقة . وصاح الرجل
قائلاً بصوته الحاد :

— ما خرجنا إلى قتال أيها الشجعان ، وليس معنا ما يستحق أن
يؤخذ . نسأى طواق وسفنى غوارق إن كنت أقول غير الحقيقة .
فقال سيف باسمًا :

— إلى أين تسير أيها الربان ؟

فقال الرجل كأنه لم يسمع سؤالاً :

— هل مثل هؤلاء يحمل شيئاً له قيمة ؟ ما رأيت في حياتي أكثر
منهم خبثاً ولا أشد منهم بحاجة ومما كسة في الأجر .

فقال سيف : من هم ؟

فقال الربان :

— هؤلاء الذين تسمع صياحهم وترى تخطيهم ، كأنهم رأوا

الشياطين أمامهم . يضطربون هكذا مثل قطع من الغنم كأن حياتهم ذات قيمة . ولو رأيت كيف قلعوا الصاري الأكبر . . .

فقاطعه سيف قائلاً :

— وأين تسير بهم ؟

فقال الرجل : ليتنى أستطيع أن أقذف بهم ها هنا . خذهم إذا شئت فقد يكونون أئمن من بضاعتهم . قد تباع الواحد بدينار والواحدة بنصف دينار . وفيهن واحدة يقال إنها بمائة ناقة . نسائي طوالق وسفني غوارق إن كنت أقول لك كلمة

فقال سيف مقاطعاً :

— ولكنك لم تقل إلى أين تسير . وكنت أود أن أسألك من أين

جئت .

فقال الرجل : ومع هذا فإنهم لا ينقطعون عن الثروة . ألم تسمع بأذنك كيف تستطيع إحداهن أن تشتم ؟ هكذا يشتمونني أنا . ليتك رأيتهن وهن يطلبن مني كالمجانين أن أسرع إليكم لأطردكم ، كأنني خرجت لأطرد من يتعرض لهن . وهذه الجنية الشيطانة التي رأيته منذ لحظة ، أتصدق أنها خنقتني يوماً بيديها وكادت تزهرق روحي . أتصدق أن فتاة مثلها تفعل ذلك ؟ أظنك تبسم لأنها أعجبتك . لا يغرنك حسنها فإن أظافرها مثل مخالب القطط .

وغمز بعينه باسماء وقال :

— كلما نزلنا بشاطئ أثارت فيه معركة . ومع هذا فكلهم يسألونني

من هي ؟ ولو عرفوا حقيقتها لفروا من وجهها . إنها تصبح سيدها بعلقة
وتمسيه بعلقة .

فقال سيف :

— أها سيد ؟

فقال الرجل ضاحكاً :

— هكذا كان الجميع يسألون عنها . أرايت ؟

وأعاد ضحكته عالية . ومضى قائلاً :

— لست أدري في الحقيقة أيهما السيد وأيهما الأمة . هو يقول

إنه اشتراها بمائة ناقة وإنه لا يبيعها إلا بمائتي ناقة سود الحديق . ولكني

أظنه نتاشاً كاذباً ، وأغلب ظني أنه يبيعها لك إذا شئت بمائة دينار .

ولكن كيف تأتي له بثمنها ؟ لا تؤاخذني يا سيدي . نسائي طوالق وسفني

غوارق إن كنت أقصد . . .

فقاطعه سيف باسمًا :

— دع نساءك في سلام وقل لي من أين جئت ؟

فقال في تردد :

— من جزيرة فرسان بعد أن انتهى سوقها . والحق أنني سمعت

هناك . ولكن نسائي . . .

فقال سيف : ماذا سمعت ؟ قل ماذا سمعت ؟

فقال : أقصد أنهم قالوا لي ولكني لم أصدق . كل منهم يريد أن

يقول كلمة .

فقال سيف في شيء من الضيق وهو ينظر إلى الشمس المنحدرة :
— ماذا قالوا ؟

فقال الرجل : قالوا كلاماً كثيراً ولكن هذا الطريق أقصر ، وأنا أعرف هذه الشواطئ جميعاً . والماء هنا أهدأ والشواطئ لا صخور فيها . والطريق الآخر أشد عواصف ، ولو استمعت إليهم لكنت الآن أزحف في وجه التيارات القوية . ولكنني عصيتهم وسرت من هنا . وإذا علت الريح اندفعت السفينة مثل المهر الأصيل . ولستم مع هذا كما صوروكم في أحاديثهم . لم تمدوا يداً إلى أحد ، وأنت تتحدث معي كما لو كنت إنساناً مثل الناس . نسائي طوالق . . .

فانطلقت ضحكة عالية من الفتیان وقال أحدهم :

— كم عدد نسائك أيها العصفور ؟

فتبسم الرجل في خبث حتى ضاقت عيناه المكورتان وقال :

— إن شئت الحق فلست أدري ما عددهن .

فعادت الضحكة وقال سيف

— كم ثوباً تشتري لهن ؟

فقال وقد اتسعت بسمته :

— لست أشتري شيئاً . كل شاطئ فيه واحدة أو اثنتان أو ثلاث ،

ولست أجد وقتاً للشراء في أحدها ، فأنا دائماً على عجل .

فقال أحد الفتیان :

— وكم معك منهن على السفينة ؟

فالتفت إليه الرجل بنصف جسمه قائلاً :
 — أما هذا فلا نسأى طوالق إن كنت أحدث الناس عن
 حرى .

فقال سيف وهو يضرب بكفه على كتفه :
 — يلوح أنك غيور يا صديقي ، كم سنة تجوب هذا البحر ؟
 فقال في مباهاة :
 — أربعون عاماً . قبل أن يعبر الحبشة إلى اليمن . لست أنت من
 الحبشة بلا شك .

فقال سيف :
 — وأنت ؟
 فقال الرجل :
 — أنا ؟ أما ترى وجهي ؟ ليس على سفينتي أحد منهم . أما سمعت
 عن سيف ؟
 . فقال سيف : أتعرفه ؟

فقال الرجل وكيف لا أعرفه ؟ سيذهب إلى يكسوم بجيش
 عظيم ليطرده من صنعاء . ولكنه لن يدركه حياً ، إلا إذا أسرع
 منذ الآن .

فقال سيف في اهتمام : وكيف ؟
 فقال الرجل : يقولون إنه مريض . ويقولون إنه جريح في موقعة
 مع نفيل بن حبيب . ولكن آخرين يقولون إنها خدعة ، وإنه يدعى
 (١٧)

المرض حتى يطمع فيه سيف بن ذى يزن ويعود إلى صنعاء ، وهناك . . .
ثم رفع يده وأشار إلى رقبته إشارة القطع .

فقال سيف : أنت رجل ظريف أيها الربان . ما اسمك ؟

فقال الرجل : أظنك قد تأخرت هنا والشمس تنحدر بسرعة .
نسيت أن أقول لك إن هؤلاء سائرون إلى عكاظ . وسألتى بهم عند أقرب
قطعة من ساحل الحجاز . فإذا احتجت يوماً إلى خدمة منى فاسأل في
جزيرة فرسان عن أبى العيوق .

فانفجرت ضحكة أخرى من الفتيان وشاركهم سيف وهم يسرعون
على السلايم ، والرجل الضخم ينظر في آثارهم فاتحاً فمه كأنه يقول : « إن
في هذا العالم من يصيبهم الجنون » . ومالت الشمس تكاد تصافح الأفق
عندما بلغت السفينة الصغيرة مدخل الخليج ، وكانت الأمواج تتلاطم
متدافعة في أذيال ربح عالية بدأت تعنف شيئاً بعد شيء آخر النهار .
وتفسح الفتيان على الشاطئ بعضهم يوقد ناراً وبعضهم يستروح ساعة
قبل أن يلف الليل الفضاء ، وكانت السفينة الضخمة تدب عند الأفق
متجهة نحو الشمال ، وصورة الفتاة الغاضبة تتمثل لسيف وصوت الموج
يقع في ظهر وعيه الحالم . ولما غمضت الآفاق وانبهمت معالم الشاطئ
قام من مجلسه يسير نحو الكهف الذى اتخذه منزلاً ، إذ لم يجد خفة إلى
المجلس الذى اعتاد أن يجتمع فيه مع أصحابه في ساعة العشاء .

وكانت شعلة المصباح الضئيل تراقص مع أنفاس الهواء وتبعث
على جوانب الكهف ظلالاً غبشاء تتحرك كالأشباح . فعادت إليه

ذكرى كهف ينور وقصة العجوز وصاحبه الشيخ المسكين أبي عاصم .
 أيهلك يكسوم قبل أن ينفذ إلى صدره طعنة تمزقه ؟ أتحرمه الأقدار من
 هذه السعادة الكبرى ؟ وخيلاء ؟ كان يوماً يظن أنها سعادته الكبرى
 أحقاً تبعد عنه أبد الدهر ؟ أحقاً كان يوماً في قصر غمدان ووقف معها
 إلى جانب الوعاء المرمى ؟ إنها أيام بعيدة إن كانت حقيقة . ثم لمعت له
 صورة الفتاة الغاضبة . لم يكد ينظر إلى وجهها عندما قال لها : « لا تراعى
 يا فتاة » ، ولكنه أحس دفء جسمها وهو يضمها إليه بغير وعى ، ثم
 نظر إلى وجهها الغاضب . ما أعجب تلك اللعة الوحشية التي رآها في
 عينيها . وأنفها المستقيم وحاجباها الدقيقان ورونق شبابها النضير . كان
 جسمها اللدن أشبه بتمثال جنية غاضبة . كم وقفت تلك الفتاة في مواقف
 عنيفة ؟ كانت كل حركة منها تم عن أنها اعتادت الدفع والمقاومة
 والاسماتة ، ومثلها من يستطيع أن يطعن بخنجر أو يتعرض للطعنة .
 أهي الأخرى أمة تباع وتشترى بمائة ناقة أو مائة دينار ؟

كان بين الصورتين شبه عجيب كما كان بينهما فرق عجيب –
 بين صورة تلك الفتاة وبين صورة خيلاء . ماذا تفعل في عكاظ وأية
 تجارة هناك لمثل تلك الشيطانة الحسناء ؟ وأي فرق بين بسمتها وبسمة خيلاء ؟
 وأحس وخزة من الندم عندما تحدث عن خيلاء وهو يتمثل بصورة
 الفتاة النمرة . كيف يقرن صورة ملاك بصورة . . . ماذا يسميها ؟ ولكن
 أين خيلاء ؟ إنها هناك في دير نجران لا في عكاظ حيث الزحمة والتدافع
 والتنازع والتحدى .

أما الأخرى فهي مثله في حياته الجديدة التي يجهاها في السطو على السفن ، أو في القتال العنيف الذي يملأ قلبه حقداً وعداوة وقسوة . هذه تستطيع أن تستمع إليه إذا حدثها عن طعناته للأعداء وعن مغامراته في الأودية والبحار ، وتطرب إذا وصف لها المآزق التي وقف فيها ونجا منها على سراط ضيق معلق فوق هوة عميقة مظلمة .

واستطاع بعد حين أن يغمض عينيه في نوم عميق لم يستيقظ منه إلا بعد أن أطلت الشمس عليه من بين صخور الكهف .

وكان أول خاطر سنج له أن ذهب إلى أصحابه ليفضي إليهم برأي جديد بدا له بغتة كأنما استقر عليه في أثناء نومه العميق .

فقد أوشك شهر ذى القعدة أن يستهل ، وسيذهب الناس من كل فج إلى سوق عكاظ يبيعون ما عندهم ويشترون ما عند غيرهم ، ويشهدون الموسم الذي تستفيض فيه الأحاديث عما يجري في بلاد العرب جميعاً ، يحمل كل قوم منها طرفاً يعلمونه . وهناك يستطيع أصحابه أن يجمعوا أكداً من الذهب لقاء ما عندهم من الغنائم المكدسة . وما كاد يفضي بهذا الرأي إلى أصحابه حتى وثبوا إليه في حماسة كأنهم كانوا يتمنونه .

وأخذوا يستعدون من ساعتهم للرحلة القريبة قبل أن تتفلى فرصة الموسم العظيم .

قال الراوى :

بدأت الصبا تهب رفيقة من قبل نجد على النازلين فى عكاظ على مقربة من مدينة الطائف . وتدفع الناس إليها من الآفاق القريبة والبعيدة ليشهدوا الموسم فى ذى القعدة ، قبل أن يذهبوا إلى مكة ليحجوا إلى الكعبة المقدسة . وكان موسم العام أشد زحمة مما عرف الناس من قبل ، فإن قبائل العرب تسابقت إلى الحج منذ شاع فيها نبأ انتصار قريش على أبرهة الحبشى ، وعدوا ذلك النصر آية دالة على قدرة هبل واللات والعزى ومناة . وكانت الخيام تمتد فى صفوف متداخلة كأنها مدينة نبتت فجأة فى الصحراء ، بينها طرق متعرجة وميادين فسيحة ، بعضها لمباريات الشبان فى الرماية وبعضها لمسابقات الخيل والرهان عليها ، وبعضها لعرض السلع التى أتى بها الناس من أركان الأرض ليقضى كل حاجته من بيع أو مبادلة . وكان فى سرّة الخيام ميدان فى وهدة من الأرض تحف بها من جوانبها صخور مدرجة ، وفى وسطه ربوة تبرز عالية فوق الوهدة كأن الطبيعة أعدتها لتكون مجتمعاً عاماً . فكانت الآلاف المتراحة تحيط بالوهدة الواسعة منتشرة على الصخور المدرجة ، ليستمعوا إلى أناشيد الشعراء إذ يتفاخرون ويتهاجون ويتنافسون

فى نشر مآثر قبائلهم ، وهم وقوف فوق الربوة الوسطى ، فإذا ما فرغ أحدهم من نشيده أطلق الحكم رأيه فى قوله فيقبله راضياً أو ساخطاً وخاشعاً أو ثائراً . فكان ذلك الميدان لا يخلو من هزة تعقبها مشاحنة قد تجر أحياناً إلى القتال بين العشائر أو المبارزة بين الأفراد .

فإذا ما انقضى النهار وهدأت الحركة فى ساحات عكاظ ، خرج طلاب المتعة إلى الأطراف البعيدة ليقضوا قطعاً من الليل فى الحانات أو أندية السمر التى كانت تجمع أسباب اللهو من أطراف الشام واليمن والعراق وكانت حانة النبطى مهبط المترفين من شيوخ القبائل وشبانها ، إذ كان صاحبها رجلاً مرحاً لين العريكة سريعاً إلى إرضاء ضيوفه بكل ما يشاءون من لهو . وكان يختار لهم المعتقة من خمر الإسكندرية وأنطاكية ، كما كان يختار لهم أجمل الراقصات وأبرع المغنيات من فتيات العرب أو الروم أو أرمينية . وكان بين راقصات تلك الحانة فى ذلك العام فتاة عربية عرضها النبطى أول مرة ، فتناقل الناس أخبارها وتحدثوا بأوصافها قيل إنها من بنات حمير سباها جيش أبرهة فباعها حبشى إلى تاجر من قریش طفلة صغيرة وباعها القرشى لصاحب حانة فى جزيرة فرسان عند ما صارت شابة ثم باعها صاحب حانة فرسان إلى صديقه النبطى الذى أعجب بحسنها ونغم صوتها وبراعة رقصها فبذل فى ثمنها مائة ناقة . وكانت الفتاة فيما يقولون ذات بدوات ونفرات ، لا تعبأ بشيء إذا ثارت بها ثورة . فكانت تسوم صاحبها أعنف ما تنال حسناء قاسية من مطية ذليلة .

ومع ذلك كان لا يغاضبها بكلمة كأنه يتمتع بما يصيبه من عذابها .
وهي فوق ذلك متقلبة بين المرح والطرب وبين الفتور والسهر .
كانت تنفلت أحياناً من رقصها أو غنائها غاضبة لغير سبب ظاهر ،
فلا ترضى أن تعود وإن بالغ صاحب الحانة وزوارها في استرضائها .
وكانت تغضب للكلمة التافهة تبدر من شاب عبثت به نشوة الخمر ،
أو من دفعة غير مقصودة من إحدى صويحباتها في الرقص ، أو من
صبيحة ماجنة من خليع ، أو من صبيحة إعجاب في غير موضعها . بل
كانت أحياناً تغيب من غير غضب إذا بدا لها أن تغيب ، ولا يجرؤ
صاحب الحانة على أن يلمومها بكلمة ولعل النبطي الماكر كان
يرضى في نفسه عن بدواتها العجيبة ، فقد كان يعلم أسرار النفوس
ويعرف أن رواد الحانة كانوا يزيدون بتلك البدوات حرصاً على
التردد عليها ليلة بعد أخرى .

على أن طليبة - وكان ذلك اسمها - كانت تسمح أحياناً وتقبل
صافية الطبع على زوار الحانة فتخطر بينهم مثل النسيم خفيفة متفنة
مفاكهة متندرة ، فتسحر ليلتهم وتشيع من حولها جواً صاخباً من المرح
والنشوة .

ومضى صدر من موسم عكاظ ولم يبق منه إلا أيام ينصرف
الناس بعدها إلى مكة ليؤدوا مناسكهم فيها ، ثم أقبلت قافلة من
ناحية شاطئ البحر تحمل تجارة لم ير الناس في عكاظ مثلها ،
فيها بضائع شتى من كتان مصر وأبراد اليمن وزيب أيلة وخيل نجد ،

وفيه من الحلى وصنوف الأمتعة ما يتهافت عليه أهل الثراء والترف من شيوخ القبائل وسادة القرى . وكان صاحبها فتى سمحاً فى البيع كريماً واسع الرحاب لمن ينزل عليه ، مهذباً فى الحديث لا يحب اللجاجة فى المساومة . فكان الناس يقصدونه فى منزله للشراء فيصيبون فى ضيافته ما شاءوا من كرم الوفادة . وسرى ذكره بين النازلين فى يوم ليلة وصاروا يتحدثون عنه ويعجبون من يكون ، إذ لم يعرفوا عنه إلا أنه معديكرب ؛ وأنه فى هيئته وطريقة حديثه يشبه أن يكون من أهل صنعاء .

وذهب معديكرب إلى حانة النبى ليستمتع بخمرها ، ويشهد ما فيها من رقص ويستمتع إلى ما فيها من غناء . ويرى تلك الفتاة العجيبة البارة طليبة التى سمع اسمها يتردد على الألسنة .

واستقبله النبى مسرعاً مرحباً ، واتخذ له مجلساً فى الصدر ، والتف حوله جمع من تجار القبائل ، وجلسوا إليه يتحدثون فى شئون شتى ، وأنشد بعضهم ما خف عليه من قصائد الشعراء التى سمعها . . . وأنت الكؤوس تدور عليهم ومعها أطباق من فاكهة الطائف وجلق ومن بقول حلب وأزمير . ثم بدأ الغناء والرقص ، فتطلع الفتى يدير بصره ليرى الفتاة التى سمع عنها ولكنها لم تظهر بعد أن مضت ساعة طويلة ، وخشى أن يكون قد عرض لها بعض ما كان يعتادها ، وظهر عليه شيء من القلق وكاد بهم بالانصراف خائباً . ثم تعالت أصوات من أقصى المكان ، واضطربت المجالس بمن فيها ، وأقبل جمع من الشبان يتصاحكون وفى

وسطهم طليبة في ملابس براقة زاهية من الحرير الموشى . وسارت تنثر
بسماتها ، وكلما مرت بجمع أسفر وجهها عن بسمه ضئيلة ، وقالت
وهي تلتى عليه نظرة شاملة : « عثم مساء » .

ونظر إليها معديكرب في دهشة . وأخذ الكأس التي أمامه
فرشف منها يحاول أن يغطي دهشته . أتكون هي حقاً ؟ وماال النبى على
الفتاة يحدّثها ، ثم رفع صوته قائلاً لها :
— هنا ضيف كريم يزورنا لأول مرة .

فالتفت طليبة نحو معديكرب لفظة سريعة ثم ردت إليه نظرتها حتى
وقعت عيناه في عيناها في حركة تصبغها دهشة مستورة . وأسرعت متخلصة
من نظرتة في شيء يشبه الجفول ، وصاح الفتى في سره « إنها
هى ! » .

ومضى النبى قائلاً :

— أرى على وجهك نظرة خبيثة فلا تدعيه يفلت .

وتعالت ضحكته وضحك الجمع وفيهم معديكرب . وأظهرت طليبة
شيئاً من التدلّل ثم ذهبت تخطر خفيفة وبدأت تغنى .

وتضايقت حلقة الجلوس في الحانة وتزاحمت صفوفها ، وعلت أنغام
الغناء تبعها طليبة متطربة ، ثم انطلقت في فضاء الحلقة في وثبات رشيقة
أو خطوات رفيقة ، وكانت إذا اقتربت من معديكرب تنظر إليه نظرة
سريعة وتبتسم ابتسامة خفية ثم تندفع في عنف باعدة عنه إلى أقصى
الحلقة ، وتطامن من وثبائها وتهديء من سرعتها كأنها تستروح بعد جهد

شق عليها . ونسى الفتى فى نشوته أنه هناك فى حانة وأحس فى نفسه شيئاً يشبه الغيرة أن تعرض هذه الفتاة محاسنها للأنظار المخمورة التى تتعلق بها . وخشع الجمع المحتشد وغشيه من سحر الفتاة ما أسكن ضجته ، إلا همسات تقول إن طليبة لم تنطلق فى ليلة كما انطلقت فى تلك الليلة الرائعة . وإذا صرخة جشاء تعلو فجأة ، ولم يتبين أحد صاحبها حتى تحول الموقف إلى منظر لم يتوقعه أحد ولم يستطع أحد أن يحول دونه . فقد اندفع من بين الجالسين رجل طويل القامة مفتول الأعضاء مرفوع الرأس تدل هيئته على التهور والقوة ، يتمايل فى خطواته وهو يصبح صيحة سكرى ، حتى إذا ما بلغ الفتاة طوقها بذراعيه وأهوى عليها بقبلة معربة ، ثم وقف أمامها يتمايل من أثر الشراب وهو باسط ذراعيه ويقول لها بلفظ متعثر : « أنت ساحرة » . وبرقت العيون من الدهشة ولم يهتم أحد من موضعه كأن الجمع يشهد منظراً يريد أن يرى آخر مشاهده . ووقفت طليبة مذهولة لمدة لحظة ، ثم نظرت إلى الرجل نائرة ورفعت رأسها وعلا صدرها مضطرباً وفى مثل لمح البصر رفعت يدها فصفعته ووقفت أمامه متحدية متممة .

وما كاد الناس يرون ذلك حتى عمهم الاضطراب ، وثاروا من مقاعدهم إذ أحسوا أن الأمر قد تحول إلى مأزق ، وارتد الرجل إلى الوراى مترنحاً يبتسم ابتسامة غل وقال لها :

— هرة وحشية !

ورفع يده إليها وما كاد يفعل حتى وثب معديكرب من مجلسه فدفعه

بجمع يديه وألقاه على الأرض ووقف ينتظر قيامه .

ووقف الناس سكوتاً في خشية وعجب ينظرون إلى الأشخاص الثلاثة في وسط الحلقة كأنهم يرون ملهارة . وقام الرجل كأنه ثعبان غاضب فاندفع نحو معديكرب وابتدأ بينهما صراع عنيف يشبه أن يكون قتالا للموت . ومرت ساعة قصيرة تردد فيها الفوز بين الخصمين ، وكانت طليبة تضع منديلا بين أسنانها وتنظر إليهما في لهفة . وفيما كان الجمع ممسكاً لأنفاسه على أثر دفعة شديدة ألقى بها معديكرب خصمه على الأرض ، قام الرجل حانياً جسمه إلى الأرض مطرقاً في حقد يختلس نظرة ثائرة إلى خصمه وهو مكشر عن أنيابه ، وصرخ صرخة عالية وفي يمينه خنجر مسلول . ووضعت طليبة منديلها على وجهها في فزع ، وهمهم الناس سخطاً ، وارتد معديكرب إلى الوراء خطوات وهو يرى السلاح الحائن يلمع نحوه مهدداً ، ولكن خطوات الرجل لم تكن ثابتة فاستطاع الفتى أن ينفلت إلى جانب وجمع قوته في ضربة حانقة فترزعزع الرجل واضطرب ، وانتزع معديكرب الخنجر من يده وقذف به تحت قدميه ووقف ينظر إليه متحدياً .

واعتدل الرجل منكسراً ولكنه قال في حقد وهو ينهج :

— سوف تعرف أيها الفتى جزاءك .

فقال معديكرب باسمياً في سخرية : نلتقي إذا أفقت .

فقال الرجل حانقاً :

— ومن تكون يا بائع التمر ؟ من تكون حتى يلقاك نفيل بن حبيب ؟

فقال الفتى فى صرخة مكتومة : نفيل بن حبيب ؟
 فقال الرجل فى مباهاة : نعم نفيل بن حبيب ، فأفرع فى صحك
 وفى نومك فلن يتنجو طويلاً :
 ثم تحرك، منصرفاً .

وصمت الفتى لحظة ينظر إليه فى هدوء ثم قال : تمهل يا نفيل بن
 حبيب ، فما كنت أحسب أن نلتقى على مثل هذا .
 فنظر الرجل إليه فى كراهة وقال : ماذا قلت ؟
 فقال الفتى فى صوت خافت :

— أما تذكر إذ بعثت إلىّ لألقاك فى شعب غمان ؟
 فصرخ نفيل وهو مضطرب بين السخط والعجب قائلاً : أنت ؟
 فقال الفتى فى صوت متردد : نعم أنا سيف .
 فوقف الرجل مبهوراً ينظر إليه حائراً ثم انفرج فمه عن بسمه ضئيلة
 وقال : كأنى أرى أبا مرة .

وكان فى صوته بقية من حنقه .
 وقال سيف فى نغمة تشبه الرجاء : لحديثنا بقية يا نفيل .
 فطوح الرجل قامته الطويلة قائلاً :
 — لا تكون هنا .

* * *

وسار نفيل مسرعاً وسيف يلحق به حتى خرجا ، والجمع الداهش
 ينظر صامتاً فى أثرهما ، كأنها قطعة من الأعيب الملهى قد دبرت وأحكم

تدبيرها . وبقيت طليبة في موقفها حيناً وهي مشدوهة أثائرة الأنفاس
تشخص ببصرها إلى حيث انصرف الحصان . ثم مالت على الحنجر
الملقى على الأرض فأخذته وأسرعت تجرى نحو خبائها ، حتى إذا
ما صارت وراء الستر ألقت بنفسها على أريكة واستخرطت في البكاء .

وسار نفيل وسيف بعد خروجهما يسرعان الخطا في صمت لا يسأل
أحدهما إلى أين . وكان ضوء القمر الذي أوشك أن يكتمل يفيض على
الفضاء الرملى الذى يحف بالخيام المتراسة ، وأنوار المصابيح تخفق بينها
خافتة كأنها يراعات تسنح ثم تختفى . وعرج نفيل نحو ربوة منعزلة
فصعد فيها لا يلتفت إلى ورائه وسيف يسائل نفسه ماذا عساه يفتحه به ،
وماذا يمكن أن يقع بينهما بعد ذلك التحول السريع الذى نزعهما من
النزال العنيف . والتفت نفيل إلى سيف عندما بلغ رأس الربوة ، واستقبل
وجهه بنظرة طويلة وأشعة القمر المائلة تسطع عليه ، ثم وضع يديه على
عضديه قائلاً : أى فتى لو قتلتك ؟

وكان في صوته هزة كأنه بصياد يتأمل شاباً من الوعول ويعجب
بمحاسن أعضائه .

فتبسم سيف هادئاً وقال :

— ولو قتلتك لفاتتنى بقية حديث أود سماعه .

وكان في صوته نغمة من التحدى .

فقال نفيل وهو يرفع يديه عن الفتى :

— أى أقدار تجمعنا هنا ؛ ما زالت هذه الأقدار تعابثنى ولا تبالى

أين تلقى عبثها . هكذا ألفت بأبيك يوماً في سبيل .

فقال سيف في اهتمام :

— أكنت تعرفه ؟

وانصرف نفيل عنه كأنه لم يسمعه ، فذهب إلى صخرة ناتئة في

الربوة وكان ما يزال يترنح سكرًا وجلس قائلاً :

— أحس دبيب السن يا فتى . كنت لا أنهج في التزال هكذا .

أتعرف هذه الفتاة من قبل ؟

فقال سيف في غير اهتمام :

— أظني رأيته .

وقال نفيل :

— كأنك معجب بها .

فعجب سيف أن يسأله الرجل عن الفتاة في مثل ذلك الموقف وأجاب

في خبث : أظني كذلك .

ونظر إليه كما ينظر إلى باب مغلق يريد أن يعرف ما وراءه وقال :

— كيف كنت مع أبي مرة ؟

فلمعت عينا الرجل وتحسس منطقته وقال في حنق :

— يا للشيطان أين خنجري ؟ وحق مناة إن لك مع الأقدار شأنًا .

فقال سيف ساخرًا :

— لقد نسيت خنجرك هناك .

فقال نفيل في كراهة :

— سقطة أخرى . أنت لا تضمر غدرًا .

فقال سيف باسمًا :

— نحن في الشهر الحرام يا أبا حبيب . ولكن ما لنا نتحدث هكذا .
هذه أول مرة ألقاك فيها وكنت أود لو رأيتك قبل هذا .

فقال الرجل في جفاء :

— اجلس أيها الفتى حتى أجمع نفسي في حديثك .

وكان صوته الأجش ينم عن نفس متحركة . وجلس سيف مستنداً
إلى صخرة ، والرجل يتبع حركته في اهتمام ثم قال له بعد لحظة :
— لم تكن هذه المرة أول مرة رأيت فيها الهواء يقطر دماً .

وكانت الحمر ما تزال تفور في صوته وتفوح في أنفاسه . ومضى يقول :

— إذا فأنت تحبها يابن ذى وزن . لو علمت أنك ابنه

كنت أسمع صوتاً يصيح بي : اضرب . اقتل . بغير أن أعرف . ولو
عرفت ويل للشيطان الجحيم ! ما شعرت في حياتي خزيًا كما
شعرت الليلة . وأمامها ؟ أمام تلك الهرة الوحشية ؟ هكذا شعرت يوماً
منذ عشرين عاماً عندما كان ينازلي شاب مثلك وكنت أنا شاباً
كذلك . كان كل منا يريد أن يفوز بها . أأست تقول أيضاً إنك
تحبها ؟ دع هذا الحديث فإنه يخرج صدرى . ويل للشيطان فإنه
تخلي عنى مرة ثانية ووجدت يدي ترتعش بالحنجر كما اهتزت من قبل .
وضحك ضحكة مرعبة ، ثم وضع مرفقيه على ركبتيه وأسند بهما
رأسه حيناً ثم رفعه قائلاً :

— لست أبالي أيها الفتى ما تظن بى ، فلست مخموراً كما قد تحسب . ولم تدركنى بعد الشيخوخة كما قد يذهب ظنك . إن نفسى هى التى خانتنى هذه المرة أيضاً . كانت تقف من ورائك ، ولو رميت خنجرى فلم يصبك لوقع فى صدرها هى . كنت أريد أن أبى عليها حتى أغمد خنجرى فى صدرها عمداً وهى ترتعد فى قبضة يدي . وكان سيف ينصت إليه وهو بين العجب والازدراء . أهذا نفيل ابن حبيب ؟

ومضى الرجل قائلاً :

— لا تسخر منى أيها الفتى فى شرك وإن كنت لا أبالي سخريتك ، فإنى مستعد لمنازلتك مرة أخرى أمامها وإن كنت لا أريد قتلك . كان خنجرى تحت قدميك ولم ترده إلى صدرى . قل ما شئت فى شرك فإن كرهى لك أشد من حقدى القديم على أبيك . بل إنى أمقتك وأمقتها ، ولو كان خنجرى معى الآن لقدفته عليك ولم أخش أن يقع فى صدرها . أنت شاب فى ربيع الحياة وأنا شيخ فى الخمسين . أليس هذا ما تقوله لنفسك ؟ كان أبوك يشبهك أو أنت تشبهه فى هذا الرونق الذى أراه عليك ، ولهذا فاز على فى المنافسة . لست فى حاجة إلى التوسل عند النساء بجاه ولا بمال يابن ذى وزن . أعرفتك طليبة ؟ لم أر من هذه الهرة الوحشية من قبل نفوراً كما رأيت الليلة . أذلك لأنك كنت هناك ؟ ووقف فجأة كأنه يريد أن يستأنف القتال ، ولكن الفتى لم يتحرك بل نظر نحوه ثابتاً يترقب حركته . وعاد الرجل إلى الجلوس فى عنف

وأسند رأسه على يديه وانفجر باكياً .

وامتلاً قلب سيف شعوراً بالحيبة يشوبه شعور آخر من الرثاء .
كان يتمنى أن يعثر يوماً بنفيل بن حبيب الذي يتحدثون عنه في كل
واد كما يتحدثون عن بطل أسطورة . ولكنه رآه آخر الأمر مخموراً
يسخر من سنه كأنما هو أحد صعاليك الخلعاء لا شيخ فرسان خثعم ،
ثم ينتهى به الأمر إلى أن يخلط ذلك التخليط في أقواله ويتهاك في ختامها
باكياً كأنه طفل أو فتاة بائسة . أهذا نفيل بن حبيب ؟

ولم يدر أينصرف عنه فيكون ذلك آخر العهد به أم يبقى إلى يرى المهزلة
إلى ختامها ، ورفع الرجل رأسه بطيئاً ومسح عينيه وقال في صوت كسيف :
— ماذا كنت تقول لى آنفاً ؟ أظنك سألتنى عن أبى مرة .

ونظر سيف إليه وهو يحس نحوه انجذاباً يشبه انجذاب من يرى
أعجوبة ثم قال له :

— نعم سألتك عن أبى وتحدثت لى عنه .

فوضع نفيل يده على جبينه ثم قال :

— لا شك أنك كرهت ما قلته لك . كلهم يكرهون ما أقول إذا

استولت الحمر على لى ، أما أنا فلا أذكر شيئاً سوى خيال غامض من
صور متفرقة . إني أعتذر إليك يا سيف مما لست أعرف ، فإنى لا أذكر
ما قلته لك . لست أدرى ما ذلك الذى يتلبس بى إذا سكرت .

وكان صوته عند ذلك صافياً ونظرات عينيه هادئة واكتسى وجهه مسحة من
سماحة . ثم اتكأ على مرفقيه شاخصاً ببصره إلى الأفق الأغبش وقال كالحالم :

— هي أيام مضت وتباعد العهد بها ، أتأملها في هذه الساعة كما
أتأمل صورة صاحب سايرته حيناً في مفازة ، ثم ثرت به في ساعة لعبت
فيها الحمر برأسي فقتلته ودفنته في الرمال وخلفته وراء ظهري لا يعرف
مقره أحد غيري . فإذا ذكرته يوماً ملأ الأسف قلبي وشعرت بالحرime ،
فلا أجد مفراً منها إلا بأن أنسى . لست أحب أن أكذبك وحسبي
ما كان مني . عرفت أبا مرة منذ كنا شابين نتنافس على ما يتنافس
الشباب عليه . وكان أبرع مني في الرماية والفروسية وأقوى مني في
المصارعة والمسابقة . وكان فوق ذلك أحب إلى الفتيات مني . ولست
أحب أن أطيل عليك فإن قلبي كان يتقبد منه غيره ، لأن فتاتي تعلقت
به وإن كان هو متعلقاً بابنة عمه . لم يكن له ذنب سوى أنها أحبته وكان
ذلك كافياً ، فلم يقف بي الحقد عند غاية ولم أتورع عن شيء في
منافستي . وأقبلت على الحمر في شراهة وحنق ، وعرفت بين الناس بأنني
عريد لا تؤمن وثبتي إذا أخذ الشراب مني . اقترب مني يا سيف فإنني
إذا أعليت صوتي شعرت بقشعريرة ؛ ويخيل إليّ أن أشباحاً ترقص في
ضوء القمر . كم قتلت من الناس في هذه الثورات بغير وعي مني ، حتى ملني
الصديق وتبرأت مني عشيرتي من خشية ما أجره عليها من جرائري .
وانحدرت إلى هوة عميقة مع خنجرى الذي رأيته . كم قذفت به
إلى صدر عدوى وكنت أحس نشوة من الفرح كلما أصاب قلباً ،
كأنني صائد يحس السرور عند ما يصيب صيداً . لم يخني ذلك الخنجر
إلا مرتين وهذه الليلة إحداهما ، أما الأخرى فكانت عندما كنا نحارب

أبرهة . كان أبوك عائداً من موقعة منصوره وأوقدت النيران ونحرت
 الإبل ودارت علينا الحمر احتفاء بالبطل الظافر . ووجدت نفسى أكثر
 من الشراب ، وكانت النيران تلهب فى صدرى من الحقد . فلما أخذ
 الشراب منى عربدت عليه - على أبى مرة - فى أقوال لا أذكر منها
 حرفاً . وانقلب السامر إلى منازل عنيقة وقذفته بخنجرى رمية كادت
 تخترق صدره ، ولكن يدي خانتني . وكانت تلك الليلة فاتحة الهاوية .
 أسمع يا سيف ؟ تخلى عنى قومي ولم أجد لى صديقاً وشعرت بوحشة
 زادت قلبى غليلاً ، فانقلبت على قومي ، وساعدت أبرهة ، أسمع قولى ؟
 وكان سيف يكبح نفسه قسراً . ومضى نفيل قائلاً :

- وانتصر أبرهة فشعرت بشيء يشبه السعادة عندما عدت إلى
 قري سيداً على رغم أنوفهم . وعرفت أن أباك جرح فى المعركة وتسلسل
 هارباً فى الليل يهيم على وجهه . فالتهب الفرح فى قلبى .
 ثم تبين لى بعد قليل أننى صرت عبد أبرهة . نعم عرفت أننى بعت
 حريتى بحقدى . فاستعنت على النسيان بالحمرة أعب منها حتى أنسى .
 ولكن قلبى كان ينطوى على حقد آخر من عبوديتى لأبرهة . فأطلق
 السكر أقوالى تفوح بما فى نفسى .

فلما ذهبت إليه يوم عزم على الخروج إلى مكة . . .
 وضحك ضحكة جشاء حتى ظن سيف أنه يعود إلى تخليطه .
 ولكنه قال فى هدوء :

- قلب لى أبرهة ظهر العداوة وخاطبني كما ينبغي للعبد أن يخاطب .

وخرجت من عنده وأنا عازم على استرداد حريتي . ولكن . . . ولكن قومي لم ينسوا . أسمع ؟ تخلوا عني وتركوني في المعركة مع حفنة من عشيرتي أمام جنود أبرهة . ونجوت بنفسى من حراب الحبشة بأعجوبة ، وتسالت في الليل أحس المطاردة من ورائى .

ثم وقعت أسيراً ، وذهبوا بى إلى أبرهة - وهناك وجدت زميلاً استسلم قبلى ، أسمع عن ذى نفر ؟ كان الشيخ يحسب أن مناة تنصره ، فلما رأيته هناك عاد حب الحياة يملأ نفسى . ولست أدري أنا الذى خدعت أبرهة أم هو الذى خدعنى . فاستنجدت بالشيطان ورضيت أن أعود عبداً لأبرهة ، وأكون دليله أدبر له المكائد فى حرب قریش . ولما بلغت مكة ورأيت الكعبة تحت بصرى صاح قلبى قائلاً : « اضرب ودمر واقتل » . وتمنيت لو رأيت الكعبة ذليلة محطمة وقد نقضت من أساسها حجراً حجراً . وتصورت ذل قریش أمام أبرهة ، وتصورت ذا نفر عندما تقع عينه على أصنام مناة واللات والعزى معفرة فى الرمال ، والتهب صدرى شماته . كان كل العرب أعدائى لأنهم جميعاً يتخلون عني . ثم رأيت رجلاً لم أر مثله فى حياتى ؛ رجلاً شعرت عندما لقيته كأنى طفل إلى جنب أبيه . لم أكن أو من بشىء من تلك الآلهة الصماء . ولم يكن فى صدرى مودة لأحد ، ومع ذلك حدثت الأعجوبة . ألم تسمع بعبد المطلب بن هاشم ؟

فقال سيف : بلى يا نفيل . وأظنه منا .

فقال نفيل ضاحكاً : تقصد أن أمه خزرجية ؟ إنها قرابة بعيدة لم

أذكرها . ولكنه فتح قلبي بصوته العميق عندما رحب بي قائلا :
« يا ولدي ! » ولم يقل لي « أيها الحائن » . وأخذ بيدي وطاف بالكعبة
وجعل يحدثني قائلا : « يابن أخى » .

وأطرق نفيل حيناً كأنه ينتظر حتى تهدأ نفسه ، ثم استأنف قائلا :

— وقال لي الشيخ : أحقاً جئت مع هؤلاء لتهدموا الكعبة ؟
فقلت له متحدياً :

— هي كومة من حجارة .

فقال الشيخ :

— وما بقاء العرب إذا انتصر أبرهة على قريش ؟

فقلت له :

— أتهلك نفسك وقومك ؟

فقال الشيخ في حدة :

— وإذا لم تهلك اليوم أما تهلك غداً ؟ وماذا ينتظرنا إذا لم تهلك ؟

أليست هي العبودية ؟ لا يانفيل . ما هكذا ينبغي لك أن تقول . بل قل
إن العبودية شر من الهلاك .

ووقعت كلماته في قلبي كأنها أسنة حراب لا وخزات لوم . وانصرف

إلى نفسي أنظر إليها مكشوفة ، فإذا هي نفس عبد آثر الحقد والحياة

على الحرية والكرامة ، وتواريت عن نظرات الشيخ وهو ينتظر إجابتي ،

حتى قال في صوته الضخم :

— عد إلى أبرهة يا نفيل وقل له جوابي .

فقلت له في دفعة : بل أبقى ها هنا . سأبقى مع قريش . سأحارب معكم يا أبا عبد الله لعلّي أقتل في المعركة . سأحارب من أجل هذه الكعبة وإن كنت لا أومن بآلهتها .

فقال الشيخ : لسنا نحارب من أجل الكعبة ولا من أجل الآلهة . ولسنا نعبد الحجارة كما يزعم أبرهة . أترى العلم في المعركة يا نفيل ؟ أيعبد حامله الحرقرة التي في يده ؟ هكذا نحن مع هذه الكعبة التي بناها آبائنا . إنما هي علم العرب الذي يجتمعون تحته . وما هذه الآلهة إلا رموزاً لما مقدس من التراث الذي انحدر إلينا من أجيال أجدادنا . ليست اللات ولا العزى ولا مناة ولا أوال ولا غيرها من هذه الآلهة الكثيرة سوى رموز تتجسد فيها أرواحنا ، ويتمثل فيها إيماننا . نحن نخلقها لنتمثل فيها ما نحب وما نخشى . فابق معنا إن شئت أو اذهب إلى أبرهة إذا شئت فلن يجيبك القوم هنا إلا بما قلت لك . ليس عندنا إلا الجهاد حتى تحكم الأقدار بيننا .

فقممت إلى الشيخ وقبلت يده وعرفت أنني في حضرة زعيم . وأحس سيف نحو نفيل رحمة خالصة . وقال في حماسة :

— وحاربت مع قريش ؟

فقال نفيل :

— حاربت كمن يريد أن يغسل ذنوبه . حاربت كالمنبوذ الذي يوعد قلباً يأوى إليه . وعقدت لأبرهة عقدة لا يستطيع جنى أن يحلها . أنا الذي حفرت له الحفرة التي تردى فيها .

وكان ينطق بحماسة فيها غضب وفي صوته رنين الاستعلاء .

— وسكت لحظة ثم قال في مرارة الحمية :

— كنت أحسب أنني غسلت أدران الماضي فأعود إلى قومي ويعودون

إلى . بل لقد بعثت إليك — إليك أنت يا بن ذى يزن — لأضع يدي في

يدك . ولكن قومي لم ينسوا ولم يفتحوا لي قلوبهم في شعب غيمان .

فصاح سيف : يوم بعثت إلى ؟

فقال الرجل : نعم يوم بعثت إليك . وكنت أنتظرِكَ عندما جاءت

جنود يكسوم مع حناطة الحميري . ولقيت جند يكسوم كما لقيت

جند أبرهة مع حفنة من عشيرتي .

وضحك ضحكة أخرى مفزعة ثم قال : تخلى قومي عني مرة أخرى .

فقال سيف حزيناً وأسر أبو عاصم ؟

فقال نفيل : ألم يحمل إليك رسالتي ؟

فقال سيف : لم أره إلا في أغلاله بين يدي حناطة .

فقال نفيل في حزن أهدأ هو الحديث الذي أردته ؟ هذا أنا

تراني أهيم على وجهي لا أجد مخلصاً إلا في هذه الحمر التي تمكن الشيطان

مني ، وهذه المعرات التي ألطخ بها شبي .

فقال سيف : ألك في خطة أخرى ؟

فقال نفيل : هيهات !

فقال سيف : بل تهب نفسك للحياة يا أبا حبيب . هب ما بقي

لك من حياتك لغاية أسمى مقصداً وأكرم مورداً . هبها لما هو أكبر

من كرامة نفسك ومن حرية شخصك . هب نفسك للجهاد من أجل بلادك .
فقال في حزن : هيهات يا ولدى . إنها آثام أكبر من التوبة وأعمق
من المغفرة .

فقال سيف : ليس من الآثام ما هو أكبر من التوبة والمغفرة .
انظر إلى أعماق نفسك تجد علة الشقاء . إنك تنتظر الجزاء دائماً .
فاجمل نفسك مرة على العطاء بغير أن تتوقع الثواب . تحمل المشقة بغير
أن تتمنى الجزاء . هناك سعادة أكبر من الجزاء ومن الثواب ، وهي
سعادة من يعرف أنه يجاهد ويشقى في سبيل غاية نبيلة . أتعرف أين أبى ؟
فأجاب : أظنه عند كسرى . أظنه هناك ما يزال يأمل أن يعود
يوماً . إنه هناك يعرف أن أبرهة هلك وأن يكسوم يوشك أن يهلك .

فصاح سيف : أجقاً ؟

فقال نفيل : لم أكن لأنسى ثأرى .

وقال كأنه يحدث نفسه : العطاء والجزاء ، والحرمان والجهاد . ماذا

تقول يا سيف ؟

وكان سيف منذ سمع بنأ يكسوم غاب في سبحة بعيدة إلى غمدان .
أيهلك يكسوم حقاً ؟ ومسروق ؟ أهو الذى يلقاه عند باب القصر إذا
عاد إليه ؟

وقال عندما تنبه إلى سؤال نفيل : ماذا تقول يا أبا حبيب ؟

فقال نفيل : أعيد ألفاظك التى نقطت بها . كأنك تبعث الأمل

إلى نفسى .

فقال سيف : أتسير معي ؟

فقال نفيل : إلى أين ؟ لست أحب أن أغرربك في هذه اللحظة يا ولدي .
إنني أحدثك في هذه الساعة ولست أدري ماذا أقول لك في بكرة الصباح .
فقال سيف : ماذا كنت تفعل لو قتل أبوك ظلماً .

فقال نفيل : كما يفعل الناس يا سيف .

فقال سيف : ألسنت تقسم ألا تذوق خمراً ولا تقترب من امرأة حتى
تدرك ثارك ؟

فعلق نفيل بصره في وجه الفتى لحظة ثم قال :

— استمع إليّ يا سيف . إنني أعرف من ضميري ما لا تعرف .
ولكني سأبذل جهدي ، وأضرع إليك أن تضع سيفك في صدري إذا
وجدت ضميري يخونني .

سأسير معك يا سيف . وآليت لا أشرب خمراً ولا أقرب امرأة حتى
أكفر عن آثامي . آليت أن أضع يدي في يدك وأن أحى ظهرك وأفديك
بنفسي حتى أبلغ عذري

أتقسم أنت يا سيف ؟

فقال سيف : علام أقسم ؟

فقال الرجل : أن تضع سيفك في صدري إذا لمحت مني غدرًا .

فقال سيف : لن تغدري أبا حبيب ، ولن أضع سيفي في صدرك أبداً .
فقام الرجل بمد يده إليه في حماسة وشكر .

وكان القمر ينحدر إلى الغرب بطيئاً متعباً كثيراً عندما نزل الرجلان

عن الربوة يقصدان نحو الخيام المظلمة . وذهب أحدهما إلى اليسار والآخر إلى اليمين يقصدان منزليهما ، وكانا في طرفي السوق من جانبيها المتقابلين . وتواعدا على اللقاء أول شيء في الصباح .

١٧

قال الراوى :

أخذ سيف يسير بطيئاً من جانب الفضاء حتى لا يتعثر بين الخيام في الظلمة ، وكانت السراقات العالية تحجب نور القمر الهابط ، فكان لا يكاد يتبين ما أمامه . وكانت أفكاره ما تزال تضطرب بصور الليلة الصاخبة - حانة النبطى وطليبة والجمع المخمور والخنجر الحائن ونفيل ابن حبيب وأى رجل ذلك الرجل الذى كان يتطلع إلى رؤيته فى يوم من الأيام ! أى رجل يجمع من أسرار الطبيعة أضدادها ! الرجل الذى لا يعرف عدلاً ولا اعتدالاً ولا يؤمن بإله ولا بإنسان ولا يطمئن فى صداقة ولا عداوة . بل الذى لا يطمئن إلى نفسه فى يمين آلى بها على نفسه ؟ أيريده أن يغمد سيفه فى صدره إذا هو حنث فى يمينه ؟ وخيل إليه أنه يحس قشعريرة فى جسمه كأنه يرى كائناً لم تنجبه الطبيعة . ثم خيل إليه أنه سمع صرخة مثل نعيب بومة ، كأنها صرخة جريح وقع خنجر فى صدره . ورفع بصره يقلبه فى الفضاء الأغبش الذى يمسحه الضوء الخافت ، وكان السكون عميقاً والهواء ساكناً لو رف فيه جناح خفاش

لتردد له صدى . ثم عاد الصوت يقطع الصمت كأنه أنين مكروب
يعانى خوفاً فى أعقاب مأساة خفية يكتمها . وبدأ له شبح يقطع صفحة
السماء وهو يتعثّر فى الرمال خائراً ويقلع خطواته مترنجاً . فثبت فى مكانه
يراقب الشيخ فى دهشة . أهى امرأة ؟

كانت حقاً امرأة تنطق حركتها بالذعر والثورة ، ويبرق فى يدها
شئ كأنه سلاح . فأسرع ذاهباً إليها يدفعه شعور قوى ، أنه خيال
قصة دامية . ولما خرج من ظل الحيام ووقعت عليه لفتة المرأة المدعورة
سمع صرخة مكتومة ، ورآها تجرى هاربة وأقدامها تغوص بها ثقيلة .
ثم خارت قواها ووقعت فلم تحاول النهوض وبقيت فى مكانها تنظر
إليه خامدة ، وتقاربت أصوات أنينها المكتوم الممتد . ولما صار على
خطوتين منها جمع صورتها فى نظرة ، وقال فى صيحة ذاهلة : أنت ؟
وكانت طليبة تنظر إليه مكشرة عن أسنانها وعيناها تلمعان فى
الضوء الضئيل بحدقتين واسعتين يتمثل فيهما الرعب والتحدى . كانت
مثل جريخة لا تستطيع خراكا . ولما استطاعت أن تميز وجهه قامت
تتساقط حتى وقفت وتبدلت صورتها من الذعر اليائس إلى الاستسلام ،
وتهانفت باكية تقول فى صوت متقطع :

— أنت هنا ؟ ألم يقتلك ؟

واقتربت منه وسقط الحنجر من يدها فانغرز فى الرمل قائماً .

وقال سيف لها ماذا صنعت ؟

فقالت وهى تلمسه بيدها : أنت هذا حقاً ألمسك بيدي .

وتهاكت على الأرض تقول فى صرخاتها المكتومة :
 — قتله . قتله بخنجره ثم جريت أبحت عن جثتك . حسبته قتلك .
 وكانت تنتفض مكبة بوجهها إلى الأرض ، تسند رأسها بذراعها .
 ومرت على سيف لحظات طويلة خيل إليه فى أثناءها كأن الوجود استحال
 إلى هباء لا يرى فيه ولا يسمع شيئاً . ثم أخذ الموقف المحزن يتجلى له .
 فها هو ذا خنجر نفيل مغروز فى الرمل وهذه البائسة ترتجف تحت
 قدميه . أتسخرها الأقدار فى هذه اللحظة لكى تنفذ مشيئة ؟ أهذه الهرة
 الوحشية تعرف الندم والحزن حتى تبكى هكذا فى حرقة تهز جسمها ؟
 وتمثل له نفيل وهو يمد إليه يده مصافحاً ، كان المسكين ينظر إليه
 بعينين ضارعتين كأنه يستنجد به على نفسه . أفى هذه الليلة يقتل
 نفيل ؟ وغمره حزن شديد كأنه فقد صديقاً عزيزاً !

وقال فى صوت مهتر

— ماذا فعلت أيتها البائسة ؟

وأخذها من يدها فأقامها ومال على الخنجر فغاص به فى الرمل حتى
 دفنه . هكذا حلت الأقدار العقدة بضربة حاسمة قطعت تلافيفها
 وانتهت حياة نفيل . ماذا فعلت هذه البائسة المجرمة ؟ هذه الهرة الوحشية ؟
 أهى مجرمة فى شرعة الحياة المطلقة من قيود الأخلاق ومن عرف البشر ؟
 كيف ينظر وحش الفلاة إلى قطة وحشية حملها الذعر على أن تنقض
 على زميل فى الفلاة وتنشب فيه أظفارها وأسنانها ؟ كان نفيل مثلها ذئباً
 أو ضبعاً أو سباعاً يشق طريقه فى الأرض معترفاً بشرعة الحياة المطلقة .

كان يهاجم ويدفع ويراوغ ويفر ثم يكر ويتربص ويثب عندما يتمكن ، فإذا انتصر ومزق فريسته أطلق نفسه في فرحة ضارية يستمتع فيها بنشوة النصر لا يفكر في رحمة ولا عدالة . وسار بالفتاة متجهاً إلى منزله وأحس يدها المرتجفة تشتد في قبضته متعلقة مستأنسة ، وتقرب إلى ذراعه حتى أحس دفء جسمها . وكانت تسايهه غير متعثرة ولا تجرر قدميها . أذهب عنها زعر الجريمة ؟ أم كانت هزة المعركة ثم انجلت عنها ؟ وبلغ منزله وهو لا يهتدى إلى رأى فيما يظنه عدلاً في جزاء فعلتها . وكانت خيامه قائمة على نشر صلب من الأرض وفي وسطها فناء واسع تكدست فيه طرود شتى ، ومن ورائها فضاء فيه مرابط الخيل والرواحل . ولم يجد أحداً من أصحابه هناك ، وكأنه أحس ارتياحاً لذلك ولكنه مع ذلك عجب إذ يبطل أصحابه عن العودة إلى مثل تلك الساعة .

وقالت طليبة وقد فطنت إلى دهشته :

— ذهبوا يبحثون عنك كما ذهبت أنا . أو لعلهم ذهبوا يبحثون عن جثتك عندما قلت لهم إن الرجل لا بد قاتلك . لم يره أحدهم في ركن من السوق بعد أن جاسوا خلالها .

فقال سيف : وكيف وجدته أنت ؟

فقالت : ذهبت إلى منزله . نعم ذهبت إليه فقد كنت أعرفه أيها الفتى . لست أعبأ بما تظن . هم يشتهون وأنا أغوى وهم يسخروني لمتعتهم وأنا أسخرهم وأتمتع برؤية قلقهم ، وتزيد متعتي كلما رأيت قلقهم يشتد

عندما يعودون بالخيبة .

ونظرت إليه كأنها فى موقف إغراء . ثم عبست وحولت عنه عينها
كأمرأة تستلهم طبيعتها . ثم قالت فجأة :

— لم جئت بى إلى هنا ؟ دعنى أذهب إلى الحانة لأقضى سائر
ليلتى أرقص وحدى وأشرب حتى يطلع الصباح . سأرقص وأرقص حتى
أعبأ وأشرب حتى لا أعبأ . فغداً لا رقص ولا شراب ، وسيعلم الجميع
أنى قتلت نفيل بن حبيب . غداً يمزقونى إرباباً إرباباً ، ولكنى سأكون مخمورة .
ثم ضحككت حتى ظن سيف أنها لا تمسك عن الضحك ، وأحس
اشمئزازاً كأنه حقاً أمام أنثى من الوحش .

وفى مثل لمحة البصر وثبت وثبة فتعلقت فى عنقه بيديها ، وألقت
رأسها على صدره . وجعلت تنشج منتفضة .

ومضت لحظة لم يدر سيف كيف يصف شعوره فيها ، ولم يعرف
ما تكون حركتها المقبلة ، كأنما هى هرة وحشية حقاً .

ثم انفلتت منه فى وثبة أخرى وأخذت تعدو على الرمال متعثرة ،
فاندفع سيف وراءها وأمسك بها قائلاً :

— قفى هنا .

ثم ألقاها كما يلتقى حشرة ، فلم تحاول مقاومة . وعاد إلى الخيام
فأتى بفرسين عليهما عدة السفر وعاد إليها فقال :

— أتركبين ؟

فوثبت خفيفة بغير أن تجيب ، وسارت معه فى صمت حتى

بعدا عن مضارب الحيام واتجها نحو الشمال . وكان القمر يميل إلى الأفق ، لا يزيد على حلقة حمراء خابية ، والسكون لا يقطعه صوت حشرة . وعلا صوت حوافر الفرسين بعد قليل ، فارتاح سيف إلى أنه خرج إلى أرض صلبة ، لا يستطيع أحد أن يتبع أثرهما فيها . ولكن قلبه كان كثيباً لفراق أصدقائه الذين ساروا وراءه في فجاج الأرض حتى جاءوا معه إلى عكاظ ، وشاركوه في هذه الأعوام مخاطر المعارك التي خاضها على البر وفي البحر ، يقفون إلى جنبه ويحمون ظهره في المآزق أهكذا يفارقهم بغير وداع ويسير مع امرأة راقصة؟ أهكذا تحل الأقدار العقد التي يعقدها البشر بضربة واحدة قاطعة؟ وسار الراكبان في صمت وكل منهما يهيم في عالمه ؛ كان كلاهما يضرب في الأرض شريداً وحيداً . وسأل سيف نفسه : « أية دفعة هذه التي جعلته يفعل ما فعل ؟ لم أسرع وراءها حتى أدركها ؟ أهني جرفة أخرى ينساق فيها منهزماً مع الحقائق عندما يصطدم بها ؟ وخطرت له صورة أمه ، ثم خيلاء . ماذا تقول ريحانة إذا رآته يسير مع هذه المرأة التي قتلت رجلاً من الأشراف في الشهر الحرام ؟ وماذا تقول خيلاء لو خطر لها أنه يخرج في الليل هكذا مع مثل طليبة ؟ أخطر لها ذلك ؟ ونظر إلى طليبة وكانت تسير هادئة إلى جنبه كأنها اعتادت كل حياتها أن تصاحبه . أكانت تريد أن تعود إلى الحانة لترقص حتى تعيا وتشرب حتى لا تعي ثم تنتظر قضاءها ؟ وكأن الفتاة أحست بما يجول في صدره فصرخت صرخة فزع مكتومة ، كأنها رأت جلادها يقبلون نحوها .

وكان نور الفجر يطل رويداً رويداً من المشرق ، والنسيم الندى يرف من الشمال في وجهيهما . وانحدرت الهضبة إلى واد فسيح معشب فيه نخلات تلوح في الجانب الآخر هادئة وسنى . ونظر سيف إلى وجه الفتاة وكان لونه المصفر يخلع عليه رقة لم يرها عليه من قبل . المسكينة ؛ وهمز فرسه نحو النخيل وكانت الشمس تبعث أشعتها الأولى إلى السحب المتبرجة كما تفعل دائماً .

ونزلا في جانب النخلات التي تقبع في فجوة إلى جانب الوادي ، تحتضنها الصخور من ورائها وتنفرج منها إلى منبسط أصفر من طمي ناعم فيه شقوق واسعة لطول عهده بالأمطار ، وتنبت فيه أشجار من السيال والسنط وأنواع من شجيرات شوكية وصبّير . وكانت أعراش الحنظل تمتد خضراء يانعة كأنها رويت منذ ساعة ، وتتعلق بها ثمارها الموشاة بالنقوش مستظلة بأوراقها . وخطرت لسيف صورة خيلاء في ملابسها البيض وهي مطرقة في هودجها تصلى ولاء تلتفت إليه . أما كان في مثل هذا الركن الضيق مثنوى سعيد لهما ؟ ولكنها آثرت أن تذهب إلى الدير ولا تخرج معه في ظلمة الليل . أخطر لها وهي هناك أنه في تلك الساعة ينزل مع فتاة مثل طليبة في جانب واد معشب وسط الصحراء ؟ أم نسيته وانصرفت بكل قلبها إلى الصورة التي اختارتها ؟ ماذا تقول خيلاء لو رأيتهما هناك ؟

ونظر إلى طليبة وهي تأخذ مجلسها مستندة إلى الجدار الصخري ، وتمد رجليها ثم تغلق عينيها كما يلتقي المسافر المجهد عصاه ويطلب الراحة .

أنسيت كل ما مضى ؟ أهى لا تسأله عما يكون بعد ساعة ؟ إنها تستجيب إلى حاجة الساعة التى هى فيها كما يستجيب كل أمثالها من ضوارى الفلاة . وذهب إلى ناحية من جانب الوادى فاستلقى مستنداً برأسه إلى صخرة ولكنه لم يغمض عينيه . فماذا يقول أصحابه غداً ؟ وماذا يقول أهل عكاظ من شتى القبائل عندما يرون جثة نفيل بن حبيب ؟ لن يظن أحد أن الفتاة الراقصة قتلتها ، بل ستذهب كل الظنون إليه هو . ألم يخرج معه علانية من الحانة ثم يغادر عكاظ فى ظلام الليل هارباً بالفتاة التى نازل ابن حبيب من أجلها ؟ ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل ؟ أكان يبقى فى عكاظ ليشهد عذاب الفتاة حتى تموت قطعة قطعة ؟ كانت طليبة أمة ، وما كان لها إلا أن تجد عقاب الأمة التى تقتل سيداً من الأحرار . أمة ؟ أمة مثل خيلاء ؟

مسكينة خيلاء ! هى الأخرى ذهبت إلى الدير لأنها أمة . ولو كانت مثل هذه الراقصة الشيطانة لاستطاعت أن تغمد خنجرها فى قلب يكسوم ، ولكنها لا تستطيع أبداً أن تسير فى ظلام الليل مستسلمة هادئة ، ولا أن تغمض عينها هكذا فى ركن صخرى من الصحراء كما تفعل هذه الأخرى . وكان النوم يمسح على ملامح طليبة ويزيل عنها كل أثر من العنف ، فتمثلت له فى صورة طفلة سعيدة . أهى طليبة حقاً ؟ هى الحياة التى عنفت عليها وجعلت منها الراقصة الشيطانة التى تلمع عيناها فى ثورة ويرتد رأسها إلى الوراء متحدياً ولا تبالى أى قضاء ينتظرها . وقام ينظر إليها فرأى تمثال حسناء ناعسة . بل هى

حسناء بائسة ، قاست فى حياتها الكوارث والمآزق ، وعرفت العنف فى أعنف مآتيه والبؤس فى أبعد مهاويه . هى التى تقوى على صحبته وهو يضرب فى القفر مقاتلا مستيئساً يتعرض فى كل خطوة لصراع الموت والحياة . ألا ما كان أشبه ملامحها بخيلاء ! وكأنه أجس فى قلبه حركة نحوها .

وفتحت الفتاة عينها كأنها أحست وقع نظراته . وقالت باسمه :

— أليس معنا طعام ؟

فذهب يلتمس شيئاً مما حمله معه فى الحقيبة وكانت الشمس تسطع صاعدة فى السماء على الوادى الخالى .

وتبسم سيف فى شىء يشبه السخرية عندما أدرك الحقائق التى تحيط به .

لقد صدقت ريحانة عندما قالت له إنه يعيش فى الخيال ويصطدم بالحقائق وينجرف معها .

* * *

وتقاذفت بهما الصحراء ، وكانت طليبة امرأة طليقة كالوعل أو الذئبة أو كالقطاة أو أنثى الصقر ، لا تعرف قيلاً إلا ما تحتمه عليها الطبيعة .

كانت تجوع فتطلب الطعام ، وتلتمسه أنى وجدته ، وتحس البرد فترتعد ، والحر فتطلب الظل ، وتحب فهب حياتها للحب ، وتكره فلا تبالى أين تندفع مع كراهتها . كانت لا تعترف بالناس لأنها لم تعرف نفسها سوى بضاعة ، يملكها الناس كما يملكون الرواحل التى تحملهم ثم يذبحونها . لم تحس يوماً أنها إنسانة فى جماعة من الناس . كانت سلعة توهب أو تباع وتشتري ، أو داجنة تقتل إذا بدا لملكها أن يقتلها .

واتخذها الناس متعة فرأت نفسها قينة ترقص وتغنى . لم تعرف القيود ولم تكن بها حاجة إلى القيود التي يقيد الحرائر بها أنفسهن . وماذا يجديها أن تقيد نفسها وقد أخرجها الناس من حدود العرف والشرائع والأخلاق . لم تكن تعرف الإحسان أو الإساءة ولا الخير أو الشر والفضيلة أو الرذيلة ، ولم ينتظر منها أحد أن تعرف من ذلك شيئاً . كان الحرائر ينزلن عن حرية الطبيعة لكي يفزن بحرية المجتمع ، فماذا يحملها على النزول عن الحرية التي تهبها لها الطبيعة ؟ كانت وهي إنسانة تنظر إلى الناس كأنهم من عالم غير عالمها . كانت الطبيعة هي التي توحى إليها وترقص فيها . ترقص مرحاً أو حزناً ، وترقص حباً أو كرهاً ، وترقص أمناً أو خوفاً . كانت ترقص بكل خلجة من خلجات نفسها . ولهذا كانت حياة الصحراء أقرب إلى طبيعتها .

ومضى عليها الحريف والشتاء وسيف يضرب بها في الأرض كأنهما آدم وحواء . لم يطلب سيف منها شيئاً ولم تطلب منه شيئاً ، بل كانا يتقاسمان ما يجدان معاً ، ويطلبان ما يريدان معاً . وكان سيف لا يجد مشقة في النزول بأحياء العرب يحتفى بجوارهم قبيلة بعد أخرى ، لأنهم كانوا جميعاً يعرفون سيف بن ذى يزن . وكان في كل يوم من تلك الأشهر التي مرت به في شعاب الصحراء يرى لوناً جديداً من محاسن طليبة . لم ير منها في أول عهده بها إلا رونق شبابها ، ولم يحس منها سوى أنفاس حواء . ثم بدأت دقائق حسنها تتكشف له واحدة بعد أخرى . حاجباها الدقيقان ، وعيناها الواسعتان ، وفمها الحساس ، وأنفها البديع .

وكلما تأمل محاسنها تذكر خيلاء . ألا ما أقساها من ذكرى ! كان أحياناً ينطوى على نفسه بعد نظرة منها ويقضى ساعات طويلة في كتابة ، ولكن طلبية كانت لا تعباً أن تقول له في أثناء ذلك كلمة . كانت هي كذلك تنطوى على نفسها ساعات فلا تحب أن يقول أحد لها كلمة . وهذا الخدان الأسيلان اللذان أشربتهما شمس الصحراء سمرة الحمر المعتقة ، وهاتان اليدان اللطيفتان البضتان وأناملها الرخصة المستوية الدقيقة ، وذلك القوام اللين الذي يخطر خفيفاً فوق قدمين صغيرتين خلقتا لكي ترقصا رشيقتين . وكانت تلك المحاسن تبدو له في ألوان شتى ، إذا تنفس الفجر وإذا سطع ضوء الشمس وإذا احتجبت أضواؤها خلف السحاب وإذا أظلم الليل ولاح شخصها في ضوء النجوم الخافت ، وإذا غمرها القمر في الليالي الزاهرة . أكانت خيلاء تستطيع أن تسير معه هكذا ولا تسأله إلى أين يسير بها ؟ أكانت تصادم الليل والنهار معه هكذا لا تعباً أين يطلع عليهما الصباح التالي ؟

وانتهى بهما المسير إلى جبل أواره من أطراف نجد فيما يلي العراق ، فأقاما هناك في جوار بني تميم . وكان سيف يتحسس المواضع في سيره البطيء كأنه يقصد إلى قصد ، وإن كان قصده ماثلاً أمام عينيه في كل لحظة . أيستطيع أن يدرك أباه وهو عند باب كسرى ؟ أما زال أبوه يحزن من أجل زوجه ريحانة وولده سيف ؟ أيعرف أنها ولدت لأبرهة ؟ أمات يكسوم حقاً ؟ فمن يلقاه إذن عندما يعود إلى صنعاء ؟ أهو أخوه مسروق ؟ وكان أواره الأجرد يشرف عابساً على مروج خضراء باسمه خلفتها

الأمطار التي توالى غزيرة في شتاءين متعاقبين . وكانت بطون الصخر مملأة بالمياه الصافية ، وقيعان الأودية ما تزال تلمع بجداولها المتعرجة . فأقام سيف هناك يستجم أياماً قبل أن يثب المرحلة الأخيرة إلى الحيرة ، ليلقى بها الملك عمرو بن المنذر . وكان في مقامه بأرض تميم يتطلع إلى اليوم الذي يبلغ فيه المدائن ، فلا شك أن عمرو بن المنذر النبي يعينه على بلوغ باب كسرى . بل هو جدير بأن يغضب معه لليمن وما أصابها من ذل الحبشة لأنه كان يمنيًا من قبل أبيه اللخمى ومن قبل أمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندى . ولكنه وهو يوشك أن يغادر الصحراء كان يتمسك بالأيام الباقية كما يتمسك الظمآن ببقية ماء بارد في كأسه . كانت الصحراء تغمره شعوراً بالحياة ، ولا تقيم بينه وبين نفسه حجاباً ، ولا تختلس من إحساسه شيئاً من المتعة التي يعب منها مع طليبة .

كان يحيا هناك في كل لحظة من أيامه ولياليه ، يحيا في أنفاسه وفي عطر الصحراء الوحشى الذي يتنافح إلى شمه ، وفي الأصباح والأماسى وفي محاورة الوعول فوق الهضاب ، وفي استقبال طليبة إذا أب من الصيد ، وفي عير شعرها الذي لا يمسسه الطيب ، وفي غصنها الرطيب ونغم بأصوتها إذا كركرت ضاحكة أو ترنمت بأغنية ، بل في نومه العميق الذي لا يتخلله حلم . وجلس ليلة مع طليبة عند النار بعد عودته من الصيد ، يجهزان معاً عشاءهما وهى تحدثه بين ضحكاتها عما لقيت في يومها عند مورد الماء ، إذ انقطع جبل دلوها فقضت نصف يومها تقتل حبلاً جديداً وتصنع من جلد الماعز دلوّاً لا يكاد يمسك الماء .

وحدثته عن كلبها الضاري الذي كان يدع الغنم وحدها ليلحق بأرنب
تسبح له ثم يعود خائباً غاضباً . ولما نضجت القدر وفاحت ريح الشواء كان
عشاؤهما شهياً ، وأخذ سيف يصف في مرح حوادث يومه الصغيرة .
وقالت طليبة في غير مبالاة :

— أعرفت أن القوم عزموا على الرحيل ؟

فقال سيف في دهشة : الرحيل ؟

فقال هادئة : أنذروا بغارة من عمرو بن هند ؟

فقال في دفعة : أتحجبين هذا الخبر عني منذ عودتي ؟

فقال ضاحكة أقوله وأنا جائعة ؟

وقام يلقي رداءه على كتفه ، فقالت : إلى أين ؟

فقال : إلى حاجب بن زرارة .

وكان حاجب سيد بني تميم بعد موت أبيه زرارة صاحب عمرو بن
هند وكان لا يكاد يفارقه ، حتى لقد أمنه على ولده أسعد بن عمرو ليقوم
على تنشئته بالبادية . وكان أسعد يلعب يوماً بقوس فرمى ناقة في ضرعها ،
فجاء صاحبها التميمي وعدا عليه فقتله ثم هرب . فأسر الملك غضبته على تميم
إعظاماً لصاحبه زرارة حتى إذا مات وجه جيشه إليهم ليقتصم من قتل ولده .
ولكن حاجب بن زرارة لم يكن هناك ، لأنه ارتحل منذ الصباح
يضرب في الصحراء هرباً من جيش عمرو بن هند . وكانت خيمة
سيف عظيمة عندما عاد إلى طليبة يؤذنها بالرحيل من أواره . وسار في
تلك الليلة بقلب ثقيل على درب العراق لا يدرى كيف يصل إلى كسرى .

قال الراوي :

خرج الناس ألوفاً يتزاحمون في طرق المدائن عاصمة بلاد فارس ينتظرون خروج كسرى أنوشروان العظيم من قصره ، ذاهباً إلى الميدان الأعظم الذي حشدت فيه الجيوش للعرض المنتظر . وكان في الميدان منصة عالية عليها بسط بديعة الصناعة ، ذات نقوش زاهية من صور الزهر والطير وصنوف الحيوان والوحش ، أو مناظر فرسان يطاردون الصيد ، والظباء الحائرة تعدو في دعر ، والسباع تفرس الأبقار الوحشية . وبشت فوق البسط وسائد من الحرير ذات ألوان شتى عليها نقوش بخيوط الذهب والفضة . وكان قائد الجيش الأعظم بآبك بن البيروان يتكى على المنصة في لباسه الحربى الفخم ، تزينه حلبة من الجواهر والذهب . وكانت الجموع المحتشدة تتجه بأبصارها نحو الطريق التى تهبط من ناحية القصر الملكى تتطلع لرؤية كسرى مقبلاً فى موكبه ، يعرض نفسه على القائد الأعظم على أنه الجندى الأول الذى يضرب المثل لطاعة الجندى لقائده . وكانت الجموع أخلاطاً من فرس وكرد وعرب ومن أهل خراسان وسجستان وفرغانة ومن الترك والديلم والكرج ، يقفون جماعات وفرادى يتحدثون فى لغات شتى تشهد باتساع دولة كسرى .

وكان سيف واقفاً بين الناس إلى جوار شيخ عربي يلبس ثياب
الفرس ، ووجهه ينطق بالقلق الذى يساوره.

وقال سيف : أترى يخرج كسرى اليوم يا أبا عدى ، أم نعود
بالخيبة كما عدنا فى اليومين السابقين ؟

فقال الشيخ : لا أحسبه يتخلف اليوم ، فإن القائد يأبى إلا أن
يكون كسرى أول من يعرض نفسه . إنه بابك بن البيروان وهذا شرطه
أن يقبل القيادة .

فقال سيف : أحس قلبى يتقد يا أبا عدى ، والأيام تمر بى كما
مرت بأبى . لم تبقى لى إلا هذه الفرصة فيما أن أنجح وإما أن أختصر
انتظارى . أأبى على باب كسرى حتى أموت يائساً مثل أبى ؟

فقال الشيخ متردداً : لا أظنك تستطيع أن تقترب منه يا ولدى .
فقال سيف : وماذا أبالى ؟ سوف ألقى بنفسى نحوه وأقتحم هذه
الجموع ..

فأمسك الشيخ بذراعه قائلاً : ليس لك من سبيل إلى كسرى إلا أن يساعدك
عمرو بن هند ؟

فقال سيف : سأجعل هذا آخر طوافى . أيقتلونى ؟ إنه أحب إلى ...
وظهرت طلائع الموكب فقطع سيف قوله وتطاول بعنقه . وكانت الفيلة
تسير فى الصدر عليها سروج حمر منقوشة وحلية من الفضة فوق رؤوسها
وحول أعناقها . ثم أتت بعدها فرقة من الفرسان على جياد رشيقة ،
وتسير صفوفاً كل منها فى لون من الملابس . وكانوا جميعاً فى سلاح

كامل — درع وجوشن وساقان من النحاس وسيف ورمح وترس ومنطقة
وطبر زين وعمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثون نشابة وتران مضفوران
معلقان في المغفر من وراء .

وكان كسرى على جواد أبيض له سرج من الحرير الأحمر ،
وعليه حلية من الذهب والجواهر . وأما هو فكان في لباس الجنود
ويحمل سلاحهم . وكان الناس يخشعون له إذا مر بهم وينحنون لإجلاله
فيما يشبه السجود وغشى الميدان صمت رهيب .

وصاح المنادي قائلاً : سيد الكماة كسرى !
وتقدم كسرى نحو المنصة بجواده فاستعرض للقائد الأكبر الذي
كان متكئاً على الأريكة . وعلا صوت بابك قائلاً :
— إنك أيها الملك مثال لرعيتك في تقدير العدل الذي لا محاباة
فيه ولا هوادة . فهلم إلى كل ما يلزم الجندي من صنوف الأسلحة
فاعرضها على واحدًا فواحدًا .

فأخذ كسرى يشير إليها على ترتيبها . فقال الشيخ القائد :

— أين الوتران من وراء المغفر ؟

فبادر كسرى فتناول وترين وعلقهما وراء مغفره .

وصاح المنادي : الكمي سيد الكماة كسرى ! أربعة آلاف درهم
عطاء ممتازاً .

وعلت صيحة إعجاب من الجموع عند ما سار كسرى يشق
الميدان .

وهمس سيف عندما اقترب الملك من موضعه : « انظر يا أبا عدى إلى وجهه » .

وكانت لحيته البيضاء تحيط بوجهه ينطق جلالاً وقوة وهدوءاً .

واستمر سيف : إن وجهه ينم عن نبل .

وهمس الشيخ : انحن يا ولدى حتى لا تثور الشوك فينا .

فقال سيف : إنه يقترب .

وكان أول الموكب يمر ولم يبق بين الملك وبين سيف إلا خطوات ، فاندفع فجأة واخترق الصفوف حتى وقف في صدر الجمع وصاح قائلاً : أيها الملك العظيم !

ورن صوته في الصمت العميق ، فالتفت الناس إليه وعقدت الدهشة الألسنة ، وخفق قلب الشيخ وهو يرى الحراس يبادرون إلى سيف بسيوفهم . وجذب الملك عنان فرسه وقال بصوت جهورى :

— دعوه فليقترب منى .

وانفرجت حلقة الحراس وأخذ رئيسهم بذراع الشاب متقدماً نحو الملك وانحنى إجلالاً .

وقال الملك : سلوه ماذا يريد .

ولم يفهم سيف ما قال ولكنه أدرك من هيئته أنه غير غاضب .

فقال في خشوع : لى عند الملك مظلمة . لى عندك دين .

فقال الملك : أما من يفهم لسان هذا ؟

فتقدم أبو عدى بصيح من بين الجمع بالفارسية :

— عبدك يا مولاي يعرف لسانه .

وانفرجت له الصفوف حتى انحنى أمام الملك قائلاً :

— إنه يقول قولاً جريئاً يا صاحب العرش .

فقال الملك في دفعة :

— قله حرفاً حرفاً .

فقال الشيخ :

— يقول إن له عندك مظلمة . له عندك دين .

فلاحب بسمة هادئة على وجه الملك الشيخ وقال :

— إنه مضطر يخاطر بنفسه . سله عن دينه أيها الشيخ وله عندى

الوفاء إن صدق .

فقال أبو عدى لسيف متظاهراً بالحقاء :

— الملك العظيم يسألك عن الدين الذئى لك .

فقال سيف :

— أفى هذا الجمع ؟ ما ينبغى أن يسمعى غير كسرى العظيم .

ونقل الشيخ قوله فقال الملك :

— ما اسم الفتى ؟

ولما سمع اسمه قال في صوت خافت :

— ذو يزن ! ذو يزن ! كأننى أذكر هذا الاسم .

وبسط سيف ذراعيه قائلاً : أنت مثل قطر السماء أيها الملك تروى

الجبال والسهول ، ويعم فضلك القريب والبعيد . لا تصرف وجهك

عنى وافتح لى بابك حتى أطالبك بديتى . بوعدك لأبى .

ولما نقل الشيخ قوله اتسعت بسمه الملك وقال :

— إنها حيلة أريب . إن له لشأناً .

والتفت إلى كبير حراسه قائلاً : خذه بالزفق حتى أراه إذا عدت .

وسار الموكب بين ضجيج الجموع بالدعاء للملك العظيم الذى يقف للأجنبي الضعيف ويستمع إلى شكواه ويأذن له فى المثل بين يديه .

* * *

ولما صار سيف أمام الملك اتجه إليه باسماء وقال على لسان ترجمانه :

— لقد جئت تطلب دينك .

فقال سيف :

— عفواً أيها الملك فإن الناس يتحدثون فى كل مكان عن بكرمك

وعدلك ورحمتك . والمضطر يركب الصعب وهو عالم بركوبه .

فقال كسرى :

— أأمنت أن يقتلك جندى ؟

فقال سيف :

— الهلاك أهون ما يخاطر به مثلى .

فقال كسرى : كأننى أسمع صوتاً أعرفه . أعد على اسمك يا فتى .

فقال سيف : ابن أبى مرة ذى يزن .

فصمت كسرى لحظة ثم قال لترجمانه :

— ألا تذكر هذا الاسم يا وهرز .

فقال الترجمان الشيخ : أظنه صاحب القصيدة يا مولاي .

فعاد كسرى إلى الصمت لحظة ثم قال فجأة :

— ذكرته يا وهرز . لقد صدقت يا فتى . كان لأبيك دين في

عنى . قل له يا وهرز إننى منجز وعدى .

وأشار بيده فأخذ كبير الحراس بيد سيف مترقفاً حتى خرج به

من الإيوان ، وسيف يحس أنه لم يبلغ بعد مما أراد شيئاً . كانت كلمة

قصيرة . ثم صرف من حضرة الملك ولم يسمع منه قولاً . وخرج وهو

يحس كأن الأرض تنهار من تحت قدميه ، حتى وقف بالباب مع مئات

من طلاب الإذن وأصحاب الحاجات . وخيل إليه أن قلبه يدمى .

أهذا كل مبلغ أبيه عند كسرى ؟ رجل أرسل إليه قصيدة ؟ وضحك

في نفسه ضحكة مرة وهو ينظر إلى الجموع الأنيقة التى تنتظر بالباب .

أهكذا كان أبوه يقف كل يوم طوال السنين ؟ وكان الناس يتحدث

بعضهم إلى بعض وعيونهم تتزلق نحو حجاب الباب الذين يدخلون

إلى الإيوان ويخرجون منه . كان كل منهم يتربص بفرصة يفوز

فيها من أحدهم بكلمة ، ثم يطأطئ رأسه احتراماً وينصرف بغير

أن ينظر الحاجب إليه . أهكذا كان أبو مرة ينحنى ؟ ألا شد ما لى !

وبدت له حياته كلها باطلة تافهة وأن ميتة فى معركة مجهولة فى بطن

فلاة لا يعرف أحد من أسرارها شيئاً خير من أن تمتد به الأيام على مثل

هذا . وسمع صوتاً ينادى باسمه ، فإذا حاجب يقلب نظرة هائمة فى

الوجوه ويقول « ذو وزن » . فتحرك سيف مسرعاً وذهب إليه متلهفاً .

أ يكون كسرى قد بعث إليه ليستمع إلى بقية حديثه ؟ وذهب به الحاجب إلى حجرة فسيحة ذات نقوش بديعة تغطي جدرانها وسقفها ، وعلى جوانبها قطع من سلاح وتحف شتى . وكان فى صدرها مجلس أنيق عليه بسط ووسائد والشيخ وهرز يستقبله باسماء . ونسى سيف فى دهشته أن يُحيى حتى انحنى الحاجب نحو الأرض ، فأوماً سيف بانحناءة وكان وجه وهرز مجعداً تعترضه أسارير عميقة تتخللها جراح ، وشعره الأبيض يتوج رأسه ويطل من حاجبيه البارزين فوق عينيه ، ونظر إليه سيف فى إعجاب صامتاً . وقال وهرز :

— لقد أعجبت الملك العظيم يا فتى . وها هو ذا دينك .

ثم أشار إلى الحاجب فحمل كيساً ضخماً كان على الأريكة فقدمه إلى سيف . وفتح سيف عينيه فى دهشة ونظر إلى الحاجب ثم إلى الشيخ قائلاً :

— أى دين هذا ؟

فقال وهرز فى ارتياح :

— هذه جائزة أبيك .

ومد سيف يده إلى الحاجب فحمل الصرة الثقيلة فى شىء من العنف ، ولم يقف لحظة ليقول كلمة ، وكان يحس فى صدره مرجلاً يوشك أن يتفجر . ألهذا جاء إلى كسرى ؟

وخرج من الباب حتى صار بين الجمع الذى ما زال يتهامس فى البهو ، ثم ألقى بالحمل الثقيل على الأرض ، وأكب عليه يفتحه فى حنق .

ثم ضحك ضحكة جشاء وهو يدس يده فى الكيس ويقبض قبضة ثم يصبها فيه ثانية . وصاح :

— إنه ذهب ! إنه ذهب يهر الأنظار المتطلعة .

وتعالت منه صيحات مجنونة قائلاً :

— أيها الناس المتراحمون هنا . إنه ذهب . فخذوا !

وأخذ يقبض القبضة منه وينثرها لا يبالي أين تتساقط . ومضى فى

صيحاته :

— أيها الأندال البواسل الذين يتطاحنون من أجل الذهب ، خذوا !

إنه ذهب أيها العظماء الأذلاء ، خذوا ! أيها العبيد السادة ، أيها السادة

العبيد خذوا ! إنه ذهب . أيها الذين تبيعون أنفسكم ، خذوا ! إنه ذهب .

ها هو ذا الذهب أيها الحكماء الحمقى ، وأيها الجشعون المهذبون ، وأيها

الأوغال الظرفاء . خذوا جميعاً ، هذا هو الذهب فاملأوا به عيونكم

وأسعدوا به عبوديتكم .

ووقف الناس يستمعون إليه ولا يفهمون ما يقول وزاحم كثير منهم

على الذهب المنثور فى دفعة شرهة وجعلوا يلتقطون ما يتساقط منه فى

ضجيج وعنف ، حتى أفرغ سيف ما فى الصرة ووقف يتأمل الصراع

العنيف من أجله وضحكته المضطربة ترن فوق ضجيتهم العالية .

وخرج من البهو كالأعمى يتصادم بالأقدام والصدور ، حتى صار

خارج القصر ، ثم وقف يتأمل الطريق لا يدرى أين يتجه . وإذا صبيحة

تعلو من ورائه فى أصوات مختلفة وألفاظ لم يفهم منها شيئاً سوى أنها

حانقة ، وامتدت إليه أيدي حراس القصر تعود به في غلظة نحو الإيوان ،
حتى وجد نفسه أمام كسرى . وكان ينظر إليه عابساً وقال له على
لسان وهرز :

— ماذا فعلت أيها البائس بجائزة الملك ؟

وأحس سيف كأنه خرج من مأزق واستعاد الأمل بعد أن كاد
يئأس . فماذا يفعل به كسرى ؟ أيقنته ؟

وقال هادئاً : وماذا أصنع بها أيها الملك ؟

فقال الملك في دهشة : ألم يكن ذهباً ؟

فاندفع سيف قائلاً : كم من فقير يتلوى في هذه الساعة من الجوع
أيها الملك ، ولو وقعت في يده منه قطعة لطلعت عليه السعادة . ولكم تراحم
الواقفون عند بابك عندما نثرته عليهم وامتلاؤا به غبطة .

فقال الملك غاضباً : أتسخر أيها الأعرابي ؟

فقال سيف : عفواً أيها الملك ، إنك تملأ الأرض بعظمتك
وحكمتك ولا يمكن أن تسمو إليك سخرية . ولكني لم أقصد بابك
من أجل الذهب . فلو شئت ذهباً لوجدته في معادن الأرض تراباً
خسيساً ، تطؤه الإبل في سيرها في الصحراء . فقطعة من الحديد
خير عندي من هذا الذهب ، لأنني أتخذ منها سيفاً أضرب به عدوى أو
درعاً تحمي صدري ، أو لحاماً أمسك به جوادى ، أو مسماراً أدقه
في سفينة .

فقال الملك : أنت تخرج صدري بثرثرتك . فيم جئت إذا

لم تكن طالب جائزة ؟ فيم جاء أبوك هنا ؟

فقال سيف : لم يجرى أبى من بلاده يطلب جائزة أيها الملك العظيم
ولست أعرف أنه يقول الشعر ، ولكنه إذا قال شعراً فذلك لكى يستعطف
قلبك على غاية أسمى .

فقال الملك فى جفاء : كان ذلك من سنين طويلة وأظن أمك لم
تخبرك بهذا أيها الفتى .
وتحرك قلقاً .

فقال سيف : أمى ربحانة بنت ذى جندن سليمة بيت تبع ملك
اليمين ، ولم يكن أبى شاعراً بل أميراً يطلب ملكاً . جاء إليك لأن
الأحباش غلبوا على بلاده ونزع أبرهة زوجته . جاء إليك يطلب نصرك
على الظلم وعونك على من يستعبدون الأحرار . وقد جئت لأجده فوجدته
هلك عند بابك وهو ينتظر وعدك ! أليس هذا ديناً ؟ جئت إليك أطلب
النصر لا الذهب ، وألتمس الشرف لا الغنى . إن فارساً واحداً من ذوى
النجدة أسند إليه ظهرى فى القتال أحب إلى من كل ذهب الدنيا .

وكان سيف يتبع حركة وجه الملك وهو ينفرج من عبسته حتى بدا
عليه الارتياح والسماح وقال له :

— تقرب أيها الفتى وقل ممن أنت .

فقال سيف : أنا ابن ذى يزن الحميرى . ليس لى مال ولكن
قوى يعرفونى . ولولا بطش الأحباش بالناس وإيقاع الفرقة بين سادة
العرب وإفسادهم بالرشى لوقف الجميع ورأى .

فقال الملك : الأحباش ؟

فأجاب سيف : نعم الأحباش . هؤلاء الأحباش الذين أذلوا عز
اليمن وأزالوا مجدها . فهلا نصرتنى أيها الملك فتكون إحدى حسناتك
عند أمة تعرف الحميل ؟ إن كرمك وفضلك وعدلك تحملك على
أن تنصر المظلوم وإن لم يستنصر بك ، فكيف وقد جئت إليك أناديك
باسم أمة ؟

وسكت كسرى مفكراً ، ثم التفت إلى وهرز فحادثه حيناً قصيراً
ثم التفت وهرز إلى سيف قائلاً :

— سينظر الملك في الأمر أيها الشاب فالزم بابيه .

فقال سيف : ألم يفرغ الملك من النظر في الأمر منذ وعد أبي ؟
لست أطلب نصره مبتدئاً ، بل أستنجز وعده . اليوم قبل الغد ، فإن
الحبشة تمهد هناك لقيصر . هناك مضيق البحرين الذى يفضى بالسفن
إلى الهند وسواحل الصين . وهناك الأودية التى قد تمد جنود الروم بما تشاء من
الحيرات . وهناك فرسان العرب الذين يكونون عليك إن لم يكونوا معك .
وكان الملك ينصت إلى سيف فى دهشة وقال له :

— كم سنك يا سيف ؟

فقال : سنوات طويلة من الفكر والهم والحزن والحرق ، سنوات
طويلة من المصادمة والمقاتلة والتشريد . عرفت الناس وما فيهم من ضعف
وقوة ، وعرفت بعض نفسى أيها الملك ، وبعض ما أضمر من خير
ومن شر . سنوات طويلة وإن شئت فقل سنوات عريضة ، تكشفت لى

الحياة خلالها عن أصدق ما فيها وأجمل ما فيها وأبشع ما فيها . هذه هي
سنى أيها الملك الحكيم زادك الله حكمة .

فتبسم كسرى بغير تحفظ ، والتفت إلى وهرز فحادثه حديثاً
آخر أطول من حديثه الأول ، وكان في نبرات صوته حرارة .

وقال الشيخ : يقول لك الملك لا تبرح بابي حتى يتخذ في أمرك
عزماً . لا تغب عن الباب غداً وبعد غد وما يلي ذلك حتى يوفى لك
دين أبيك .

وحيا سيف تحية شكر صادقة وخرج من الإيوان كأنه يسبح في
الهواء ، وأسرع إلى داره الصغيرة في أرباض المدائن ، بجوار بيت الشيخ
أبى عدى .

قال الراوى :

كان القمر يضىء الليلة التى تسبق المعركة بعد أن مضت أيام
الهدنة العشرة التى جاد بها مسروق على الكتيبة الضئيلة التى جاءت من
فارس تغرر بنفسها إلى شاطئى ائمن وتتحدى جيشه العظيم . وكان
الشط الممتد على الساحل لا يزيد على شريط ضيق نزلت الكتيبة

الصغيرة على لسان منه يحيط به البحر من جوانبه ، وتطل عليه الهضبة
الفسيحة منحدره نحوه في سفح صخرى تشقه أودية صغيرة . وكانت
جوانب الأودية تبدو أمام صفحة السماء ضروساً مسنمة مثل أمواج تتلاطم
عند شاطئٍ وعر .

وكان وهرز القائد الفارسي في خيمته على ربوة في الطرف الأقصى
من المعسكر على الشط ، ينتظر الغد في هدوء ولا يبدى شيئاً من القلق
الذي كان يثقل قلوب جنوده . كان وجهه المجعد لا ينم عن حركة من
جزع أو رجاء ، كأنه لم يفجع منذ يومين في أعز أبنائه عليه « نوزاد » .
وكان جسمه الضخم ومنكباه العريضان وذراعاها اللتان يغطيهما الشعر
الكثيف وصوته الجهورى العميق تجعل حوله هالة أسطورية ؛ كأنما
هو أحد أبطال قصص رستم واسفنديار التي كان الناس يستمعون إلى
إنشادها في مواسم عدن وصنعاء وفرسان . وكان جبينه العريض تشقه
خطوط من أخاديد وندوب جراح عميقة ، وشعره الأبيض يكلل رأسه
ويصبغ شاربه الغزير وحاجبيه البارزين اللذين يتدليان على عينيه .

وكان سيف يقبع وحده في خيمته والهواجس على عاداتها تتزاحم
عليه كما لم يزدحم حوله جمع صاخب ، وكلما هم بالذهاب إلى الشيخ
ليحدثه عن معركة الغد تردد ولم يجد في نفسه جرأة . فماذا يقول له
والمعركة تبدأ إذا طلع الصبح وليس معهما إلا ستمائة جندي من الديلم ،
هم بقية الجيش الصغير الذى بعث به كسرى لينصر أهل اليمن على
الأحباش ؟ وكان يحسب أن قومه يسارعون إليه إذا ما سمعوا بمقدمه ،

ولكن رسله الذين بعثهم إلى أودية حمير لم يعودوا إليه ، وقد مضت الهدنة
 وستبدأ المعركة في الصباح . فكان في خيمته الصغيرة يجادل نفسه في
 حق وضيق يكادان يقذفان به إلى اليأس . أمن أجل هؤلاء الذين يدعونه
 ويستفزونهم في حماسهم الجوفاء يضرب في الآفاق كل تلك السنين ؟
 وهل من أجلهم قاسى ما قاسى من مخاطر البر والبحر ، فلما عاد يدعوهم
 كان جنود الحبشة أسرع منهم إليه ؟ وكان كلما رفع بصره إلى الهضبة
 الواسعة أحس قلبه يغوص في جوفه ، إذ كانت عيناه لا تكادان تبلغان
 طرفي المعسكر الحبشى العظيم . وكانت حسرته تشتد كلما تذكر أن
 ذلك الجيش الذى جاء يحاربه كان يضم جموعاً من فرسان القبائل التى
 جاء يخلصها من الأحباش . وكلما تمثل معركة الصباح امتلاً قلبه
 غيظاً ، لأنه سيقف مع حفنة من جنود الديلم في وجه هؤلاء الفرسان الذين
 كان يدعوهم قومه ، وقد جاءوا ليضربوا وجهه وليرجعوه بالحياة . فلم
 يبق له إلا أن يقتحم صفوفهم حتى يشيط في رماحهم ويختم حياة ضل
 بها الخيال .

وتذكر حديث كهف ينور وصاحبه الشيخ ، وعزيف الريح
 العاصفة التى كانت تدوى بين الجدران كأنها تعيد عليه نبوءة الساحرة ،
 وخيل إليه أن الهضبة التى تمتد من فوقه تثور بزوبعة ذات برق ورعد
 وسيل ، وأن من تحتها حشداً عظيماً من العقارب والأفاعى . أهذا كل
 ما تحقق له من النبوءة ؟ أهكذا غررت به الأوهام حتى عاد إلى أرض
 اليمن بعد تلك السنين المضطربة ليستمع إلى سخرية الحقائق ؟ وكان

الحق على نفسه يتزايد كلما أوغل في الفكر ، بل لقد أحس لأول مرة بشيء يشبه الحقد على صديقه الحكيم أبي عاصم ، وخيل إليه أنه شارك في تضليله بتلك الأحاديث التي كان يحشوها بأوهام الشمس المشرقة وحكمة المقادير وكرامة الحياة . وتمثلت له اللعنة التي حدثته أمه عنها يوماً . فيها هو ذا مرة أخرى يهيم في الخيال ثم تجرفه الحقائق إلى حيث لا يدرى . وطن في سمعه شيء يشبه وقع حوافر خيل على الأرض الصلبة . أتكون هذه رساله عادت إليه بالبشرى ؟ أم تكون طلائع قومه جاءوا يعتذرون عن تأخر أصحابهم ؟ وقام خارجاً يتطلع إلى السفوح المضروسة التي كانت تبدو أمامه بعيدة راكدة موحشة ، ولكنه لم يجد عليها شيئاً سوى الصخور الوعرة الناعسة .

وذهب وهو متردد إلى خيمة الشيخ « وهرز » ، يريد أن يهرب من الحلوة المزدحمة التي يضيق بها ، وكانت قبضة صدره تتزايد مع كل خطوة ، ويحس كأنه ارتكب جرماً مع الشيخ الباسل . ألم يقل له في ثقة رعناء إنه سيبعث إلى قومه ولا يشك في أنهم يأتون إليه سراعاً ؟ وكان وهرز وحده يضرر بيده أوتاراً من معى الوعول ، وقوسه إلى جنبه تعترض الخيمة من مدخلها إلى أقصاها ، وكانت من عود غليظ لم تقع عينه من قبل على مثلها .

ونظر إليه الشيخ من تحت حاجبيه المهدلين وقال بصوته العميق :
— لم أرم بهذه القوس منذ سنوات .

وكان في صوته هزة من يترقب نشوة مطربة .

وكاد سيف يقول له : « أحقاً نحارب غداً ؟ » لولا أن الشيخ وضع
الوتر وقال في شبه مرح :
— غداً أنتقم لولدي .

وتناول القوس وأخذ يفحصها بيديه الضخمتين ليستوثق من سلامتها ؛
ثم شد عليها الوتر وجعل يجذبه ويرسله فيصدر عنه هزيم عال متجاوب .
وقال سيف في نفسه : أهكذا تحزن الآلهة على وحيدها ؟

ونظر إليه معجباً : ذلك الرجل الذي لم يتردد أن يسير في مثل سنه
في جيش عدته ثمانمائة من الديلم ، ثم لم يجرع عندما غرقت منه سفينتان
في الرحلة ، عليهما مائتان من رجاله ، فلما نزل على الساحل القفر
أحرق سفنه بما عليها من الأحمال حتى لا يترك في أحد من جنوده ظلاً
من الأمل في الارتداد ، ثم قال لرجاله : « ليس أمامنا سوى الانتصار
أو الهلاك » . لم يسمعه سيف مرة يتأوه حزناً ، ولم يقل عندما عرف
أن الأحباش قتلوا ولده إلا إنه لقي جزاء من يتعرض للأعداء في مدة
الهدنة .

وكان الشيخ منصرفاً إلى سهامه يسوى الريش عليها عندما هم سيف
أن يقول له : « ألا نتستر بالظلام ونتسلل بين الأودية حتى يجتمع الناس
إلينا ؟ » ، ولكنه لم ينطق بكلمة . ووضع الشيخ سهماً أمام عينه مبسوطاً
ليرى صحة اعتداله ثم قال :

إنما هي جذبة واحدة أضع بها هذا السهم حيث أريد .
ثم لمس حاجبه قائلاً :

— ليس يقلقنى إلا هذا الحاجب المتهدل يا سيف ، فإنه ينطبق
على عيني فلا أستطيع أن أثبت نظرى كما أحب . أرنى هذه العمامة
يا ولدى .

وحل سيف عمامته وذهب إليه باسمًا وقال :

— هذا تاجى .

وتبسم الشيخ قائلا :

— سأثبته على حاجبى يا سيف لكى يثبت من بعد على جبينك .
أراك تحسن لف العمامة فاعصب بها جبينى وحاجبى .
وكأنه عاد فتياً عندما أخفت العمامة تجاعيد جبينه ، وتحسسها
بيده قائلا :

— هكذا أحارب غداً .

ووضع السهم فى كبد القوس وجذب الوتر فطاوعته فى بطاء حين
ملا يده منها ، وسدد سهمه وسوى نظره عليه لحظة ثم قال :

— ليت الساعة تحت بصرى ! سأثأر غداً لولدى .

ثم أعاد القوس إلى استوائها وعضلات ذراعه تتقلص كمن يضع
حملاً ثقيلاً . ثم أقبل على سهامه يسوى الريش عليها فى اهتمام .

وخيل إلى سيف مرة أخرى أنه يسمع وقع حوافر على سفح
الهضبة ، فذهب يشتاف الفضاء ، وكانت السفوح الصخرية ما تزال
هادئة تحت ضوء القمر إلا من جوادين يركضان فى عنف فى مسيل واد
ضيق ، فأسرع نحوهما فى لهفة ، ولما رآه الفارسان وثبا نازلين .

فقال أولهما :

— الأودية تسيل برجالك وراء الهضبة .

فوثب قلب سيف وأسرع إلى وهرز كأنه يدخل صنعاء منتصراً .
ورفع الشيخ بصره قائلاً :

— ها قد فرغت يا سيف ، ولم يزل في الليلة بقية .

فقال سيف في هزة :

— عاد رسلى !

وكان صوته يرم عن هزته .

فقال الشيخ هادئاً :

— لن يحول شيء بيني وبين ثأرى . أجزأ قومك ؟

فقال سيف :

— هم وراء هذه الهضبة .

فقال الشيخ :

— هم هناك حيث ينبغي أن يكونوا . اذهب الساعة إليهم يا ولدى

وتريث بهم إلى الصباح .

فقال سيف في دهشة :

— أما كنا نتلهف في انتظارهم ؟

فقال الشيخ بل هم هناك أنفع لنا . سأبدأ الحرب وحدى .

لا تفوت على ثأر ولدى . سأرمى أول نشابة لأبرد بها كبدي ، وسيرى جنودى هؤلاء سهامهم من بعدى . فهذه السهام لا يعرفها أحد من

هذه الألوف الكثيرة التي وراء مسروق . سيرون سلاحاً يصيبهم بأيدي لا يرونها كأن الشياطين تبعها . فإذا ما وقع الرعب في قلوبهم كان ذلك نصف النصر ، وسأبدأ الزحف بعد ذلك بجنودى . فإذا ما بدأت المعركة صعدت أنت بأصحابك من وراء الهضبة فتأخذونهم من خلفهم وتكون مفاجأة قاصمة .

وهكذا فرغ الشيخ من خطة القتال في لحظة .
فقال سيف :

— أنحارب معاً والهضبة بيننا يا أبا نوزاذ ؟

فقال الشيخ :

— تلك خطة أخذتها عنكم يا سيف . ما كنت أخشى في حروبي إلا كمين العرب . ترقب من هنا صيحة تشبه عواء الذئاب .
ولما ركب سيف ذاهباً إلى قومه صافح الشيخ في تأثر ، وكان يسأل نفسه وهو سائر كيف يشهد الشمس إذا أشرقت .

* * *

وطلع الفجر وكان البحر هادئاً وأمواجه تتقلب ناعسة ، وكان جيش الحبشة يطل من فوق الهضبة على الساحل الضيق الذى تعسكر عليه الكتيبة الصغيرة ، وبدأ يستعد للهبوط عليها كأنه الصخرة العاتية تتقلقل للهبوط .

وقال وهرز وهو قابض على قوسه :

— أعيديوا لف عمامتى فإن حاجبى يهدلان ثانية .

ولما سويت العصابة على جبينه رفع رأسه قائلاً :

— هكذا أبصر سهمي . فانظروا أين مسروق إذا بدأ زحفه .
وهلعت الشمس من وراء البحر فاترة ، وكان مسروق يسير في طبيعة
الجيش على فيله الضخم وعليه حليته الثمينة ، وكانت الخيول تتواثب
رشيقة من حوله في نصف دائرة ، وتمتد من ورائه الصفوف إلى
غير نهاية .

ووقفت كتيبة الديلم في صف قصير تنتظر قائدها أن يرى سهمه .
وتردد جيش الحبشة حيناً حتى نزل الملك عن فيله واعتلى فرساً أدهم ،
وكان على رأسه تاج يلمع بياقوتة حمراء في شعاع شمس الصباح . فلما
صار عند أول السفح جذب وهرز قوسه قسراً وسوى سهمه حتى أحكم
تسديده ، ثم أرسله يسبح في الفضاء كأنه يمد حبلاً . فما هي إلا لحظة
حتى اضطرب صف الفرسان الملتف حول مسروق .

فصاح الشيخ صيحة يكاد من يسمعها يحسب أنه ذئب جائع ،
وعلت من ورائه صيحة من صف جنوده كأنها عواء قطيع من ذئاب .
ثم رموا سهامهم في الجمع الكثيف الذي أمامهم بغير حاجة إلى تسديد .
فترعزعت صفوف الحبشة وتصدعت جموع الأعراب ، حتى خيل إلى
الشيخ أن العدو يتردد في زحفه ويوشك أن يرتد . ولكنها لم تكن سوى
هزة ، واستأنف الجيش الضخم سيره على السفح كما يتهاوى سيل من
الحمم على جانب بركان .

وصاح وهرز صيحة أخرى مثل ذئب يعرس في فريسته ، وعلت

من ورأها صيحة جنده ووقعت السهام مرة ثانية كدفعة من المطر الدافق . فترعزعت الصفوف وتصدعت ، ولكن الجيش لم يلبث أن استجمع وبدأ ينحدر سريعاً .

وفى تلك اللحظة علت صيحة من وراء الهضبة ، وتدفقت جموع من الفرسان خلف صفوف الحبشة ، فتوقف انحدار السيل الجارف وتردد ، ثم استدار فى اضطراب ليلقى المفاجأة المفزعة .

وكان سيف فى درعه المعلمة يتقدم الفرسان ويضرب فى عنف كأنه يصدع جانباً من صخرة ، وأصحابه من ورائه ومن حوله يطحنون الصفوف المضطربة بسيوفهم ورماحهم وحوافر خيولهم ، فلم يلبث الجيش العظيم أن تصدع ، فذهبت قطع منه إلى اليمين وقطع أخرى إلى اليسار ، ثم اختلطت الخيول العربية بالفلول الحائرة ، وجعلت تحطم كل كتلة منها قطعاً . ومرت ساعة طويلة فى فوضى يحجبها غبار كثيف .

* * *

وعاد المطاردون آخر النهار ومعهم جموع من الأسرى وأكداس من الغنائم ، ولم يبق من أثر المعركة سوى حطام يغطى السطح بأشلاء جنود وخيل ، وقطع من سلاح ، ودماء متجمدة ، وخدوش فى الأرض ، وحجارة مبعثرة ، وكان مسروق مسجى بشيابه النفيسة المجوهرة تلوثها بقعة من دماء داكنة اللون . ومالت الشمس إلى رؤوس الجبال الجرداء ، والبحر ما يزال هادئاً كأنه بساط زبرجدى تتوالب أشعة الأصيل على رؤوس أمواجه الفاترة ، كأن لم تهلك دولة فى أثناء ذلك النهار .

واعترل سيف على صخرة من الساحل يحس في صدره قبضة ، كأن الملك لم يصبح بين يديه . لقد قتل حتى مل من القتل وأسأل دماء أعدائه حتى كره منظر الدماء ، ورأى جثة أخيه معفرة في الرمال ، وصدقت نبوءة الساحرة عليه ، كأن هزيم الرياح كان يتنبأ له بها في كهف ينور . وما هو ذا جيشه المنتصر يضرب خيامه فوق الهضبة التي كان عليها جيش مسروق في الصباح ، ولم يبق شيء يحول بينه وبين غمدان . ولكن صدره بقي ضيقاً ثقيلاً لا ينعشه نسيم البحر ولا تستغفره نشوة الانتصار .

وقال في نفسه : « مسكينة ربحانة ! فلعلها في تلك الساعة تجلس مطرقة في شرفها تنظر إلى الفضاء وتحدث نفسها كما كانت تحدثها دائماً عن قسوة الأمس والغد ، وهي تفكر في ولديها اللذين يقفان وجهاً لوجه في المعركة الصارمة . ولعلها في تلك الساعة تسأل نفسها أي ولديها هلك وهي مفجوعة في الحالين . أكانت تحسب عندما قالت له : ” اذهب في الأرض ” أنه سيعود يوماً ليقاتل أخاه ؟ أكانت تتوقع أن يكسوم يهلك ويخلى بينها وبين المقادير لتسخر منها ؟

وهل يلتقي خيلاء ؟ أهى هناك في تلك الساعة في دير نجران ؟ أيستطيع أن يعود إليها ويحدثها عن مغامراته ومصادفاته والمآزق التي وقف فيها حتى استطاع أن يظفر بالملك آخر الأمر ؟ وهل يقوى أن ينظر في عينيها الصافيتين وصورة طليبة تتخايل أمامه دونها ؟ طليبة التي قتلت نفيل بن حبيب من أجله ، والتي كانت تستغرق

في ضحكها وهي تغزم على العودة إلى الحانة لترقص حتى تعيا وتشرب حتى لا تعي ثم تنتظر قضاءها الفظيع ؟ أ كان يجرؤ أن يطرد من حياته تلك الهرة الوحشية ويعود إلى خيلاء يسألها أن تعود إليه ليتنسم السلام من عندها ، ويعيش معها سائر حياته في كذبة متصلة ؟ »
وأفاق من غمرة أفكاره على صوت الأبواق ودق الطبول مؤذنة بالسير إلى صنعاء .

٢٠

قال الراوى :

وجد سيف غمدان كما تركه منذ أربع سنوات . بستانه اليانع الذى لا يبخل بزهره لا يبالي أى عين تنظر إليه ، ولا يضمن بعطره الزكى لا يبالي أى صدر يمتلئ منه . وكانت طبقاته السبع ما تزال شامخة بقبها المرمرية التى تلمع فى ضوء الشمس مثل منارة على رأس جبل ، وكانت أبهاؤه على عهدا فسيحة أنيقة بأعمدتها الوردية وسقوفها المذهبة ونقوشها البديعة وآنيتها الفضية وتمائيلها الرائعة ، والأسود النحاسية الأربعة التى تزار كلما هب الهواء فى أجوافها ، وعناقيد المصابيح المتدلية من السقوف كأنها قطع من زخارفها . كان كل ذلك كما تركه سيف ولم يتبدل فى القصر شىء سوى سيده .

وكان الوعاء المرمري ما يزال على قاعدته الرشيقة الأبنوسية في الركن الذي طالما سمع همسات نجواه مع خيلاء .

ولكن خيلاء لم تكن هناك تنتظره أو تحييه ببسمتها ، أو تعتب عليه بنظرها ، أو تبادره قائلة في دهشة : « أنت هنا ؟ » . ووقف سيف حيناً إلى جانب الوعاء المرمري وهو متجه إلى جناح أمه ريحانة .

وعادت إليه حرقته كيوم رأى خيلاء تخرج من صنعاء في هودجها على طريق نجران . هي خيلاء التي لا يهتر قلبه إلى امرأة كما يهتر إليها أو إلى صورتها . كانت هي أمنيته الكبرى قبل أن يلتقي به اليأس منها إلى أمنيته الأخرى : تحرير أمته . وها هو ذا قد عاد إلى غمدان ملكاً ، وها هو ذا شعب صنعاء يهتف باسمه عند أبواب المدينة وعلى جانبي الطريق حتى تبعه إلى فناء القصر ، ولكنها لم تكن فرحته الكبرى . أما تجتمع له الأمنيتان معاً ؟

أما تعود خيلاء إليه وقد عصمها الدير من العبودية كما عصمه الجهاد من العبودية ؟ حرة تعود إلى حر . فأى ملك يصنعان معاً ؟

والشيخ المسكين أبو عاصم . أيجدونه حيناً في طباق القصر التي أمر سيف بإخراج نازليها التعساء ؟ وريحانة ؟ كيف يجدها بعد أن غاب عنها كل تلك السنوات ؟ وأسرع خطاه وقلبه يخفق ، وسأل نفسه كيف يكون لقاءها . أيأخذها بين ذراعيه ويقول لها « هأنذا قد حققت لك خيالي ، وصدقت لك وعدى وأعدت إلى قومي عزتهم وحريتهم ، وثأرت لك ولأبي ، أم يعزيها عن ولدها الذي تركه معفراً في الرمال عند

شاطئ البحر مسجى بثوبه ؟ وخطرت له نبوءة الكهف كأنها كانت
تتجه إليه خاصة : إن لم تقتله قتلك » .

وكان لقاؤهما كما يجتمع وحيدان نجوا من حريق ، يتناظران في
صمت وصدراهما يجيشان . وكانت تلك السنوات الأربع كأنها أربعون
عاماً مرت على الأم الواجعة ، فأحنت عودها وعصفت بمحاسنها وأنحلت
جسمها . كان وجهها ذابلاً تعرضه خطوط قائمة ، وكانت عيناها
الواسعتان تغوصان في محجريهما وتلمعان كجمرتين خابيتين . وكان
صوتها خافتاً كسيراً عندما قالت :

— ليهنك ملك آبائك يا سيف .

ثم تهالكت على أريكها قائلة

— اجلس يا ولدى إلى جنبي فإن قدمي تختلجان وعيني تظلمان

ورأسى يدور بي .

فقال سيف : عداك الأذى يا أماه . ما أشد شوقي إليك !

فقالت : الآن عرفت ما كان يحمله لى الغد يا ولدى ، وأقدر أن

أستقبل نهايتى مطمئنة .

فقال سيف فى مواساة :

— كنت أود لو لم يكن أخى الذى ذهب إلى لقائى ، ولكنها

المقادير التى أوقفنا وجهها لوجه .

فقالت فى هدوء : فيك الغناء يا سيف .

فقال : تجلدى يا أماه فلو استطعت دفع الموت عنه لدفعته .

ولكن لا بد مما ليس منه بد ، وكان لا مفر من هلاك أحدنا .

فقالت : علمتني الأيام هذا يا وادى . علمتني أنه لا بد من أشياء كثيرة علينا أن نتحملها . وعلمتني أن أرضى بالأمر الذى يقع إذا لم يقع الأمر الذى أرضاه . وعلمتني بعد هذا أن مخاوف الخيال أشد وقعاً من مخاوف الحتمات . أتحسبني أحزن على مسروق ؟

فقال فى مواساة : عرفت قلبك نبيلاً .

فقالت : لست أحب أن أكذبك يا سيف فى أول لقاء ، فقد كفاني ما كذبت عليك فى حياتي . أحس كأن قلبي مات فى صدرى . فلا أطرب ولا أرجو ولا أجزع ، وأستقبل البشير كما أستقبل النذير . وأطرت لحظة تعبث بحجر أحمر براق معلق فى سلسلة ذهبية بعنقها . ثم قالت : أتعجب إذ تسمع هذا مني ؟ اعجب يا سيف ولا تحمل لى رحمة فإني لا أحب أن يرحمني أحد وإن كان ولدى . لست أحس حزناً . فتحرك سيف قلقاً ومضت ريحانة قائلة :

— الحياة والموت والبؤس والشقاء واليأس والأمل ، كلها ألفاظ لست أعرف معناها . وأبو مرة وأبرهة ويكسوم ومسروق ، كلها صور فى الوهم كأنى لا أعرف حقيقتها ، أو كأنى لم أرها فى يوم من الأيام . لقد سلبتني الأيام كل ما وهبت حتى اللعنة التى كنت أشكو منها ، فلست اليوم أفزع من أوهام أو هواجس . دعنى يا سيف فإني أحس ضعفاً .

فوضع سيف يده على شعرها المبيض الحشن ، كما كان يفعل عندما

كان أسود غزيراً ، وقال فى رحمة :

— دعى هذه الهموم تنقشع عن صدرك يا أمى . فقد قاسيت طويلاً .
فأجابت وفى صوتها هزة :

— ليتنى أحس همًّا يملأ صدرى : نعم أتمنى لو امتلأ قلبى بشيء
وإن كان همًّا ، فإن هذا أرفق بى من الحلاء الموحش الذى يفزعنى ،
كأننى شبح فى مقبرة ! مقبرة !

وعلا صوتها وسمعه سيف أجش مرتعداً ، حتى اعترته على رغمه
قشعريرة . ومضت قائلة : عفواً يا ولدى فإنى أراك تفرع منى ، ولست
ألمك على هذا ، فإننى أفرع من نفسى . دعى أنطق فهذه أول مرة
أجد فيها من يستمع إلىّ منذ تركتني . سأذهب إلى بيت ذى جدن حيث
كانت أول كوارثي ، لعل صور حياتي تجتمع علىّ وتثير الأحزان
فى قلبى . وارتمت على الأريكة مكبة بوجهها على ذراعها تبكى بكاء
حاراً . وجثا سيف إلى جنبها يطوق كتفها الهزيلتين بذراعه ، وقال
فى همس متقطع : تجلدى وقاومى هذه الأشجان التى تعذبك . أأعيد
عليك كلماتك التى حفظتها منك ؟ انظرى إلى أعماق نفسك واكشفى
عن الهواجس التى تعذبك واطردىها فى هذه الدموع التى تذرفينها ،
ولا تكونى عوناً لها على إفساد حياتك . أما تتذكرين يوم جئت إلى
هنا لأودعك ؟ كنت فى ذلك اليوم تنطقين كما تنطق أم بطل ، وكانت
كلماتك تصاحبني وتشد أزرى وتؤنسنى كلما أحسست ضعفاً . وذهبت
فى الأرض كما قلت لى لأنشد حريتي وحرية قومي ، وهأنذا أعود إليك

لأزف إليك البشرى والعزاء معاً . قولى إنك سعيدة ، أو إنك حزينة
أو إنك لا تدرين أيهما أقوى عندك ؟ قولى إنك الآن فى ساعة فاجأك
لقائى مع ذكرى ولدك المسكين ، ودعيني أحدثك وأقول لك إنه كان
فى صدر المعركة وقتل كما يقتل ملك ، فلعل هذا يبعث إلى قلبك السلام .

فرفعت ريحانة رأسها وجففت عينيها الحمرأوين وتنفست قائلة :

— لا تؤاخذ ضعفى يا ولدى . هذه أول مرة بكيت فيها منذ فارقتنى .

كنت فى كل صباح وكل مساء أمسك نفسى بقيد من حديد حتى
لا أظهر جزعى ولا حنتى حتى جمدت عيني وجمدت مشاعرى .

ووقفت لحظة تهانف بالبكاء ، ثم مضت قائلة :

— لست أحب أن أعود إلى البكاء فى هذه الساعة وإن كان البكاء

يفرج عني . أحس كأنه يحل عقدة صلبة تتوسط بين عيني وتقبح فى

قلبي . كنت لا أسمح لنفسى بالبكاء ويكسوم يسومنى العذاب والذل ،

وفى نفسى مراجل تغلى . وكنت لا أسمح لنفسى بالبكاء كلما ذكرت

غيبتك عني ، وأنا لا أعرف أين تمضى لياليك ولا كيف تستقبل أيامك .

كنت أسأل نفسى أنتى حتى ترجى وهل ألقاك يوماً هنا أو فى أرض

أخرى ، بل لقد كنت أسأل نفسى هل يعود أبو مرة ؟ نعم كنت أسأل

نفسى عنه والفرع يكاد يذهب بعقلي . ولكم تمنيت الموت وإن كنت

أخشاه . بل لقد رفعت يدي بالسهم إلى فى ثم قذفته فى رعب لأننى

لم أجرو على الخطوة التى تفضى إلى العالم المجهول . ولكنى كنت دائماً

لا أبكى ، حتى إننى لم أبك عندما سمعت أنك عدت وانتصرت ، وأن

أخاك خلف جثته في المعركة . أترى هذه يا سيف ؟

وفتحت الحجر الأحمر اللامع المعلق في سلسلتها فإذا هو حق صغير يحوى قطعة صغيرة من مادة صفراء واستأنفت قائلة :

— ادخرت هذا السم للساعة الأخيرة لو رأيت أبا مرة . كانت هذه الساعة وحدها لو جاءت تجعلنى أجرؤ على اقتحام الخطوة الحاسمة . ثم نفضت القطعة الصفراء وداستها فلونت الطنفسة الثمينة التى تحتها ببقعة صفراء . ورنّت فى سمعيهما فى تلك اللحظة صيحات الناس فى الفناء واسم ذى وزن يتردد فيها . فقالت ريحانة :

— اذهب إليهم يا سيف . اذهب يا ولدى إلى شعبك الذى يدين لك بالكرامة . ودعنى لأفرج عن نفسى وأطلق دمعى . إن هذه الصيحات تثير الدموع فى دمائى فدعنى أرسلها .

واستلقت بوجهها مرة أخرى على يدها وأشارت إلى ولدها باليد الأخرى ليركها .

ونزل سيف كئيباً إلى الإيوان ، وكانت صيحة الهتاف ترن فى كل مشاعره ، كأنه لم يدرك إلا فى تلك اللحظة أنه أصبح ملك اليمن . وأطل من طنف الإيوان على الجموع الزاخرة التى تهتف باسمه وتلوح إليه بأيديها وتنطق له بوجوهها .

ومرت به لحظات وهو واقف يحى شعبه كأنه فى حلم ، لا يدري أهى الحقيقة تصدمه وتجرفه مرة أخرى أم هى بعض صور أوهامه التى كانت تلازمه وتجعله يعيش معها قسراً فى عزلة عن الحياة .

وتنبه إلى نفسه وهو يخطب في الناس ، متدفقاً تتسابق المعاني إلى لسانه حتى انتهى إلى قوله : « إن الأمة التي ترضى بالعبودية تنكر إنسانيتها وتبرأ من أصولها ، وتعيش محطمة يتبرأ بعض أبنائها من بعض ويمص بعضهم دماء بعض . هي مثل شجرة خبيثة لا أصل لها في الأرض ولا تحمل زهراً ولا تجرى في أعوادها إلا السموم والدنس ؛ فارفعوا الرؤوس يا أهل اليمن كما كنتم ترفعونها دائماً ، وأطيعوا حكمة المقادير التي لا ترضى إلا عن أمة تتعلق بالمثل العليا ، وافتحوا قلوبكم يا أهل اليمن للعدالة ، وأطيعوا حكمة المقادير التي لا تبقى على أمة إلا إذا كان العدل الصحيح أساسها ، والرحمة الصحيحة لواءها . » وعاد بين الهمات إلى الإيوان يحس أنه حقيقة وأن قومه حقيقة وأن قصره حقيقة ، وأن صور الخيال التي كانت تحدثه وتدعوه وتشير إليه ليسير وراءها قد صدقته وعدّها فانتّهت به آخر الأمر إلى الغاية التي بدت له في أول أمرها أبعد من أوهام الخيال .

وسأل عن السجناء الذين كانوا في جباب القصر ، وكان ما يزال به أمل متلهف أن يجد فيهم الشيخ أبا عاصم . ولكن الأقدار كانت رحيمة بالشيخ ، فإن يكسوم قتله يوم خرج من عنده .

* * *

ولما خلا إلى نفسه عادت إليه صورة خيلاء في آخر لحظة رآها ؛ أيجرؤ أن يذهب إليها ويطوى عنها ذكر طليبة في كذبة كبرى مثل الكذبة التي طوتها عنه أمه أعواماً طويلة ؟ ولكنه كان يعرف أن طليبة هي

الأخرى حقيقة من حقائق حياته التي جرفته في تيارها . لم يخطر له وهو يودع خيلاء عند باب صنعاء أنه سيأنس يوماً إلى امرأة . كان يحسب أنه سيقنع في كل حياته بصورها وأصداء أحاديثها . كانت صورتها عنده ذات أحاديث شتى ، في بستان القصر وفي أبهائه وفي درس الشيخ وفي مخدعها يوم جثا إلى جنبها يستعطفها لتخرج معه ، ثم عند باب صنعاء وهي مطرقة في هودجها تصلى . وكانت تلك الصور وأحاديثها كفيلة بأن تملأ فراغ قلبه سعادة وشقاء . ولكن طليبة اصطدمت به يوماً ثم سارت إلى جنبه في الصحراء ، وصارت له سكناً في أيام تشريده وبأسه ، وكانت هي الأخرى تودعه صوراً شتى لكل منها حديث . كانت بجسمها وروحها تؤنس ، وكانت بطبيعتها الدافقة النائرة تحركه وتشعل فيه جذوة الجهاد كلما أوشكت أن تخبو . وقد أبى أن يدعها لقضائها في عكاظ ولم يبال أن يتهمه الناس بقتل رجل غيلة في الشهر الحرام ، وما زال يتمسك بها حتى أودعها عند صاحبه الشيخ أبي عدى بمدائن كسرى ، ريثما يفرغ من حربه . فهل كان يستطيع أن يفارقها وإن كان ذلك من أجل خيلاء ؟ أكان عليه أن يختار إحداهما ؟ أم يجمع بينهما ؟ أهما أمتان ؟

لم يكن بين الحرائر من هن أعنف منهما حرية . خيلاء التي هربت من أن تكون ملكة لتحفظ على نفسها اختيار المرأة الحرة ، وطليبة التي وقفت وحدها أمام العالم كله منذ كانت طفلة ، تتحدى وتحقد وتعنف وتدافع وتسخر ، والتي طعنت بالخنجر ولم ترتجف من هول فعلتها ،

بل ضحكت قائلة إنها ستقضى ليلتها راقصة حتى تعيا وشاربة حتى لا تعي ، ثم تستقبل قضاءها هازئة أهاتان أمتان ؟ أيسأل نفسه هل يجمع بينهما ؟

• ووجد سيف نفسه آخر المرحلة عند باب الدير في نجران يرجو أن يقابل خيلاء . وكانت أسوار الدير العالية وأبراجه الضخمة تجعله مثل قلعة حصينة ، وكان الباب يفضي إلى فناء مغلق تحيط به جدران أربعة لا منفذ فيها . فوقف سيف هناك في قلق لا يدرى هل يؤذن له ، ولم يخل قلبه من شعور يشبه الإهانة ، إذ يقف هناك منتظراً كأنه لم يكن ملكاً . ومضت لحظات كانت عنده مثل ساعة طويلة . أتأبى خيلاء أن تراه ؟ ثم رأى سقف الفناء المغلق ينفرج عن طاقة مربعة ويتدلى منها سفت كبير معلق في حبال غليظة ، وسمع صوتاً يناديه : « تفضل باسم المسيح أيها الضيف الكريم » . وبقى لحظة متردداً ، وهبطت بضدرة قبضة ، ولكنه اعتلى السفت وصعد فيه حتى دخل في الثغرة ورأى الراهبات يجاهدن في تدوير آلة كالعجلة تلف الحبال به كما يصعد . واستقبلته رئيسة الدير واطمئنت يديها قائمتين متقابلتين على صدرها كأنها في صلاة ، ثم تمت ببعض ألفاظ وسارت به إلى غرفتها قائلة :

— أنت يا مولاي أول رجل يدخل إلى هذا الدير ، ولعلك تكون آخر رجل ، فإن خيلاء القديسة أبت إلا أن تراك .
وما فرغت الرئيسة من قولها حتى أقبلت من ؟ خيلاء ؟ وتقدم

سيف نحوها في لهفة بغير أن يعي ما يفعل . ولكن خيلاء كانت أهدأ جأشاً ، ووقفت تنظر إليه في خشوع صامته . وكانت ملابسها البيض الفصفضة التي تغطي رأسها وجانبي وجهها ويديها إلى أطراف أصابعها ، مثل زنبقة بيضاء في كمها . ووضعت يديها كما وضعت الرئيسة يديها وتمتت قائلة :

— يباركك السيد المسيح يا مولاي !

فنظر سيف إليها ذاهلاً ، ثم إلى الرئيسة نظرة حائرة ، وكان قلبه يفيض قولاً ولا يجرؤ أن ينطق بكلمة . ثم اندفع قائلاً :

— خيلاء ! أما أستطيع أن أتكلم ؟ أما تقولين يا سيف ؟

فقال في صوت خافت وأسبلت جفניה :

— كنت دائماً أصلي لك يا سيف ، وسأصلي لك في الصباح والمساء .

فقال في لفظ متقطع :

— ولكن ماذا تقولين ؟ أما تعودين معي ؟

فقال :

— تصاحبك صلواتي !

وتحركت في ارتباك واضطربت أهدابها . فقالت الرئيسة :

— يا خيلاء القديسة ! في صحبة السيد المسيح اذهبي .

ورفعت خيلاء بصرها في نظرة جائشة ، ثم وضعت يديها على صدرها

وتمتت بصلاة خافتة ، ثم انصرفت بخطا متقاربة خفيفة . ونظر سيف

وراءها كأنه يريد أن يلحق بها فقالت الرئيسة :

— تجلد أيها الملك ! لقد عرفت قصتكما في اعترافها ، ولا أشك في أنها الليلة ستعترف اعترافاً طويلاً . إن قلبها ما يزال يتعلق بالفناء الزائل ، وما تزال تضمرك لك الحب الذي وصفته أنه أبقى من الحياة وأقوى من الموت . إنه ما زال ينازعها في قدسية صلواتها . ترفق بها يا ولدى وترفق بنفسك ، ولا تحاول أن تراها ، فقد وهبت نفسها للمسيح ولن تستطيع أن تسترد ما وهبت .

فقال سيف وهو يخفى حنقه :
— ولكنها لى أيتها الأم الطيبة .
فقالت :

— لن تكون خيلاء لبشر .
وكان صوتها الهادئ صارماً ونظرتها الوديعه نافذة .
وبقى سيف لحظة ينظر إليها صامتاً واليأس يدب إليه ، كما كان الظلام يدب في الأصيل الخافت .
واستأنفت رئيسة الدير قولها :
— ترفق بالقديسة يا ولدى ، فإنها لا تمتنع عن لقاءك إذا شئت ، ولكن ذلك يجهدا ويشرد بها عن صلواتها .

* * *

وانصرف من الدير يتزع نفسه ، فما كاد يخرج إلى الفضاء حتى همز جواده فاندفع في الليل عنيفاً على الطريق كأنه يطارد عدواً .
وكان أول همه عندما عاد إلى غمدان أن يذهب إلى الوعاء المرمى ،

لعله يجد فيه الصورة التي تعزیه عن خيلاء . وكان الوعاء على عهدہ يقف مزهواً على قاعدته الرشيقة والنقش الخالد يبدو عليه عبقرية . وكان سفر أربع ليال متوالية قد أجهدہ واليأس من خيلاء يثقل صدره . وأمسك بالوعاء الثمين بين يديه وخطر له أن يحطمه . لم يجده إلا حجراً صامتاً عليه نقش خافت لصورتين جامدتين لا حياة فيهما ، ينظران إلى القمر نظرة مملّة ويبسمان ابتسامة بلهاء ، وخيل إليه أنه كلما نظر إليه من بعد ثار حنقه وعاد إليه يأسه وهوانه عند خيلاء . أهى تؤثر عليه صورة ، وتفسد على نفسها وعليه سعادة كانت محققة ؟

ولكنه لم يقذف بالوعاء على الجدار ليحطمه ، بل أعاده إلى موضعه في شيء يشبه الترفق . وذهب ليطيع حاجة جسده المضنى .

واجتمع إليه في ضحوة صباح بعد أسابيع جمع حاشد من الوفود التي كانت لا تنقطع عن غمدان منذ عاد إليه . كان فيهم وفود من القبائل البعيدة في سروحير وفي شواطئ البحر وفي سهول تهامة ، وكان فيهم من شيوخ زبيد والطائف ومكة ، وعبد المطلب بن هاشم مع جماعة من قومه جاءوا يؤدون إليه تحية قریش الظافرة .

ودخل معهم الشعراء ينشدونه المدائح ، ويزفون إليه التهنية . وكان فيمن جاء إليه الشيخ أبو عدى يحمل إليه نبأ من طليبة التي تركها عنده .

وسأله في لهفة :

— أ جاءت معك ؟

فقال الشيخ واجماً :

— بعثت معي رسالتها .

فقال سيف :

— رسالتها ؟

فقال الشيخ :

— تقول إنها صاحبتك عندما كنت تضرب هائماً في الصحراء ،
لأنها خلقت لهم في الحياة . وبقيت معك وأنت تضطرب في يأسك
على باب كسرى ، لأنها خلقت لتضطرب وتيأس وتتحدى . ولكنها
لا تطيق أن تكون ملكة .

فقال سيف في صيحة مكتومة :

— الحمقاء ! سأبعث إليها وأحملها قسراً .

فقال الشيخ :

— كدت أفعل ذلك ولكني لم أجدها . أصبحت يوماً فلم أجدها .
ولم أستطع أن أجدها لها أثراً .

وأطرق سيف في خيبة أشد من خيبته عندما خرج من دير نجران ،
وأحس الوحشة تحيط بالبهو المزدهم .

وتقدم أبو الصلت الشاعر الثقي مع وفد الطائف فقال يهنئه :

ليطلب الثأر أمثال ابن ذى وزن في البحر ريم للأعداء أحوالا
ولكن الملك كان ذاهلاً عنه يفكر في طليبة الهرة الوحشية . امرأة
أخرى تأتي أن تكون ملكة !

وكان كذلك يفكر في غمدان الذى صار أشد وحشة مما كان عندما
خرج منه . حتى ريحانة هاجرت منه إلى بيت أبيها !

وانتهى الشاعر إلى آخر قصيدته قائلا :
فاشرب هنيئاً عليك التاج متكئاً فى رأس غمدان داراً منك محلاً
وقدم إليه الساقى كأساً ذهبية ، فتناولها وجرع ما فيها ، لعلها تذهب
عنه ضيقه .

ولما انصرف الجمع قام سيف فاتراً تقوده قدماه إلى البهو حيث
كان الوعاء المرمى .

وجلس هناك ينظر إليه وهو لا يدرى أيمحطمه أم يبقى عليه . أبقى عليه
لكى يذكره كلما وقعت عينه عليه بالحيبة الكبرى فى حياته ؟
ولكنه عندما وقعت عينه على الصورة رأى كأنها تتحرك وتتحدث ، وتذكره
باللحظة المسحورة عندما وقفت خيلاء إلى جنبه هناك تحدثه وهو يقول
لها : « لو كنت فنناً لخلدت موقفنا هذا فى صورة مثل هذه » . وعادت
إليه ذكريات كل حياته الأولى منذ كان طفلاً إلى أن ترك خيلاء
فى دير نجران . وأحس نسيماً من السلام يدب إليه شيئاً فشيئاً من
خلال أشجانه النائرة . لقد سمى به خيلاء إلى آفاق الحب الأعلى الذى
يسمو فوق حب الأجساد . وذاق فى ذلك سعادة تغذى روحه بما
لا تغذيه المتعة أو الطرب أو الجهاد فى سبيل الثأر أو الحرية . وإن
كانت خيلاء لم تعد معه إلى غمدان فإن صورتها هناك دائماً تصاحبه ،

وهي هناك في ديرها تذكره وتصلي من أجله . ورف قلبه في رفق ورحمة ،
 وأعاد نظره إلى الوعاء المرمى يتأمل صورته . كانت صورة حية سعيدة
 خالدة على الدهر لا يعترها تبدل ولا فناء . وهكذا كانت صورة خيلاء .
 ستبقى تلك الصورة في قلبه ما عاش ، وسيرها في كل مرة مثل الزنبقة
 البيضاء لا تدب إليها شيخوخة ولا تمتد يد الأيام إلى محاسنها ولا إلى
 السلام المنبعث من نظرتها .

واستيقظ من سبحة على صوت الحاجب الذي جاء يستأذنه في
 استقبال الشيخ وهرز وقد جاء مستأذناً في العودة بجنوده إلى مدائن
 كسرى . . .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

**** معرفتي ****
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الوعاء المرمرى

أى « وعاء من المرمر » فى قصة جهاد « اليمن » ، وجهاد
بطلها « سيف بن ذى يزن » ؟ قصة يكتب الزمان حوادثها منذ
بضعة عشر قرناً ، ويستحضر المؤلف مادتها منذ نيف وثلاثين
عاماً ، ثم يخرجها ونحن على أبواب الحرية التى ندقها بكل
يد مضرجة ، ألسنا نقول مع الشاعر الذى أوحى إلى مؤلفنا
بهذه القصة الفاتنة : « هل الحياة إلا صورة متجددة تتجسد
فى جيل بعد جيل فى شخوص شتى وإن كانت حقيقتها واحدة ؟ »